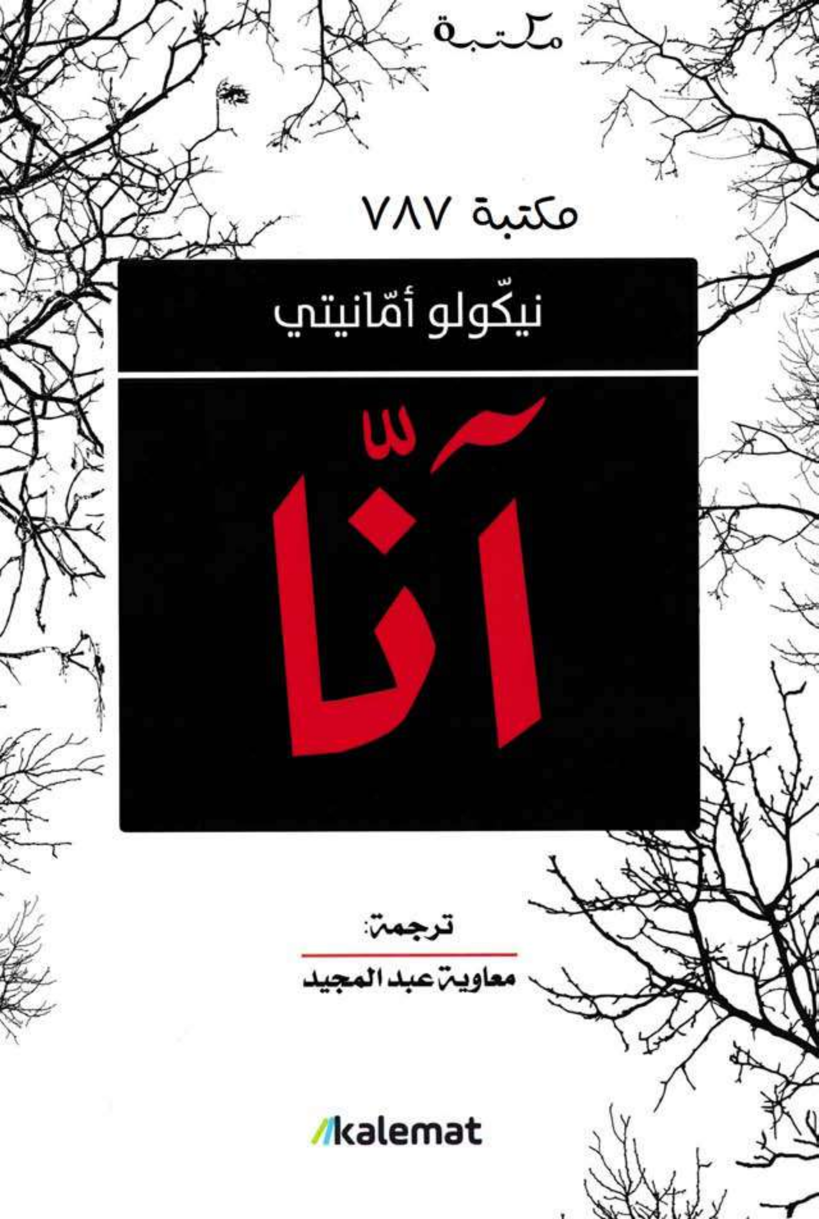

مكتبة
مكتبة ٧٨٧
نيكّولو أمّانيتي
آنّا
ترجمة:
معاوية عبد المجيد
kalemat

هذه واحدة
والآخرى لابينا



آنّا

Anna

نيكّولو أمّانيتي

Niccolò Ammaniti

ترجمة:

معاوية عبد المجيد

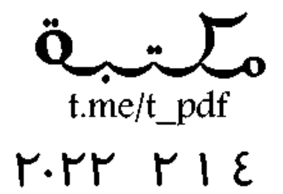
دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com



ردمك: 978-9921-730-52-4

آنّا
Anna

مكتبة | 787
سُر مَن قرأ

نيكّولو أمّانيتي

Niccolò Ammaniti

ترجمة:

معاوية عبد المجيد

2021

رواية

kalemat

كان هنالك طفلٌ

طفلٌ مسحورٌ وغريبُ الأطوار

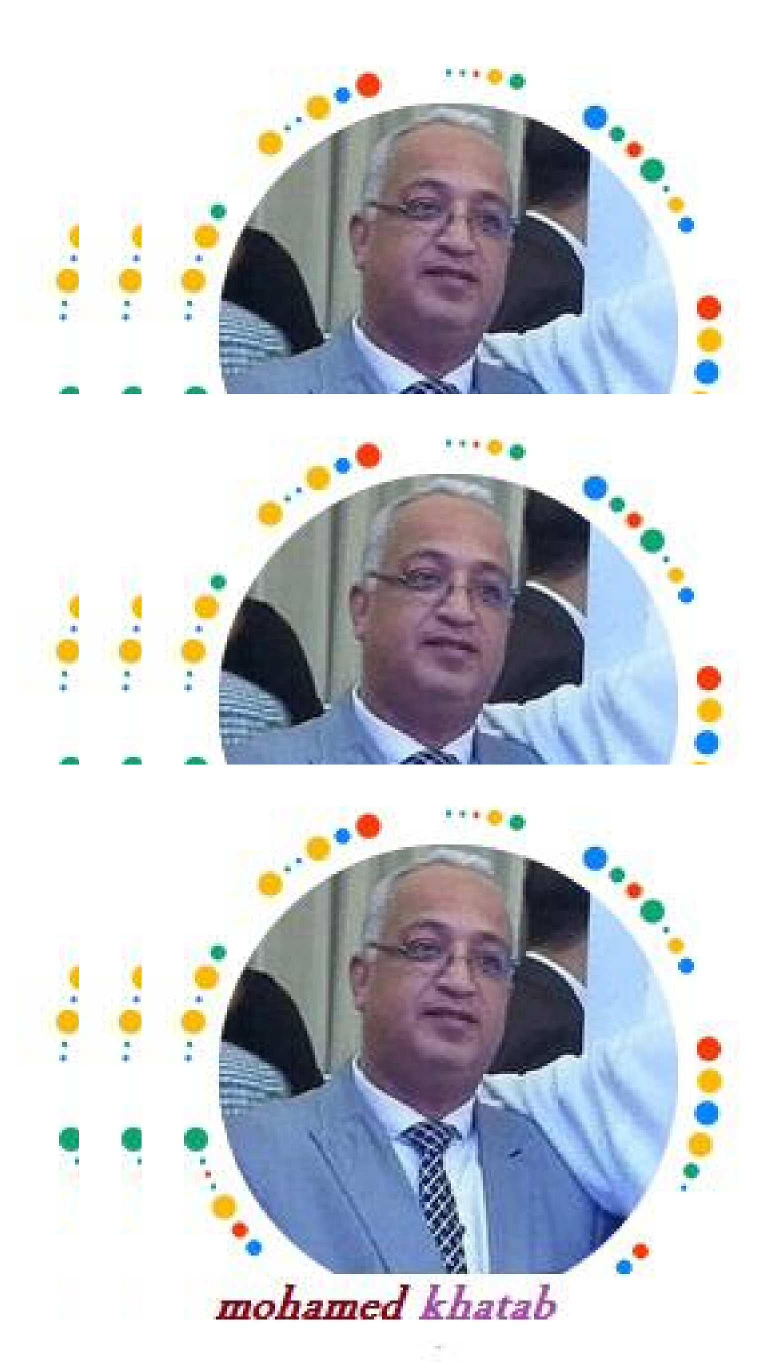
قيل إنّه سافر بعيدًا، بعيدًا جدًّا

ما وراء الأرض والبحار

وكان شاردًا، والحزنُ في عينيه

لكنّه كان لبيبًا جدًّا.

إيدن أهبيز، أغنية *طفل الطبيعة.*


mohamed khatab

كان عمره ثلاثة أعوام، ربّما أربعة. كان جالسًا بكلّ هدوء على أريكةٍ صغيرة من جلدٍ مُصنَّع، منحني الذقن على كنزته الخضراء ذات الأكمام القصيرة. بنطلون الجينز مثنيٌّ فوق حذائه الرياضيّ. يمسك بيده قطارًا خشبيًا يتدلّى بين ساقيه كالمسبحة.

وثمّة امرأةٌ مستلقية على السرير في الجانب الآخر من الغرفة، وعمرها ما بين الثلاثين والأربعين عامًا. ذراعها مكسوّةٌ ببقعٍ حمراء وقشورٍ قاتمة، وموصولةٌ بمحقنةِ تنقيطٍ فارغة. لقد أحالها الفيروس إلى هيكلٍ عظميٍّ يتنفّس بمشقّة، وتيبّسَ جلدها وتقرَّح، لكنّه فشل في انتزاع الجمال الذي ما زال يلوح على تقاسيم خدّيها وأنفها المنتصب إلى أعلى.

رفع الطفل رأسه ونظر إليها، تشبّث بالمسند، ونزل عن الأريكة حاملًا القطار الصغير بيده حتّى وصل إلى السرير.

لم تنتبه إليه. كانت عيناها، الغائرتان في بئرين داكنتين، تحملقان في السقف.

أخذ الصغير يلهو بأحد أزرار الوسادة المتّسخة. كان جبينه محجوبًا بشعره الأشقر، الذي غمرته أشعّة الشمس المتسرّبة من الستائر البيضاء فبدا مثل خيوط النايلون.

وإذ بالمرأة تستند على مرفقيها فجأةً، وتقوّس ظهرها كما لو أنّهم ينتزعون روحها من أحشائها. شدّت بكلتا القبضتين على الأغطية وهوت من جديد بعد أن زعزعتها نوبة السعال. كانت

تحاول أن تبتلع الهواء بمطّ ذراعيها وساقيها. ثمّ استرخى وجهها، وفغرت شفتيها وماتت بعينين جاحظتين.

أمسك الطفل يدها برفقٍ وراح يشدّ سبّابتها. همس بصوتٍ خفيض: - «ماما؟ ماما؟». وضع القطار على صدرها وجعل يزلّقه على أغطية السرير. فصدم به اللاصق الملطّخ بالدم الذي يخفي إبرة المحقنة. وخرج من الغرفة.

كانت الإضاءة في الممرّ خافتة. ومن أحد الجوانب يصدر طنينُ جهازٍ طبّيّ.

مرّ الطفل بجانب جثّة رجلٍ بدين ملقىً عند عجلات النقّالة. جبينه على الأرض، وإحدى ساقيه ملويّة بوضعيّةٍ غير طبيعيّة. ومن أطراف مئزره الأزرق يتبدّى ظهرُهُ الممتقع.

تابع الطفل تقدُّمه مترنِّحًا، كأنّه لا يستطيع السيطرة على ساقيه النحيلتين. هناك جثّة امرأة عجوز، راقدة على نقّالة أخرى، بجانب إعلانٍ يوصي بالوقاية من سرطان الثدي، وصورةٍ لكاتدرائيّة سان بول في مدينة لياج البلجيكيّة.

سار تحت ضوء النيون الأصفر الذي كان يفرقع. ثمّة فتىً بلباس النوم والخفّ الإسفنجيّ ميّتٌ عند باب مهجعٍ طويل، ممدّد الذراع، متشنّج الأصابع كأنّه كان يصارع دوّامةً تسعى لابتلاعه.

وفي آخر الممرّ كان الظلام يعارك ومضات الشمس التي تجتاز الأبواب عند مدخل المستشفى.

توقّف الطفل. إلى شِماله السلالمُ والمصاعدُ ومكتبُ الاستقبال. وخلف الطاولة الحديديّة تتراءى شاشاتُ الكمبيوتر المقلوبةُ على المكاتب، وواجهةٌ زجاجيّةٌ مهشّمةٌ إلى آلاف الشظايا المكعّبة.

أسقط القطار من يده وركض نحو المخرج. أغمض عينيه، ومدَّ ذراعيه ودفع الأبواب الضخمة فطواه الضوء.

في الخارج، بعد الأعتاب، وبعد الشرائط البلاستيكيّة البيضاء والحمراء، تتبدّى معالم سيّارات الشرطة والإسعاف وشاحنات الإطفاء.

صاح أحدهم: - «طفل. هناك طفل...»

غطّى الطفل وجهه بكلتا يديه.

تقدَّم نحوه طيفٌ مكتنزٌ حجب عنه الشمس.

تسنّى للطفل أن يرى رجلًا متسربلًا ببزّةٍ بلاستيكيّةٍ سميكةٍ وصفراء اللون.

فأمسكه وحمله بعيدًا.

بعد أربعة أعوام...

الفصل الأوّل
أرضُ التُّوت

.1

كانت آنّا تركض على الأوتوستراد وتشدُّ أحزمة حقيبتها التي تتأرجح على ظهرها. وتلتفت برأسها إلى الخلف بين اللحظة واللحظة.

الكلاب هناك. في طابور، أحدها خلف الآخر. ستّة، أو سبعة. ضلَّ كلبان الطريقَ وكانا في حالٍ متردّية، أمّا أضخمها الذي يسبق البقيّة فكان يتقدّم.

قبل ساعتين، لمحت آنّا مجموعة الكلاب تلك في نهاية حقلٍ محروق، تظهر وتختفي ما بين الصخور القاتمة وجذوع الزيتون المسوّدة، لكنّها لم تشغل بها بالاً.

إذ كانت قد تعرَّضت أكثر من مرّة لهجومٍ من قطعان الكلاب الوحشيّة، تلاحقك مدّةً معيّنة، ثمّ تتعب وتنصرف إلى شؤونها.

لكنّها عندما لم ترَ لها أثرًا تنفّست الصعداء. توقّفت لشرب الماء المتبقّي لديها واستأنفت المسير.

كانت تحبّ العدَّ وهي تمشي: تعدّ الخطوات التي يتكوّن منها الكيلومتر؛ تعدّ السيّارات الزرقاء وتلك الحمراء؛ تعدّ الجسور.

ثمّ ظهرت الكلاب من جديد.

كائناتٌ بائسة، في خضمّ بحرٍ من رماد. صادفت العديد منها: الجرب يغزو وبرها، وعناقيد القراد تتدلّى من آذانها، وعظام صدورها ناتئة. تتقاتل من أجل جيفة أرنب. وقد أشعلت حرائقُ الصيفِ السهولَ وأصبح من النادر توافر ما يؤكل.

اجتازت صفًا من السيّارات المكسّر زجاجها. نمت الحشائشُ والسنابلُ على هياكلها الرازحة تحت طبقةٍ من الرماد.

كانت رياحُ الجنوب قد هبّت فدفعت ألسنةَ اللهب حتّى البحر، وخلَّفت وراءها أرضًا يبابًا. وكان الشريط الأسفلتيّ للطريق آ 29، الذي يصل باليرمو بمازارا دل فالّو، يشطر الامتداد الميّت الذي ترتفع فيه حرابُ النخيل المتفحّم وبعض ريش الدخان. على الشِمال، ما بعد بقايا كاستيلاماري دل غولفو، يتراءى البحر الرماديّ الذي ينعجن بالسماء. وإلى اليمين نسقٌ من التلال المنخفضة والقاتمة التي تطفو على السهل كأنّها جزرٌ بعيدة.

حارة العربات مسدودةٌ بشاحنةٍ مقلوبة. هناك مقطورةٌ قد تحطّمت على المنصّف المركزيّ، فتبعثرت منها المغاسلُ والمشاطفُ والمراحيضُ وشظايا الرخام الأبيض على عشرات الأمتار. عبرت الفتاة وسطها.

كاحلها الأيمن يوجعها، لأنّها في ألكامو رفست باب دكّانة أغذية.

تصوّروا أنّ الكلاب أيضًا كانت موفّقة.

كانت آنّا قد خرجت قبل انجلاء الظلام. مضطرّة في كلّ مرّة إلى الابتعاد أكثر لتبحث عمّا يؤكل. في السابق كان الأمر سهلًا، يكفي أن تذهب إلى كاستيلّاماري لتجد ما تريد، إلّا أنّ الحرائق عقّدت كلَّ شيء. سارت آنّا قرابة ساعاتٍ ثلاث تحت شمسٍ تهيمن على سماءٍ باهتةٍ وخاليةٍ من الغيوم. انقضى الصيف منذ مدّة، لكنّ الحرارة لا تنخفض. والريح، بعد أن هيّجتِ النيران، انكفأت كما لو أنّها لم تعد تهتمّ بأمر هذا الجزء من الخليقة.

فـي أحـد المشـاتل، بجانـب حفـرة عملاقـة أحدثهـا انفجـارٌ فـي محطّة وقود، وجدت علبة ضخمة مليئة بالأغذية تحت الخيم المغبرّة.

مـلأت الحقيبـة بسـتّ عبـوات مـن فاصوليـاء شـيريو، وأربعـة معلّبـات مـن صلصـة الطماطـم غراتزيـلا، وقنّينـة مشـروب أمـارو لوكانـو، وأنبوبـة كبيرة مـن الحليب المكثّف نستله، وكيس مـن الكعك المحمّص –مكسَّرٌ لكنّه لا يـزال صالحًـا للتذويب فـي المـاء– وحزمة مفرَّغـة مـن الهـواء فيهـا نصـف كيلـو مـن بطـن الخنزيـر المجفّـف بانشيتا. لـم تصمـد أمـام البانشيتا فالتهمتها فـورًا، بصمـت، متربّعةً فوق أكيـاس السـماد المتكدّسـة علـى الأرض المغطّـاة ببـراز الفئـران. كانـت البانشـيتا قاسـيةً كالجلـد ومالحـةً حتّـى إنّهـا لذعـت فمهـا.

* * *

الكلب الأسود يتقدّم أكثر فأكثر.

أسـرعت آنّـا، وقلبهـا ينبـض علـى إيقـاع خطواتهـا. سـيطفح الكيـل قريبًـا. وسـيوجب عليهـا أن تتوقّـف وتواجهـه. لـو كان معهـا سـكّين. إذ كانـت دائمًـا تحمـل سـكّينًا، لكنّهـا نسـيتها فـي ذلـك الصبـاح، إذ خرجـت بالحقيبـة الفارغـة، وقنّينـة المـاء.

كانـت الشـمس علـى ارتفـاع أربـع أصابـع عـن الأفـق؛ مثـل كـرةٍ برتقاليّـة عالقـةٍ فـي رغـوةٍ أرجوانيّـة، لـن تسـتغرق السـهولُ وقتًـا طويـلًا لابتلاعهـا. ومـن الجهـة الأخـرى بـدا القمـر هزيـلًا كالظفـر.

التفتت إلى الخلف.

مـا زال الكلـب هنـاك. انسـحب رفاقـه، واحـدًا تلـو الآخـر، أمّـا هـو فـلا. لـم يقتـرب منهـا فـي الكيلومتـر الأخيـر، لكنّهـا كانـت تعدو فيمـا هـو يهـرول.

ربّما كان ينتظر الظلام لكي ينقضّ، غير أنّها استبعدت ذلك، فالكلاب لا تفكّر. وفي كلّ الأحوال لم تكن لتصمد حتّى حلول الظلام، إذ كان وجع كاحلها يزداد عليها، حتّى تشنّجت عضلة ساقها.

اجتازت لافتةً خضراء: خمسة كيلومترات عن كاستيلّاماري. كانت تتبع الخطَّ المرسوم في منتصف الطريق لتركض على نهج مستقيم. ولولا دويُّ أنفاسها ووقْعُ قدميها على الأسفلت لاستطاعت أن تسمع الصمت؛ إذ ما من ريح، أو عصافير، أو جداجد، أو زيزان.

وكلّما مرّت بجانب سيّارة أشار لها التعبُ إلى أن تحتمي في داخلها، في حين أنّ الدماغ يقترح عدم فعل ذلك. لم لا تحاول رميه بالكعك المحمَّص، أو أن تقفز على السياج؟ سوى أنّ الشباك ضيّقة ولم تلمح فيها أيَّ فجوةٍ تعبر من خلالها.

عند المنصّف كانت شجيرات الدفلى التي نجت من الحرائق محمَّلةً بالورود الزهريّة ما أثقل الأغصانَ فتدلّت. وامتزج الرحيق الحلو برائحة الخشب المحروق.

الحاجز مرتفع.

لكنّكِ الكنغر، قالت لنفسها.

في المدرسة، كانت معلّمة الجمباز السيّدة پيني تلقّبها بالكنغر لأنّها تقفز أعلى من الذكور. لم تكن آنّا تحبّ ذلك اللقب، نظرًا إلى أذني الكنغر الكبيرتين. كانت تفضّل الفهد: الأبرع في الوثب، والأجمل بكثير.

أنزلت الحقيبة وقذفتها خلف الشجيرات. أسرعت وأسندت قدمها إلى الرصيف الأَسمَنْتيّ، وقفزت بين الأغصان لتجد نفسها في المسار الموازي.

حملت الحقيبة وعدَّت إلى عشرة وهي تلهث. رفعت قبضتها عاليًا وابتسمت. كانت ابتسامتها جميلة ومزيّنة بأسنانها البيضاء التي نادرًا ما تبرزها.

مشت وهي تعرج. لم يبق لها آنذاك إلّا اجتياز الشباك لتكون في مأمن.

في الجانب الآخر يوجد منحدرٌ يؤدّي إلى طريقٍ فرعيّ يوازي الأوتوستراد. ليست هذه بالنقطة الجيّدة للعبور لا سيّما بكاحلٍ متألّم. نزعت الحقيبة والتفتت.

رأت الكلبَ يقفز من بين الأغصان ويعدو نحوها.

لم يكن أسود، بل أبيض، لكنّ جلده مكسوٌّ بالرماد، وإحدى أذنيه مقطوعة. إنّه أكبر كلبٍ رأته في حياتها.

وإن لم تتحرّكي فقد يأكلكِ.

تمسّكت بكلتا اليدين بشباك السياج، غير أنّ ذراعيها شُلَّتا من شدّة الخوف. استدارت وانزلقت أرضًا.

وثب الحيوان الأمتار الأخيرة من الأوتوستراد ثمّ اجتاز الحاجز والخندق بقفزةٍ واحدة. حجب طيفُهُ الداكنُ ضوءَ الغسق وهبط عليها بوزنه الثقيل ذي الأربعين كيلوغرامًا ورائحته النتنة.

أنهضت آنّا مرفقها ووخزت به عظامَ صدر الكلب، فانهار وانكبَّ بجانبها.

قامت. وما زال الوحش مستلقيًا على العشب. مرَّ تعبيرٌ شبهُ إنسانيٍّ عن الدهشة في حدقتيه السوداوين كالفحم.

حملت الفتاة حقيبتها عن الأرض، وانهالت عليه بها وهي تصيح. مرّةً، اثنتين، وثلاث. في الأولى على رأسه، ثمّ على عنقه،

وعلى رأسه مجدّدًا. وكان ينبح مشدوهًا، ويحاول النهوض. دارت آنّا حول نفسها مثل رامي الأثقال في وضعيّة التسديد، وأكملت دورةً كاملة، لكنّ حزام الحقيبة انقطع واختلّ توازنها. ارتكزت على ساقها، فلم يحملها كاحلها المتألّم؛ فسقطت.

ظلّ الاثنان، واحدًا بجوار الآخر، يتبادلان النظرات بضع لحظات، فإذا الكلب يجأر وينقبض ويندفع نحوها بمنخارين منفرجين.

رفعت آنّا قدمها السليمة وغرست كعبها في صدره ليرتطم ظهره بالحاجز.

هبط الحيوان على أحد جانبيه. يلهث، ولسانه الطويل يتجعّد تحت أنفه، وعيناه تستحيلان بؤرتين مظلمتين.

وبينما كان يحاول النهوض، بحثت آنّا عن شيءٍ تقضي به عليه. حجرة، عصا، لكنّها لم تجد شيئًا سوى القمامة المحروقة والأكياس البلاستيكيّة والصفائح المسحوقة.

- ما الذي تريده منّي؟ دعني وشأني! -صاحت عليه- بمَ أذيتُك؟

كان الوحش يرمقها بعينين مشحونتين بالنقمة، وهو يرفع شفاهه السوداء لإبراز أنيابه المصفرّة وفقاعات اللعاب السائل بين أضراسه. وكان صدره يهتزّ بجؤارٍ خفيضٍ ومتوعّد.

ابتعدت الفتاة تترنّح يمينًا وشِمالاً، تتعثّر بأربطة الحذاء. أنظارها تزوغ عند كلّ خطوة بين الدفلى، والسماء المعتمة، وهيكل بيتٍ ريفيّ متفحّمٍ بلا سقف. توقّفت ونظرت إلى الخلف. الكلب يلاحقها.

ظلّت آنّا تعرج حتّى وصلت إلى سيّارة صالون زرقاء بواجهةٍ محطّمة. بابها الأماميّ مفتوح، وزجاجها الخلفيّ مكسور. ركبت بها بشقّ الأنفس، وجذبت الباب لكنّه كان مستعصيًا. حاولت إغلاقه بكلتا يديها. فرقع الباب على مفاصله الصدئة وارتدّ على قفله المؤكسد. حاولت ثانيةً، ولكن عبثًا. أغلقته في النهاية بربط حزام الأمان حول المقبض. أسندت رأسها على المقود وظلّت بعينين مغمضتين تنفخ صدرها وتفرّغه بالهواء المشبع بذراق الطير. كان الزجاج المكسوّ بالرماد والغبار يجعل المركبة أشدّ ظلمة.

ثمّة هيكلٌ عظميّ ملطّخٌ بالذراق الأبيض، يؤانسها على المقعد المجاور. اختلطت بقايا سترته المبطّنة والمتغضّنة بفرش المقعد، وتمزّق نسيجُها فنتأ منها ريش البطانة والأضلاع الصفراء. أمّا الجمجمة فكانت تتدلّى على الصدر المتماسك بأوتاره المتيبّسة. ينتعل في قدميه جزمة مخمليّة عالية الكعبين.

انتقلت آنّا إلى المقعد الخلفيّ، اجتازته وزحفت نحو الصندوق واقتربت من الزجاج المهشّم. لم تتشجّع على النظر إلى الخارج، لكنّ الكلب بدا أنّه اختفى.

اضطجعت بجانب حقيبتين فارغتين. ضمّت ذراعيها على صدرها ودسّت يديها تحت إبطيها المتعرّقين. استنفدت ما لديها من أدرينالين وكانت تستصعب إبقاء عينيها مفتوحتين. ستكتفي بالنوم خمس دقائق فقط. أمسكت الحقيبتين وحاولت أن تسدّ بهما فتحة النافذة. كانت إحداهما صغيرة جدًّا، لكنّها دفعت الأخرى بقدميها واستطاعت تثبيتها.

تلمّست شفتيها. حطّت أنظارُها على صفحة من دفتر متّسخ. كُتِبَ عليها بالخطّ العريض: «النجدة، حبًا باللّه!»

لا بدّ أنّها للمرأة التي في المقعد الأماميّ.

كانت تقول إنّ اسمها جوفانّا إمبروتا، وأنّها كانت تموت ولديها ابنان في باليرمو، إتّوري وفرانشسكا، في الطابق الأخير من شارع الملك فدريك، 38. لا يتجاوزان الرابعة والخامسة عامًا، وقد يموتان جوعًا ما لم يذهب أحدٌ لإنقاذهما. وفي الدُّرج الأماميّ هناك خمسمئة يورو.

رمت آنّا الورقة، وأسندت رقبتها إلى النافذة وأغمضت عينيها.

* * *

صحت جَفلةً مغمورةً بالصمت والظلام. واستغرقت بضع ثوانٍ لتتذكّر أين كانت. فكّرت للوهلة الأولى أن تنزل وتتبوّل، لكنّها عدلت عن ذلك. فالقمر غائب. ستكون عزلاء ومعدومة الرؤية.

كانت لديها قاعدة: أن تجد مأوىً قبل مغيب الشمس. فلقد فوجئت بالظلام مرّتين، واضطّرت إلى الاختباء في أوّل منزلٍ صادفته.

من الأفضل أن تقضي حاجتها في صندوق الأمتعة وأن تنتقل إلى المقعد الخلفيّ. فكّت أزرار بنطلونها القصير. وبينما كانت تخفضه انقطعت أنفاسها إثر دويٍّ مباغت، مثل غصنٍ ينكسر. كان صوت كلابٍ تتشمَّم.

سدّت فمها وهوت بمؤخّرتها العارية على الموكيت، محاولةً ألّا تتنفّس، ألّا ترتجف، ألّا تحرّك حتّى لسانها.

كانت مخالب الكلاب تخدش الصفيح وتخضُّ السيّارةَ برمّتها.

!رتخت فتدفّق السائل الدافئ. تبلّل الموكيت تحتها. وانتشت آنًا بلحظةٍ من المتعة الخالصة حتّى انفتحت شفتاها.

بدأت تصلّي. مطالبةً يائسةً بالنجدة غيرُ موجّهة إلى أحد.

الكلاب تتناحر. تلتفّ حول المركبة. وتطقطق على الأسفلت ببراثنها.

تخيّلت أنّ أعدادها تفوق الألف. وأنّ السيّارة مطوّقةٌ بسجّادةٍ من الكلاب تمتدّ من الجبال حتّى البحر وتكتنف الكوكبَ كلَّه بالوبر.

ضغطت بيديها على أذنيها.

فكّري بالجيلاتو.

بوظة مثلَّجة وحلوة ككرات البَرَد، من كلّ الأذواق. بإمكانك أن تختار أَحَبَّها إلى قلبك من تلك الأواني الملوّنة، فيضعونها لك في قرنٍ من البسكويت. تذكّرت أنّها كانت ذات مرّة عند الكشك على شاطئ «الحوريّات». التصقت بزجاج الثلّاجة وقالت:

- أريد بوظة الشوكولاتة والليمون.

عبَّرت أمُّها عن اشمئزازها.

- مقرف...

- لماذا؟

- ذوقان لا يتجانسان.

- هلّا حصلتُ عليهما؟

- شرط أن تأكليهما.

وهكذا حملت القرن بيدها، وجلست على الشاطئ. كانت النوارس تتهادى واحدًا خلف الآخر بسيقانها الرفيعة كالعيدان.

كانت الحلويات متوافرة قبل اندلاع الحرائق: مارس، الكعك الحلو، باونتي، وحبّات الشوكولاتة الصغيرة. وكانت قد يبست، وغزاها العفن أو نهشتها القوارض، لكنّها في بعض الأحيان ما تزال لذيذة إن حالفك الحظّ. لا وجود للجيلاتو بطبيعة الحال. فالأشياء المثلّجة اختفت باختفاء الكبار.

نزعت يديها عن أذنيها.

تبدّد صوت الكلاب.

حانت اللحظة التي تتساوى فيها أوزان الليل والنهار خلال الفجر، فتبدو الأشياء أكبر من حجمها. شريطٌ حليبيٌّ يرتسم على أفق السهل، والريحُ تخشخش ما بين سنابل القمح التي تلافاها الحريق.

خرجت آنّا من السيّارة وتمطّت. فترت آلامُ كاحلها بعد الراحة.

ينبسط الأوتوستراد مثل عود العرقسوس. كان الأسفلت حول السيّارة ملطّخًا ببصمات مخالب. وعلى بُعد خمسين مترًا، فوق الخطّ الأبيض، ثمّة شيءٌ ما.

للوهلة الأوّلى ظنّت أنّها حقيبتها، بل إطار شاحنة، بل كومة خِرَق. ثمّ نهضت الخِرَقُ وتحوّلت إلى كلب.

* * *

الكلب ذو الأسماء الثلاثة

ولد ذلك الكلب في مقبرة سيّارات في ضاحية تراباني، تحت أنقاض ألفا روميو. والدته، من عرق الرعاة الماريميّة، تدعى

ليزا، أرضعته مدّة شهرين هو وإخوته الخمسة. وخلال المعركة الضارية للحصول على الحلمة، سقط أضعفهم. والآخرون، بعدما فُطِموا، بِيعوا بأثمانٍ بخسة، ووحدَه ذلك الكلب الذي كان أشدّهم ضراوةً وتأهّبًا، حاز على ميزة البقاء.

دانييلي أودو، صاحب المقبرة، كان رجلًا حريصًا على المال. وبما أنّ الثالث عشر من أكتوبر يصادف عيد ميلاد زوجته، خطرت على باله فكرة: لم لا يهديها الجروَ ذا الطوق الأحمر الزاهي على عنقه؟

كانت السيّدة روزيتا تنتظر مجفّف الملابس الجديد من طراز أريستون، فلم تتحمّس كثيرًا لكومة الوبر الأبيض هذه. كان الكلب جنّيًا مسعورًا يتغوّط ويتبوّل على الأبسطة وينتش أقدام خزانة الصالون.

فلم تبذل المرأة جهدًا كبيرًا، ووجدت له اسمًا: سالامي.

إلّا أنّ في المنزل مَن استاء من حضوره كثيرًا: الكولونيل، كلبٌ من فصيلة الداشهند، عجوزٌ خشن الوبر، عصابيٌّ عضّاض، يتّخذ من السرير مسكنه الطبيعيّ، ويصعد إليه بفضل سلّم صغير خُصّصَ له، إضافةً إلى حقيبة فويتون ينبح من فوقها على كلّ جسمٍ يمشي على أربع.

ومن بين مواهب الكولونيل أنّه لا يعرف الرحمة. كان ينشب أنيابه في الجرو ما إن يتحرّك من الزاوية التي يحاصره فيها.

قرّرت السيّدة روزيتا أن تغلق على سالامي في شرفة المطبخ، لكنّه كان صغيرًا، يبكي ويخدش الباب، فاشتكى منه الجيران. تغيّر قدره الموقت في أن يكون كلبًا منزليًا في اليوم الذي استطاع فيه

أن ينـدسّ إلـى الداخـل، وركض تتبعـه السـيّدة، فتزحلق علـى الأرضيّة الخشبيّة المشـمّعة وتعرقل فـي شـريط المصبـاح الـذي انفجـر فـوق تشـكيلة البانـدا الرخاميّـة المصفوفـة علـى طاولـة المشـروبات.

فعـاد سـالامي مباشـرةً إلـى مقبـرة السـيّارات، وقُيِّدَ بسلسـلةٍ علـى عنقـه فيمـا كان لا يـزال بأسـنانٍ لبنيّـةٍ ورغبـةٍ فـي اللعـب. وكانـت والدتـه ليـزا، فـي الجانـب الآخـر مـن الباحـة، خلـف جداريـن مـن حطـام العربـات، تنبـح علـى كلّ سـيّارةٍ تدخـل مـن البوّابـة.

غيَّـر الجـروُ نظامَـه الغذائـيّ مـن أصابـع اللحـم المعلّبـة إلـى المطبـخ الصينـيّ: المقلّيـات الملفوفـة، وفـرّوج البامبـو، والخنزيـر الحلـو والحامـض، ومـا تبقّـى مـن مخلّفـات «جنّـة الصيـن»، المطعـم النتـن المقابـل.

كان كريسـتيان، ابـن السـيّد أودو، يعمـل فـي المقبـرة. ربّمـا «العمل» ليس بالكلمـة المناسـبة، إذ كان يخيِّـم علـى الكمبيوتـر لمشـاهدة أفلام البورنـو داخـل حاويـةٍ حوَّلهـا إلـى مكتـب. وكان فتـىً هزيـلًا وعصبيًـا، رأسـه مملـوء بالشّـعر، وذقنـه مدبَّـبٌ ومضخَّـمٌ بلحيـةٍ مَعزِيّـة. كان لديـه عمـلٌ آخـر أيضًـا: يبيـع حبوبًـا منتهيـة الصلاحيـة عنـد أبـواب المـدارس، لكنّـه يحلـم بـأن يصبـح مغنّـي راب. كان مولعًـا بأزيائهـم، وحركاتهـم، والنسـاء اللواتـي يصاحبونهـنّ، وكلابهـم المجرمـة. سـوى أنّـه مـن الصعـب أن تغنّـي الـراب وأنـت تلثـغ بالـرّاء.

إبّـان ملاحظتـه لأداء سـالامي مـن خلـف نظّارتـه الشمسـيّة الضخمـة كشاشـات التلفـاز، أدرك أنّ ذلـك الكلـب الـذي ينمـو سـريعًا وصلبًـا يكتنـز قـوىً جبّـارة.

وذات مسـاء، كان داخـل السـيّارة قبالـة مركـزٍ تجـاريّ، أسَـرَّ

لسـاموِيل، صديقـه المفضّـل، أنّـه سـيجعل مـن سـالامي «آلـة قتـل فتّاكـة».

– لـن يفلـح فـي شـيء إذا ظلّ علـى هـذا الاسـم الغبـيّ، سـالامي – قـال سـاموِيل الـذي كان يـدرس فنـون التصميم، ولـم يجـد الاسـم مناسـبًا لآلـة قتـل.

– وماذا أسمّيه؟

– ما أدراني... بوب! – ارتجل الصديق.

– بوب؟ أيُّ اسمٍ سخيفٍ هذا؟ أفضِّل مانسون.

– أتقصد مارلينٍ مانسون؟

– كلا أيّهـا الأبلـه! أقصـد تشـارلز مانسـون! أعظـم مجـرم علـى مـرّ العصـور.

كان كريسـتيان يأمل أن يدخل مهاجـرٌ غيـرُ شـرعيّ أو أحـدُ الفجر إلـى المقبـرة ليـلًا للسـرقة فيجـد نفسـه بمواجهة مانسون.

– تخيّـل زنجيّـا يحـاول الهـرب بالتسـلّق علـى السـياج وأمعـاؤه تنبجـس فيمـا ينهـش مانسـون ردفيـه! – قهقـه وهـو يصفـع سـاموِيل بقـوّة علـى ظهـره.

عـزم كريسـتيان علـى جعـل الكلـب الماريمـيّ أشـدّ عدوانيّة، فـراح يتصفّـح علـى الإنترنـت فـي مواقـع الـكلاب المدرّبـة علـى القتـال. تحصَّـلَ علـى صاعـق، إحـدى تلـك الأجهـزة التـي إذا ضربـوك بشـحنتها الكهربائيّـةٍ عاليـة التوتّـر سـقطتَ بيـن الحيـاة والمـوت. ثمّ أتـى بعصـا مبرومـة بالمطّـاط وبـدأ التدريبـات لتحويـل الكلـب إلـى آلـة قتـل. لـم يُسـعَدْ بهـذا، فأخـذ فـي الشـتاء يرشـقه بـدلاء الميـاه المتجمّـدة ليجعـل منـه مقاومًـا ضـدّ عمـلاء الطقـس.

وبعد أقلّ من عام، غدا مانسون شرسًا لدرجة أنّهم إذا أرادوا إطعامه اضطرّوا إلى رمي الغذاء إليه من مسافة بعيدة وملأ قصعة الماء بخرطوم المضخّة. عملٌ ممتاز، لا سيّما أنّك لا تستطيع حتّى أن تحرّره في الليل خشية أن تفقد يدك.

ومثل آلاف الكلاب، بدا أنّ قدر مانسون هو أن يقضي حياته مكبّلًا بالسلسلة.

ثمّ جاء الفيروس وغيّر كلّ شيء.

حمل الوباءُ أسرةَ أودو في غضون أشهرٍ قليلة، وظلّ الكلب وحيدًا مربوطًا. صمد بشرب مياه المطر التي تتجمّع بين صفائح السيّارات، ولعق بقايا الطعام المتيبّسة عن الأرض. كان أحدهم يمرّ في ذلك الطريق بين الحين والآخر، ولكنْ لا أحد يتوقّف لإشباع جوعه، فيما يولول يائسًا، ويرفع خطمه نحو السماء. كانت والدته تردّ على نداءاته بعض الوقت، ثمّ خرست، ومانسون بدوره أضناه الجوع ففقد صوته. كانت روائح الجثث الكريهة تصل إلى منخاريه من المقابر الجماعيّة في ترابانـي.

وفي لحظةٍ معيّنة، أشارت عليه غريزته أنّ أصحابه لن يأتوه بشيء وأنّه سيموت هناك.

كانت سلسلته بطول عشرة أمتار، تنتهي بوتدٍ مغروسٍ في الأرض. بدأ يشدّها، باذلًا قصارى الجهود برجليه الخلفيّتين ومرتكزًا على الأماميّتين. وبات الطوق عريضًا على عنقه آنذاك وقد اشتدّ هزاله، فاستطاع في النهاية أن يتحرّر منه.

كان في أسوأ حال، مغمورًا بالجروح، وقد أدماه البرغوث، ولا يقوى على السير. مرّ بجانب جيفة أمّه، مرّر أنفه عليها سريعًا، وخرج متردّدًا من البوابّة الرئيسة.

لم يكن يعرف شيئًا عن العالم، ولم يتساءل لماذا غدا بعضُ البشر طعامًا، وآخرون أصغر سنًا ما يزالون أحياء، لكنّهم ما إن يصادفونه يفرّون منه.

استعاد عافيته في وقتٍ قصير. كان يتغذّى على القمامة، ويدخل البيوت لالتهام كلّ شيء يجده فيها، وغالبًا ما كان ينجح في إبعاد الغربان المتجمّعة على ولائم الجثث. صادف خلال تسكّعه في الشوارع قطيعًا من الكلاب الضالّة فانضمّ إليها.

وعندما ابتدأ الهجوم على نعجةٍ ميّتة، جأره الآخرون وأبرزوا أنيابهم. فاكتشف بالتجربة أنّ المجموعة تخضع لهرميّةٍ معيّنة، وأنّه ينبغي له البقاء بعيدًا عن الإناث اللواتي في مرحلة التكاثر، وأن ينتظر دوره ليأكل.

ذات يوم، في أحد الحقول المهجورة خلف متجرٍ للإطارات، ظهر أمامه أرنب.

الأرنب حيوانٌ صعب الاصطياد، سريعٌ ويسلك انحرافاتٍ مباغتة تضلّل المفترس. نقطة ضعفه الوحيدة أنّه سرعان ما يتعب. أمّا جسد مانسون فكان كتلةً عضليّة مقاومة، استطاع إمساكه بعد مطاردةٍ مرهقة، انهال عليه بضربةٍ حطّمت عموده الفقريّ، وشرع بالتهامه.

ظهر أمامه كلبٌ طليق، جنديٌّ أعلى منه رتبة، بأذنين متدلّيتين وخطمٍ أشبَه برأس الفطر. تنحّى مانسون، وأخفض ذنبه، لكنّه في اللحظة التي بدأ فيها الآخرُ بتناول الأرنب انقضّ عليه وانتزع منه أذنًا بعضّةٍ واحدة. فوجئ المسكين وذُعِر، واستدار والدماءُ تتدفّق منه ونشب أنيابه بجلد الماريميّ الثخين. قفز مانسون إلى

الخلف ووثب إلى الأمام، واندفع إلى حلقه وهشّم وريده الوداجيّ وقصبته الهوائيّة والمريء بضربة واحدة، وتركه يتلوّى بدمائه النازفة.

قلّما تكون النزاعاتُ بين الكلاب وبين الذئاب مميتةً، إنّما تهدف لتحديد المراتب في القطيع، وتمييز الأتباع عن القادة، لكنّ مانسون كان مقاتلًا لا يحترم القواعد، ولا يتوقّف إلّا إذا فارق خصمه الحياة. كان كريستيان أودو محقًّا: هذا الحيوان آلة قتل، وقد جعلته الآلام والعذابات التي عاناها عديمَ الإحساس بالإصابات وعديمَ الرأفة بالمهزومين.

كانت الدماء تثيره، وتمدّه بالطاقة، وتمنحه الاحترام من قِبَل الأتباع والأفضليّة عند الإناث الهائجات. كان ذلك العالم يعجبه، ليس فيه سلاسل ولا بشرٌ قساة، ويكفيه استخدام أنيابه لنيل الاحترام. وخلال أسابيع قليلة، لم يضطرّ حتّى إلى منازلة القائد، إذ انطرح الأخير أرضًا مفرجًا أرجله، وصار مانسون الكلب الألفا، ذاك الذي يأكل قبل الجميع ويحبّل الإناث.

بعد ثلاثة أعوام، عندما وقع انفجارٌ في مستودع غاز الميثان الذي فوجئ به أفراد القطيع بينما كانوا يحاصرون حصانًا في مرأب المركز التجاريّ «عبّاد الشمس»، لم يكن مانسون قد فقد مكانته بعد. ما الذي كان يفعله حصانٌ في ذلك المرأب – هذا سرٌّ غامضٌ لا يهمّ أحدًا. كان الحيوان هزيلًا جريحًا، وقد علق حافره بعربة التسوّق، فبَرَكَ في مكانه بلا حراك، تحوم حوله غيمةٌ من ذباب، بجانب الصرّاف الآليّ. وكان رأسه الكبير والأسمر يتدلّى بين أرجله. كان في وضعٍ من الاستسلام الأقصى الذي تتّخذه

العواشب أحيانًا عندما تدرك أنّ الموت يقبض عليها ولم يبقَ لها سوى الانتظار. كانت الكلاب تطوّقه بلا عجالة، وعلى مضض أو تكاد، مدركةً أنّها ستقتات اللحم الطازج عاجلًا أم آجلًا.

أراد مانسون إثبات صدارته، فكان أوّل المقتربين من الحصان، الذي رفّسَ بمشقّة حينما شعر بالأنياب تتغلغل في عرقوبه. إلّا أنّ انبلاج الحريق، المتوقّد بفعل الرياح، أسدل على المشهد ستارةً من دخانٍ لاذعٍ ومتلظٍّ. حوصرت الكلابُ بألسنة اللهب، وفزعت من انفجارات مضخّات البنزين، فالتجأت إلى متجرٍ للإلكترونيّات. وظلّت فيه أيّامًا، تعاني شبهَ اختناق، تحت قبّةٍ من نار، وعندما أُخمِدت النيران وخرجت الكلاب، كان العالم قد استحال إلى آفاقٍ يطغى عليها الرماد، لا غذاء فيها ولا ماء.

* * *

سرّحت آنّا شعرها إلى الخلف.

سحل الماريميُّ أرجله إلى الأمام وتوقّف، منتصبَ الأذن، وعيناه تحدّقان إلى الفريسة.

نظرت الفتاة إلى السياج. مرتفعٌ جدًّا. لم تشأ العودة إلى السيّارة، كان سيقضي عليها هناك في الداخل.

فتحت ذراعيها:

– تعال إلى هنا! ماذا تنتظر؟

بدا الحيوان متردّدًا.

– هيّا، بسرعة! –نطّت على رؤوس أصابعها– فلنضع للأمر نهاية!

أقعى الكلب على الأسفلت. مرَّ غرابٌ في السماء وهو ينعق.

- ما بك؟ هل أنت خائف؟

انتفض الوحش.

هبَّت الفتاة راكضةً نحو السيّارة ووصلت قبالتها بسرعةٍ حتّى اصطدم وركها بأحد جوانبها. تأوّهت ودخلت من الباب وأغلقته خلفها.

تمايلت السيّارة إثر خضّةٍ عنيفة.

أمسكت آنّا حزام الأمان، ودوَّرته حول المقبض وربطته بجذر المقود. وكان طيف الكلب القاتم يتراءى من خلال الزجاج الأغبش وهو يصارع النافذة.

ارتمت إلى الخلف وتقوقعت في الصندوق، لكنّ الكلب قلب عليها الحقيبة المحشورة في إطار الفتحة الخلفيّة. احتمت بالحقيبة لتصدّه، وبحثت في أثناء الفزع عن شيءٍ تدافع به عن نفسها. وجدت مظلّةً تحت المقعد. أمسكتها بكلتا قبضتيها، ورفعتها إلى الأمام كأنّها رمح.

جأر الكلب وقفز إلى المركبة.

غرّزت آنّا رأس المظلّة في عنقه، فانبثقت الدماء ولطَّخت وجهها.

انتحب الوحش لكنّه لم يستسلم. انتقل إلى المقعد الخلفيّ وهو يمسّح ظهره الوسخ بسقف السيّارة.

- إنّني أقوى منك! - غرست الفتاةُ المظلّةَ في أضلاعه ففتحت فيها فمًا أحمر. حاولت إخراجها، لكنّ المقبض ظلّ عالقًا بيدها.

هاجمها الوحشُ، والمظلّةُ مزروعةٌ بين ضلوعه. انفلق فكّاه على بُعد سنتمترات قليلة عن أنف آنّا التي تلقّت أنفاسُه الكريهة

والساخنة. احتمت بمرفقيها وأرجعته إلى الخلف وانقلبت على المقعد الأماميّ لتجد نفسها بين عظام المرأة.

لم يتحرّك الكلب. وبره ملطّخٌ بالدماء والرماد، فمه يسيّل لعابًا محمرًا. نظر إلى عينيها، حنى عنقه كما لو أراد أن يفهمها فهمًا أفضل، تمايل قليلًا وسقط.

* * *

كانت آنّا تدمدم أغنيةً ابتدعتها بنفسها: - وصل نيلّو بحذائه المرجانيّ وشاربيه الصفراوين.

نيلّو كان صديقًا لأبيها، يقود شاحنةً بيضاء، وكان يأتي بين الحين والآخر من باليرمو حاملًا الكتب التي تحتاج إليها أمّها. وقد رأته آنّا مرّات نادرة، ومع ذلك تذكره جيّدًا، كان لطيفًا. وغالبًا ما فكّرت في شاربيه الكثيفين.

نهضت الشمس بين غيوم بيضاء تحزّز السماء. لم يكن الطقس حارًا وكان من الممتع تلقّي أشعّة الشمس على الجلد الذي برد خلال الليل.

عدّلت الفتاة حقيبتها على ظهرها. لم تستطع الكلابُ فتحها على الرغم من تهافتهم عليها. حتّى قنّينة المشروب كُتِبَ لها النجاة.

وقبل أن تغادر، ألقت نظرة أخيرة على الوحش. حافظت على مسافة أمان، وتحرّت عبر باب السيّارة المفتوح. كانت ترى جزءًا من ظهره ينهض ثمّ ينخفض مصحوبًا بأنفاسٍ لاهثة. تساءلت إذا ما كان ينبغي أن تُجهِزَ عليه، لكنّها لم تكن واثقة من الاقتراب منه. خيرٌ لها أن تتركه يموت من تلقاء نفسه.

سارت في طريقٍ يجاور الأوتوستراد آ 29 ثمّ ينحني نحو البحر، مرورًا بمنطقة تجاريّة. لم يبق من متجر التخفيضات الذي كانوا يتسوّقون منه الأغذية في وقتٍ مضى سوى الدعامات ومساند حديد السقف. أمّا محلّ الأثاث، حيث اشتروا الأريكة والسرير ذي الطابقين بالتقسيط، فقد التهمته الحرائق. وكان الرماد يشكّل طبقةً ثخينةً على الأعتاب الحجريّة البيضاء. لم يعد هناك وجود للأواني الجميلة المصمّمة على شاكلة السمر والمملوءة بالأزهار. لم يبق إلّا هياكل الأرائك وهيكل بيانو.

اجتازت آنّا باحة وكالة فورد حيث الصفوف المرتّبة لسيّاراتٍ محترقة، وانحنت صوب الحقول. لم يبق من الكروم سوى دعائم الأنساق بجوار أعقاب شجر الزيتون وسورٍ حجريّ. ثمّة حصّادة، بجانب أطلال كوخ، تشبه حشرةً فمُها مملوء بالأسنان. ومحراثٌ يغرس حدَّه المدبّب في الأرض مثل آكل النمل. تنتأ بقايا التين من بين الأراضي المسوّدة، والبراعم الخضراء على الجذوع المتفحّمة.

كان المبنى العصريُّ والمنخفضُ للمدرسة الابتدائيّة دي روبرتو عائمًا على بحرٍ أسود ما بين هبّات القيظ التي تغضّن المدى. اكتسح العشبُ ملعبَ كرة السلّة خلف المبنى. وأحرقت النيران أخشاب السلّتين. تتراءى المقاعدُ والكراسي والمشمّع المغطّى بالتراب عبْر النوافذ التي باتت بلا زجاج. وما زالت لوحة الزرافة والأسد التي رسمتها دانيلا سبيرنو معلّقة على حائط صفّها، الصفّ الثالث. الطاولة على المنصّة، بجانب السبّورة. ذات مرّة،

عثـرت آنّـا فـي دُرج الطاولـة علـى سـجلّ المعلّمـة ريغونـي وأحمـر الشـفاه والمـرآة الصغيـرة التـي تراقـب مـن خلالهـا زغـب ذقنهـا. وكانـت آنّـا فـي العـادة تدخـل وتجلـس علـى مقعدهـا بعـض الوقـت، لكنّهـا تابعـت سـيرها حينـذاك.

بـرزت أنقـاض القريـة السـكنيّة تـورّي نورمانّـا فـي البعيـد. ثمّـة شـارعان طويـلان مثـل مهبـط الطائـرات ومطوّقـان بالمنـازل الصغيـرة، يشـكّلان صليبًـا وسـط السـهل المنبسـط خلـف كاسـتيلاماري.

وثمّـة مركـزٌ رياضـيٌّ مـزوّدٌ بملعبيـن للتنـس ومسـبح، ومطعـم ومتجـر صغيـر. كان معظـم رفاقهـا فـي المدرسـة يسـكنون هنـاك.

وآنـذاك، بعـد الحرائـق وعمليّـات السـطو، لـم يبـق مـن تلـك المنـازل البهيّـة المبنيّـة علـى الطـراز المتوسطيّ إلّا دعائـم الأسـمنت، وأكـوام القرميـد، وهبـاء الجيـر والبوّابـات الصدئـة. أمّـا البيـوت التـي تحاشـتها النيـران فكانـت أبوابهـا مخلوعـة، وزجاجهـا مهشّـمًا، وجدرانهـا تغـصّ بالكتابـات. وكانـت شـظايا زجـاج نوافـذ السـيّارات منثورًا علـى الطرقـات. وقـد ذاب الأسـفلت فـي سـاحة الريـح وتكثّـفَ ليشـكّل كثبانًـا ومنحنيـاتٍ، لكنّ الأراجيـح والمزلقـة واللافتـة الضخمـة للسـلطعون القرمـزيّ لمطعـم «أذواق أفروديـت» لا تـزال علـى حالهـا.

قطعـت الفتـاةُ القريـةَ بخطـواتٍ مسـرعة. لـم تكـن تحـبّ ذلـك المـكان. كانـت أمّهـا تقـول إنّ فيـه محدثـي نعمة أوباشًـا يلوّثون التراب ببواليعهـم غيـر النظاميّـة، وكانـت قـد راسـلت إحـدى الجـرائد لتشـتكي عليهـم. أمّـا الآن فقـد اختفـى محدثـو النعمـة الأوبـاش، لكنّ أشـباحهم مـا زالـت تتجسّـس عليهـا مـن النوافـذ وتتوشـوش: – انظـروا! انظـروا!

هـذه ابنـة التـي كانـت تسـمّينا محدثـي النعمـة الأوبـاش!

بعـد المنـازل، سـلكت دربًـا يـوازي سـريرَ جـدولٍ جـافّ، يتلـوّى عنـد سـفوح تـلالٍ مـدوّرة وجـرداء، مثقّبـة مـن قِبَـل مُـلّاك الكـروم مثـل وسـادة الدبابيـس. وكان القصـب ينمـو علـى جانبـي الـدرب متكاتفًـا، وأرياشـه ترتفـع إلـى السـماء الزرقـاء.

بعـد قرابـة المئـة متـر، غطسـت الفتـاةُ فـي ظـلالٍ منعشـة لحـرشٍ مـن السـنديان. كانـت آنّـا تـرى فـي ذلـك الحـرش غابـةً مسـحورة، فالحرائـق لـم تتمكّـن مـن إشـعاله، رغـم أنّهـا وصلـت إلـى حـدوده، وذاقـت طعمـه، ثـمّ تركتـه فـي حـال سـبيله. الشـمس مـن بيـن الجـذوع الغليظـة ترسـم بقعًـا ذهبيّـة علـى رداء اللبـلاب وورد النسـرين اللذيـن يغطّيـان سـياجًا متداعيًـا. وخلـف البوّابـة دربٌ يتـوه مـا بيـن أجمـات البقـس التـي لـم يعـد أحـدٌ يسـقيها.

وعلـى إحـدى الدعامـات الأسـمنتيّة لافتـةٌ لا تـكاد تُقـرَأ: «أرضُ التُّـوت».

.2

ولدت آنّا ساليمي في باليرمو في 12 مارس 2007، من ماريّا غراتزيا زانكيتّا وفرانكو ساليمي.

تعارف والداها في صيف العام 2005. كان عمره واحدًا وعشرين عامًا، ويعمل سائق أجرة في شركة إيليت كار لسيّارات التاكسي التي يملكها والده. أمّا هي فكانت في الثالثة والعشرين من عمرها، وتدرس الآداب الكلاسيكيّة في جامعة باليرمو.

انتبه كلٌّ منهما للآخر على متن العبّارة المتّجهة إلى الجزر الإيوليّة، وكانا يتبادلان النظرات خلال الرحلة وسط جموع السيّاح المتكدّسين على الجسر. رسوا في ليباري، كلٌّ منهما في مجموعته.

وفي اليوم التالي تواجدا على شاطئ بابيسكا.

أصدقاء ماريّا غراتزيا يدخّنون الحشيش، يقرؤون الكتب ويتناقشون في السياسة.

أمّا أصدقاء فرانكو، فكلُّهم ذكور، يلعبون كرة المضرب، ويقيمون المباريات على الساحل، ويبرزون عضلاتهم التي نفخوها في النادي خلال الشتاء.

وكانت طريقة فرانكو غبيّة بطبيعة الحال؛ إذ كان يتظاهر بأنّه أخطأ، فيرمي الكرة على مقربة من تلك الفتاة الجميلة التي تستجمّ بالشمس عاريةً.

حتّى قالت له ماريّا غراتزيا في النهاية:

- كفَّ عن رمي هذه الكرة. هل تريد أن تتعرّف عليّ؟ تعال إلى هنا وقدِّمْ نفسك.

دعاها لتناول البيتزا. سكرت في المطعم، فدفعته إلى الحمّام ومارسا الحبّ.

أعرف، الفارق بيننا كبير. لكنّنا لا يُكمِل بعضُنا بعضًا إلّا عن طريق الاختلاف. - اعترفت ماريّا غراتزيا ذات مرّة لصديقتها التي ذُهِلَت بأنّها أحبَّت شابًا فظًّا من ذلك النوع.

وعند عودتهما إلى باليرمو بقيا على تواصل، وفي العام التالي حبلت الفتاة.

كان فرانكو لا يزال يعيش عند ذويه. في حين أنّ ماريّا غراتزيا تتقاسم غرفةً في شقّة طلّابيّة، وتعمل في المساء في حانة نبيذ في ساحة سانت أوليفا.

تتحدر عائلة زانكيتّا من باسانو دل غرابّا، ووالدها يدير مؤسّسة صغيرة لأجهزة الهاي-فاي ووالدتها تعلِّم في مدرسةٍ ابتدائيّة. كانت البنت تعشق الطقس الحارّ والبحر وصقلية وطباع سكّانها. وعندما أنهت المدرسة الثانويّة قرّرت الانتقال إلى الجزيرة معاندةً إرادة أبويها.

لم تأخذ ماريّا غراتزيا الإجهاض بعين الاعتبار. أوضحت لفرانكو أنّه حرٌّ في الاختيار، بإمكانه الاعتراف بالطفل وإلّا ستصبح هي الفتاة-الأمّ، وفي كلا الحالتين لا مشكلة عندها.

طلب فرانكو يدها لأنّ هذا ما يفعله الرجل المسؤول.

وبعد ستّة أشهر، تزوّجا في بلديّة كاستيلّاماري، البلدة التي

يعود إليها أصلُ عائلة ساليمي، وأقيم الزفاف. كان السيّد زانكيتّا وزوجته يعتقدان أنّ ابنتهما تستحقّ أفضل من ذاك السائق الجنوبيّ، فلم يحضرا الحفل.

لم يقضيا شهر عسل. انتقل الزوجان إلى وسط مدينة باليرمو، للسكن في شقّة في الطابق الثالث من بناية قديمة بجانب مسرح بوليتياما.

اكتشف السيّد ساليمي أنّه يعاني أزمةً قلبيّة، ورحل عن هذا العالم تاركًا إدارة شركة التاكسي برمّتها لابنه.

وبعد شهرين، وفي حوض سباحةٍ قابلٍ للنفخ ومملوءٍ بالمياه الدافئة، جاءت آنّا إلى النور، طفلة سمراء مثل أبيها بملامح أمّها.

لقد أنجبتُ آنّا من خلال ارتضاء الألم. لأنّ النساء قادراتٌ على الإنجاب في سكينة بيوتهنّ. - هذا ما كانت تقوله ماريّا غراتزيا كلّما سئلت عن ذلك الخيار الغريب.

لم تكن عائلة ساليمي تطيق الكنّة. كانوا يسمّونها «المجنونة». امرأةٌ تُنجِب كالقردة، وتدخّن المخدّرات، كيف يمكن تسميتها؟

في العامين اللاحقين، استطاعت ماريّا غراتزيا أن تعتني بالطفلة وأن تتخرّج من الجامعة وأن تتوظّف معلّمةً للغة الإيطاليّة واللاتينيّة في إحدى المدارس. وفي تلك الأثناء وسّع فرانكو شركة التاكسي إيليت كار واشترى سيّارات جديدة ووظّف سائقين جددًا.

نادرًا ما كان الزوجان يلتقيان. هو يعود إلى البيت في المساء منهكًا، محمّلًا بعلب الطعام الجاهز، ويخرّ على السرير. وهي تدرّس في النهار، وفي الليل تنغلق في مكتبها المليء بالكتب،

تهدهد الطفلة وتقرأ أطروحات في علم النفس وعلم البيئة وتحرُّر المرأة. وبدأت بكتابة حكاياتٍ تمنَّت أن تنشرها يومًا ما.

وكانا يتشاجران أحيانًا، مع أنّ كلًّا منهما بشكلٍ عامّ يحترم اهتمامات الآخر حتّى لو لم يفهمها.

وشيئًا فشيئًا تحوّلت الاختلافات نفسها التي جمعت بينهما إلى صدعٍ كبير يفرِّق بينهما قليلًا كلَّ يوم. ومن دون أن يتشاورا، سمحا للصدع بالاتّساع، متيقّنين من أنّ لا أحد منهما قادرٌ على ردمه.

وعندما توفّيت جدّة فرانكو العجوز، أورثته منزلًا في ريف كاستيلّاماري. أراد أن يبيعه، لكنّ ماريّا غراتزيا تعبت من العيش في المدينة وتحمُّل التلوّث والضوضاء. فكّرت أن تترعرع آنّا وسط الطبيعة، إلّا أنّ فرانكو كان ملزمًا بعمله في باليرمو ولا يستطيع الانتقال إلى هناك.

– وأين المشكلة؟ بإمكانك أن تأتي في الويك إند، وأعدك بأنّني سأتعلّم الطبخ على أصوله من والدتك. – قالت له.

طلبا قرضًا من البنك ورمّما المنزل الريفيّ، وركّبا الزجاج الحراريّ ومنظومة تدفئة جديدة وسطحًا جديدًا وجميلًا. وزرعت ماريّا غراتزيا بستانًا بيئيًا كبيرًا، لأنّ ابنتها على حدّ زعمها ينبغي لها أن تأكل الخضروات التي لا تشوبها المكوّنات الكيميائيّة المقرفة. وراحت تعلُم اللغة في إحدى مدارس كاستيلّاماري.

أمّا فرانكو، بعد أن أمضى عامًا مكّوكيًا ما بين المدينة والريف، وقع في غرام بائعة التبغ المقابلة لمرأب إيليت كار. وذات مساء أمدَّه الخمرُ بالشجاعة، واعترف لزوجته بكلّ شيء.

عانقته ماريّا غراتزيا بقوّة:

إنّي سعيدةٌ من أجلك. المهمّ أن تبقى أبًا طيّبًا وأن تأتي لزيارة ابنتك في الويك إند كالعادة.

ومنذ تلك اللحظة أزهرت العلاقة بينهما مثل الكوسا في البستان. هي أقرأتْهُ «النسوة اللواتي يركضن مع الذئاب» وهو صَحِبَها لمشاهدة عروض الجويّة الإيطاليّة في مارسالا.

ونتيجةً لنوبةٍ عاطفيّةٍ جامحة، وحيدةٍ وناجمةٍ عن الثمالة، حملت ماريّا غراتزيا من جديد. أنجبت طفلًا. سمّياه أستور، على شرف موسيقار التانغو الأرجنتينيّ العظيم. واستمرّ فرانكو في الذهاب والمجيء من باليرمو وما زال يراود بائعة التبغ.

ومن يدري، ربّما كان للوقت قدرةٌ على إعادتهما جنبًا إلى جنب. لكنّ الفيروس وصل من بلجيكا، ومُسِحَت هذه العائلة من الوجود، مع مليون عائلة مثلها.

وعندما توفّي فرانكو وماريّا غراتزيا، تركا آنّا بعامها التاسع، وأستور في ربيعه الرابع.

* * *

سطح المنزل مملوء بالأغصان والأوراق اليابسة. والقنطرة المسنودة بالدعائم البيضاء تخفي باب المدخل. في الطابق العلويّ نافذتان مزوّدتان بمصراعين حائلين تؤدّي كلٌّ منهما إلى شرفة. وفي منتصف الواجهة محرابٌ مطليٌّ بالجير، يحتوي على تمثالٍ صغيرٍ للعذراء المغمورة بأجمة القبّار. تقشّر الطلاء الزهريّ، وكان ما تبقّى من الميزاب يرشح على الجدران ويسطّرها باللون الأخضر. في غضون أربع سنوات فقط، استولت الكرمة

البكر على جانبٍ كاملٍ من المنزل، ومدّدت شجرةُ التوت بجذعها المعقّد أغصانَها فوق السطح كما لو أنّها تنوي حمايته.

فتحت آنّا البوّابة، وأغلقتها خلف ظهرها، وقطعت الدرب الذي ينتهي في باحةٍ ترابيّة صغيرة. إلى الشمال تردّى البستان إلى حقل قرّاص، وفي الجهة الأخرى مقعدٌ خشبيٌّ طويل يبرز ما بين الحشائش المقابلة لحطام المرسيدس السوداء وبين صفٍّ من البراميل الصدئة التي تجمع آنّا ماءَ الأمطار فيها. هناك طفلٌ عارٍ ومتّسخ متربّع بقرب السيّارة. كان يضرب التربة القاسية بالرفش. يعتمر في رأسه خوذة الدرّاجين التي تنسلّ منها خصلٌ من شعره الأسود.

ما إن رأت الفتاةُ أخاها حتّى انزاح الحِمل الضاغط عن كاهلها.

- أستور!

التفت الطفل، ابتسم مبرزًا أسنانه العشوائيّة وعاد إلى الحَفْر.

جلست آنّا بجانبه منهكةً.

حدّق إلى ركبتيها المسحوقتين وساقيها المخدوشتين.

- هل هاجمكِ الغولُ الدخانيّ؟

- أجل.

- وكيف كان؟

- شرّيرًا.

- وهل قضيتِ عليه؟

- أجل.

بسط أستور ذراعيه: - أكان كبيرًا؟

- بحجم جبل.

أشار الولد إلى الحفرة.

- هذا فخّ. لاصطياد الكركدن والفئران.

- جميل. هل أنت جائع؟

مدّد الشقيق ظهره. كان هزيلًا، ساقاه طويلتان ومعدته منتفخة. حلمتاه على صدره المسطّح مثل حبّتي عدس، ووجهه ذو الأطراف الحادّة مسكونٌ بعينين زرقاوين كبيرتين تنقضّان على العالم بسرعةٍ كالنحل على الرحيق.

- ليس كثيرًا. - قال وأمسك عصفوره وشدّه كما لو أنّه من مطّاط.

- كفَّ عن هذا! - ضربته شقيقته على ظهره بخفّة.

- ماذا؟

- تعلم عمّا أتحدّث.

كان أستور مهووسًا بعصفوره. ذات مرّة غطّاه باللاصق الطبيّ، وكان من الصعب نزعه.

- هل عثرتِ على أشياء لذيذة؟

أومأت آنّا بنعم، ووضعت يدها على كتفيه وسارا باتّجاه البيت.

* * *

كان الصالون الجميل ذو السقف المعقود والأثاث المتين والسجّاد الفارسيّ بتصميم ماريّا غراتزيا زانكيتّا مدفونًا في الأوساخ، وكانت النوافذ مسدودةً بالكرتون، وفي العتمة تتبدّى جبال القوارير والعبوات والألعاب والجرائد والدرّاجات والموبايلات والظروف والثياب والراديوهات والأخشاب والدبابيب والفرش.

في المطبخ يتغلغل الضوء من النوافذ ليرسم خطوطًا منيرة على جمهرة الذباب المتجمّع للوليمة بين بقايا علب التونة واللحم. وعلى البلاط الممرّغ تتراكض الصراصير والنمل. الطاولة الرخاميّة تشغلها قناني الماء والكوكاكولا والفانتا بالعشرات.

ازدردت آنّا طويلًا.

- كدتُ أموت.

أدخل أستور ذقنه في الحقيبة: - هل عثرتِ على بطّاريّات؟

- لا.

تُعدُّ البطّاريّات من أثمن الأشياء وأندرها وجودًا، إذ باتت جميعها فارغة تقريبًا. وكانت الفتاة تدَّخر بعضها من أجل المشعل، فلو أنّ أستور وضع يديه على تلك البطّاريّات لاستهلكها بالاستماع إلى الأغاني.

أخرجت آنّا عبوة الفاصولياء.

- هل تريد؟

رفض الطفل بإصبعه.

رفعت الفتاة حاجبها متشكّكة: - ماذا أكلت؟

- لا شيء. أشعر بالارتجاف.

وضعت يدها على جبينه: - أنت ساخن.

لا يمكن أن تكون «الحمراء»، ما زال أستور طفلًا صغيرًا، لكنّها قلقت عمومًا.

- تغطَّ بشيء ما.

- لا أريد.

- البس. -أخرجت من الحقيبة أنبوبة كبيرة بيضاء- وإلّا لن أعطيك هديّة.

- ما هذه؟

- اذهب.

أخذ الطفل ينطّ محاولًا أن ينتزع الأنبوبة.

- اذهب! - خرجت آنّا من المنزل، وجلست على المقعد، وفتحت الفاصولياء بالسكّين.

وبعد دقيقتين أقبل أستور مرتديًا سترة قذرة تصل حتّى ركبتيه.

- الهديّة؟

أعطته إيّاها: - أعتقد أنّها ستعجبك.

تفحّصها الطفل بفضول، انتزع السدّادة وبدأ يمصّ.

انتزعتها آنّا من يديه ودفعته إلى الأرض.

- ما الذي قلته لك مرارًا؟ - حاول الطفل أن ينهض، لكنّ شقيقته حطّت قدمها على صدره ومنعته. - ماذا قلت لك؟

- إنّه عليّ أن أقرأ وأشمّ قبل أن أضع الأشياء في فمي.

- فما بالك إذن؟

أمسك أستور قدمها محاولًا أن يملص منها: - أنتِ قلتِ لي إنّه سيعجبني. فهو طيّبٌ إذن.

- لا يهمّ. عليك أن تقرأ دائمًا. -أرجعت الأنبوبة إليه- هيّا!

تأفّف الولد، وحكّ عينه.

- نسـ... نستـ... -قطع كلامه وأشار إلى حرف- ما هذا؟

- حركة.

- ما الفائدة منها؟

- لا شيء.

- نستله. حلـ... حليـ... حليب... مُكَـ... مُكَثَّـ... مُكَثَّف.

عاد أستور للمصّ بصمت، ممسكًا أذنه بيده.

* * *

أمضت آنّا الظهيرة غافيةً على المقعد في البستان. وكانت الضربات التي تلقّتها جرّاء مقاتلة الكلب تبدأ بالبروز. تشكّلت كدمةٌ على وركها من اصطدامها بباب السيّارة، وانتفخت براجم يديها.

كان أستور تحت غطاءٍ، بالقرب منها. لمست جبينه، كان يغلي.

عادت الفتاة إلى المنزل، أخذت المشعل وصعدت السلالم وسارت في الممرّ حتّى وصلت إلى بابٍ مغلق. نزعت حذاءها، أضاءت المشعل وأخرجت من جيب بنطلونها مفتاحًا وأدخلته في القفل.

أنارت حزمةُ الضوء سجّادةً كرقعة الشطرنج الملوّنة، ومكتبًا مغبرًّا يتوسّطه حاسوبٌ محمول. الجدران مكسوّةٌ برسومات صبيانيّة: بيوت، حيوانات، أزهار، جبال، أنهار، شمسٌ حمراء هائلة الحجم. استقرّ الضوء على دُرجٍ من خشبٍ داكن، وعلى كومة كتب، وعلى الراديو المنبّه، وعلى مصباحٍ جانبيّ؛ وانتقل من هناك إلى سريرٍ زوجيّ ذي مسندٍ نحاسيّ. ثمّة هيكلٌ عظميٌّ مكتوف الساعدين فوق أغطية السرير الزرقاء والحمراء. كلّ عظامه المئتين والستّة التي يتكوّن منها، من سلاميّات أصابع القدمين وحتّى الجمجمة، كانت موشاةً بخطوطٍ هندسيّة معقّدة مظلّلة بقلم الخطّاط الأسود. على الجبين وعظام الخدّين رُسِمَت خواتمُ وأقراط. ومحاجر العينين مزخرفةٌ بأعشاش عصفورٍ، وبيوضُهُ

مبقَّعةٌ بالرقوش. وفقراتُ العنق وأضلاعُ الصدر مبرَّمةٌ بشرائط اللؤلؤ وأساور الذهب وأطواق الجمشت والأحجار الملوّنة. وبجوار القدمين، هناك هيكلٌ عظميّ لقطٍّ متكوّر على نفسه.

جلست آنّا إلى المكتب، وضعت المشعل على سطحه وفتحت دفترًا متهالكًا. كُتِبَ على غلافه البنيّ والسميك: «الأشياء المهمّة».

قرأت بتحريك شفتيها ما امتلأت به الصفحة الأولى من كتابةٍ بالخطّ العريض والدقيق.

ولديَّ الحبيبين، أحبّكما كثيرًا. سترحل أمّكما قريبًا وينبغي أن تعتمدا على نفسيكما. أنتما بارعان وذكيّان، وأنا واثقة من قدرتكما على تدبُّر أمركما.

سأترك لكما في هذا الدفتر إرشاداتٍ ستعينكما على مواجهة الحياة وتلافي المخاطر. حافظا عليه، وافتحاه واقرآه كلّما راودكما شكٌّ ما. آنّا، عليكِ أنْ تعلّمي أستور القراءة أيضًا، لكي يستطيع الرجوع إلى الدفتر بمفرده. ستكتشفان أنّ بعض النصائح لن تكون ذات جدوى في العالم الذي ستحييان فيه. القواعد سوف تتغيّر، ولا يسعني سوى تصوُّرِ مآلها. سيكون واجبًا عليكما تصحيحُها والتعلُّمُ من الأخطاء. ما يهمّ هو أن تستخدما عقلكما دائمًا.

سترحل أمّكما بسبب الفيروس الذي انتشر في العالم بأسره.

وهذه هي الأشياء التي أعرفها عن الفيروس، وسأرويها عليكما هكذا بلا أكاذيب، لأنّكما لا تستحقّانها إطلاقًا.

1 - الجميع يحمل الفيروس. ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا. الأطفال مصابون به أيضًا، لكنّه نائمٌ في أجسادهم ولا يفعل شيئًا.

2 - لن يستيقظ الفيروس إلّا عندما تصبحان كبيرين. أنتِ يا آنّا ستصبحين كبيرةً حين يخرج دمٌ قاتمٌ من بين فخذيكِ. وأنت يا أستور ستصبح كبيرًا حين يخرج المني؛ السائل الأبيض من عصفورك إذا كان منتصبًا.

3 - لا يسمح الفيروس بإنجاب الأولاد.

4 - بعد أن يصبح الطفل كبيرًا، تظهر على جلده بقعٌ حمراء. في بعض الأحيان تظهر على الفور، وأحيانًا أخرى تستغرق وقتًا أطول. وعندما ينمو الفيروس في الجسم يبدأ السعالُ وضيقُ التنفّس وأوجاعٌ في كلّ العضلات، وتتشكّل القشور في الفتحتين الأنفيّتين وعلى اليدين. ثمّ الموت.

5 - هذه النقطة مهمّةٌ جدًا، وأريد ألّا تنسياها أبدًا. في مكانٍ ما من العالم، هنالك كبارٌ ناجون من الوباء يعملون على صنع دواءٍ سينقذ كلّ الأطفال. وسيأتون عاجلًا إليكما لمداواتكما. عليكما أن تثقا بهذا الأمر، بل وأن تؤمنا به».

ستبقى أمّكما تودّكما على الدوام حتّى لو أنّها ليست معكما. وحيثما تكن، ستبقى تحبّكما. والأمر ينطبق على أبيكما. وأنتما أيضًا، عليكما أن تتحابّا، وأن تتعاونا، وألّا تتفارقا. فأنتما شقيقان.

كانت آنّا تعرف هذا المقطع عن ظهر قلب، لكنّها تعيد قراءته بكلّ الأحوال.

فتحت صفحة أخرى من وسط الدفتر.

الحمّى

إنّ درجة حرارة الجسم البشريّ في الحالة الطبيعيّة هي 36.5. فإذا ارتفعت عن تلك الدرجة فهذا يعني أنّكِ مصابةٌ بالحمّى. وإذا كانت ما بين 37 و38 فهي غير خطيرة. أمّا إذا ارتفعت مزيدًا فعليكِ أن تتناولي الأدوية. وينبغي لكما استخدام ميزان الحرارة لقياسها. ثمّة واحدٌ في الدُّرج الثاني في المطبخ. وهو زجاجيّ، حذار أن يسقط منكما ويتكسّر. (ثمّة آخر بلاستيكيّ، لكنّه مزوّدٌ بالبطّارية، ولا أعلم كم ستدوم). يجب أن تضعيه تحت الإبط وأن تنتظري خمس دقائق. وفي حال عدم وجود ساعة، عُدّي إلى خمسمئة ببطء وانظري أين يتوقّف الشريط الفضّيّ. إذا تعدّى الثامنة والثلاثين فعليكِ بالأدوية التي تسمّى مضادات حيويّة. يجب أن تواظبي عليها مدّة أسبوع على الأقلّ مرّتين في اليوم. وهناك الكثير من المضادات الحيويّة. أغمنتين، مونديكس، أزيكلاف، سيفيبيم. وضعتُها مع أدوية أخرى في الخزانة الخضراء. وحين تنتهي عليكما أن تبحثا عنها في الصيدليّات أو في البيوت. وإن لم تعثرا على تلك، فاقرأي النشرة الطبيّة الموجودة في العلبة، حيث كُتِبَ المكوّن الفعّال: إذا كانت الكلمة تنتهي بدين، فهذا جيّد. أموكسيلين، سيزافولين، أشياء كهذه. وعليكما بشرب الكثير من الماء.

سرّحت آنّا شعرها خلف أذنيها وأغلقت الدفتر.

كان ميزان الحرارة الزجاجيّ قد تكسَّر. والميزان البلاستيكيّ توقّف عن العمل. والمضادات الحيويّة التي تركتها أمّها في الخزانة، التهمتها الفئران. وصيدليّة مينرفا في كاستيلاماري أُحرِقَت مع بقيّة البلدة.

بإمكانها الاستغناء عن ميزان الحرارة. كان أستور يغلي، ومن المؤكّد أنّ حرارته تزيد عن 38، لكنّ الوقت قد تأخّر للخروج والبحث عن الأدوية، عليها أن تنتظر إلى اليوم التالي.

أعادت الدفتر إلى مكانه، وخرجت من الغرفة، وقفلت الباب بالمفتاح.

* * *

اختفت الشمسُ خلف الغابة وتحجَّرَ الهواء.

- هيّا أستور، اصعد.

تبعها الطفل مطأطئ الرأس، موارب العينين، وذراعاه تتأرجحان.

كانت غرفتهما التي في الطابق الأعلى أكثر ترتيبًا من بقيّة المنزل بقليل. ليس فيها بقايا طعام، إنّما أكوام ملابس، وألعاب وقوارير من كلّ الأشكال والأحجام. ثمّة دُرجٌ مزدوجٌ مغمورٌ بشلّالٍ من الشمع الذائب من مئات الشمعات. والجدار خلفه متفحّمٌ بفعل رواسب الدخان.

غطّت آنّا أخاها وأعطته الماء، لكنّه تقيّأ كلَّ شيء.

نزلت ثانيةً. في الخزانة الخضراء، إن لم تخنها الذاكرة، لا شيء سوى براز الفئران. تخيّلت صفوفًا من الفئران المصابة بالحمّى وهي تنتش الحبوب وتتحسّن صحّتُها.

وجدت في الصالون علبة كريسين. الاسم ينتهي بـ«ين» لكنّها كانت على يقين أنّها ليست بمضادٍّ حيويّ. النشرة تقول إنّه مكمِّلٌ غذائيّ يناسب الرجال والنساء من كلّ الفئات العمريّة ويُنصَحُ به لمنع تساقط الشعر. شعر أخيها لا يتساقط، لكنّه لن يؤثّر فيه شيئًا. كما عثرت على تحاميل دافلاغان. تصلح للحمّى والصداع.

أطعمت أستور حبّة كريسين، وأخرجت تحميلة.

- هذه توضع بالشرج.

نظر إليها ولم يكن مقتنعًا كفاية.

- تسبَّبَت لي بالألم ذات مرّة. هل أستطيع أن آكلها؟

رفعت آنّا كتفيها.

- برأيي لا فرق.

مضغ الطفل التحميلة مكشِّرًا، ثمّ التفّ بالأغطية وهو يرتجف.

أشعلت شقيقته شمعة، واستلقت بجانب أخيها تحملق بالسقف، وعانقته محاولة تدفئته.

- هل تريد حكاية؟

- أجل...

- أيُّ حكاية؟

- حكاية جميلة.

فكّرت آنّا بكتاب الحكايات التي حصلت عليه هديّةً من أمّها. المفضّلة عندها هي حكاية المسكين نيكولا السمكة.

- سأروي لك حكايةً أيّامَ كان هناك ملكٌ، وكان الكبار أحياء، ولم يكن للـ «خارج» وجود. كان هناك فتىً يعيش في صقلّية، ويسمّى نيكولا السمكة لأنّه يجيد السباحة تحت مياه البحر كالسمكة.

- وهل البحر مكوّنٌ من مياهٍ كثيرة؟ - تساءل أستور وهو يشدّ على يدها.

- أجل، مياهه مالحة، لا تصلح للشرب. وكان نيكولا السمكة بارعًا، يتمكّن من الغطس حتّى العمق، حيث الظلام ولا يمكن رؤية أيّ شيء. هناك في الأسفل، كان يأخذ كنوز السفن الغارقة ويحملها إلى السطح. وأصبح مشهورًا حتّى إنّ الملك قرّر أن يختبره.

- لماذا؟

- لأنّ هذا ما يفعله الملوك؛ وحدَهم يقرّرون كلَّ شيء. المهمّ، رمى الملك في المياه كأسًا ذهبيّة وسرعان ما أعادها إليه نيكولا السمكة. فأمر الملك حينذاك أن تتقدّم السفينة إلى عرض البحر، ونزع تاجه ورماه في المياه. سنرى إن كنتَ قادرًا هنا أيضًا، قال له. فألقى نيكولا بنفسه وظلّ في الأسفل وقتًا طويلًا. وبينما كانوا يشربون النخب على متن السفينة...

- ماذا يعني يشربون النخب؟ - تمتم أستور وإبهامُهُ في فمه.

- يعني حين تُضرَب الكؤوس بعضها ببعض... وبينما كانوا يشربون النخب على متن السفينة، عاد الفتى ومعه التاج. لكنّ الملك لم يبدُ راضيًا. نزع خاتمه الثمين الذي كان في إصبعه، ورماه بعيدًا حيث تتدلّى المرساة ولا ترتطم بالقاع. هل ستستطيع يا نيكولا؟ سأله الملك مبتسمًا. بالتأكيد جلالتك، قال نيكولا السمكة. سحب نفسًا عميقًا وغطس. وكان الجميع على السفينة ينظرون إلى البحر الأزرق الغامق. لا يعرفون أنّ سفينتهم تطفو مثل الفلّينة السدّادة فوق حفرة عميقةٍ لدرجة أنّك إذا رميتَ صخرة كبيرة

وصلت إلى القاع في اليوم التالي. وفي ذلك الظلام الأبديّ تعيش مخلوقاتٌ لم يرها أيُّ كائنٍ بشريّ من قبل ولا تخطر في مخيّلة أحد. أفاعٍ طويلة وشفّافة، وأسماك ميداس المضيئة والعريضة كحقول اليقطين، وأخطبوطات ضخمة قادرة بأذرعها الطويلة أن تهدم بيتًا بأكمله. ظلّوا هناك يومين ينتظرون الفتى. ثمّ تثاءب الملك وأمر بحّارته: فلنعد إلى القصر، لقد مات. وفي تلك اللحظة خرج نيكولا السمكة من البحر. كان شاحب الوجه، يحمل في يده خاتم الملك. جلالتك، عليّ أن أخبرك بأمرٍ مهمّ. لقد هبطتُ إلى أعمق الأعماق ورأيتُ أنّ جزيرة صقلّية تستند إلى ثلاثة أعمدة. لكنّ أحدها قد تآكل وسينهار قريبًا... –راقبت آنّا أخاها الذي ما زال يمتصّ إصبعه بأنفاسٍ ثقيلة– وستغرق صقلّية في البحر. فكّر الملك قليلًا ثمّ قال: أتعلم ما الذي سآمرك به يا نيكولا العزيز؟ اذهب إلى الأسفل بسرعة واسند جزيرتنا. نظر الفتى إلى الشمس والسماء وشطآن اليابسة التي لن يراها ثانيةً وقال: حاضر يا سيّدي الملك. أخذ نفسًا عميقًا لدرجة أنّه كاد يمتصّ الهواء والسحاب وطحالب الشاطئ اليابسة وغطس من جديد. ومنذ ذلك اليوم لم يصعد نيكولا إطلاقًا. ها هي. انتهت الحكاية.

كان أستور نائمًا ورأسه محنيٌّ على عنقه.

فكّرت آنّا في ذلك المسكين الذي ما زال وحيدًا في قاع البحر يسند الجزيرة. وتخيّلت أنّها تهبط إليه كالغوّاص لتخبره أنّ ملكه قد مات، وحاشيته جميعًا، وأنّ صقلّية باتت ملكًا للأطفال حصرًا.

أكلت الفاصولياء وأخذت قنّينة الأمارو التي وجدتها في المشتل. قرّبتها من لهيب الشمعة. على الملصق فلّاحةٌ غاضبةٌ تضع يدًا على خاصرتها وبالأخرى تحمل سلّة مملوءة بالأعشاب.

نسخةٌ طبق الأصل عن المعلّمة ريغوني.

هي أيضًا كانت تقف بتلك الوضعيّة عندما يعمُّ الشغبُ الصفَّ.

رشفت من المشروب. كان حلو المذاق حتّى اقشعرّت منه أصابع قدميها.

للكبار شؤونٌ لا تفهمها. لماذا يسمّونه مُرًّا «أمارو» إذا كان حلوًا إلى هذه الدرجة؟

وما انفكّت تشرب حتّى شعرت بتثاقل جفنيها. خارج النافذة ملايينُ النجوم تلطِّخ السماء مثل نثرات من الطلاء الأبيض، والجداجد تصدح. ستختفي مع اقتراب البرد. لم ترَ الجداجد قط، لكنّها تصوّرت أنّها كبيرة الحجم وإلّا من أين لها أن تُحدِث كلَّ ذلك الصخب؟

* * *

استيقظت وهي تعانق شقيقها. كانا قد تعرّقا لدرجة أنّهما بلّلا الفراش. أضاءت المشعل وقرّبته إلى أستور. كان وجهه غارقًا في الوسادة ويكشّر بأسنانه.

أخذت قنّينة الماء عن الأرض وشربت حتّى امتلأت معدتها. كلُّ شيء في الخارج جامد، ما عدا نداء طائر ليليّ وأنفاس أستور الثقيلة التي تخدش الصمت.

نهضت وجلست في الشرفة لتستمتع بالنسائم المنعشة. ما بعد الأسيجة الصدئة، وظلال الشجر السوداء، ينبسط السهل الواسع المحروق والأبكم.

كان الطائـر يُصـدِر صيحاتـه فـوق شـجرة التيـن خلـف كـوخ المعـدّات. لطالمـا كانـت شـجيرةً صغيـرة، لكنّهـا فـي العاميـن الأخيريـن نمـت ووصلـت أغصانُهـا إلـى الأرض.

تذكّـرت أنّ أمّهـا ذات مـرّة علّقـت عليهـا حبـال الأرجوحـة، لكـنّ أباهـا اعتـرض قائـلًا إنّ التيـن شـجرةٌ غـادرة وقـد تتكسـر أغصانهـا بسـهولة.

لكنّهـا إذ فكّـرت مليّـا لـم تبـدُ واثقـة مـن ذلـك. ربّمـا كانـت شـجرة التيـن الغـادرة حكايـةً قرأتهـا فـي كتـابٍ مـا أو حلمـت بهـا. غالبًـا مـا تتعجـن الذكريـاتُ بالأشـياء المكتوبـة والأحـلام، وحتّـى الذكريـات المتيقّنـة منهـا تتفسّـخ مـع الوقـت مثـل الألـوان المائيّـة فـي كأس مـاء.

فكّـرت فـي مدينـة باليرمـو وبشـقّتهم المطلّـة علـى مكتـبٍ مكتـظّ بأنـاسٍ قبالـة الشاشـات. كانـت تتذكّـر أشـياء لا معنـى لهـا: بـلاط الصالـون الأبيـض والأسـود كرقعـة الشـطرنج. طاولـة المطبـخ التـي فيهـا ثقـبٌ يؤوي عصـا العجيـن. منشـر الغسـيل ذو الزوايـا الصدئـة، لكنّهـا لـم تعـد تذكـر وجـه جدّهـا فيتـو أو وجـه جدّتهـا مينـا. وفـي الحقيقـة، كانـت كلّ وجـوه الكبـار تتبـدّد وتتلاشـى بمـرور الأيّـام. للكبـار شـعرٌ أبيـض، وبعـض الرجـال يطلقـون لحاهـم، والنسـاء يصبغـن شـعرهنّ ويطليـن جلودهـنّ ويضعـن العطـور، وكانـوا فـي المسـاء يوجـدون فـي الحانـات ويشـربون النبيـذ بالكـؤوس. يطـوف حولهـم كثيـرٌ مـن النـدل. وكانـوا فـي مطاعـم باليرمـو يجلبـون لـك السـباغيتي والباذنجـان بجبـن البارميجانـو.

حقـدت أمُّهـا علـى باليرمـو فـي آخـر أيّامهـا، لأنّ أهـل المدينـة رفضـوا التقيُّـد بالحجـر الصحّـيّ. تذكـر آنّـا أنّ أمّهـا توقّفـت عـن

إرسالها إلى المدرسة حين لم تكن جائحة الحمّى «الحمراء» قد وصلت بعد إلى كاستيلاماري. فامترسوا في البيت محاطين بمؤن الأغذية المعلّبة في المطبخ والصالون.

وذات مساء وصل أبوها بالمرسيدس. انزلقت السيّارة في الدرب واصطدمت بالمقعد الخشبيّ ودوّى مزمارها. خرج والدها أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وقد تغيّرت ملامحه حتّى ما عاد يبدو ما كان عليه. امتصّ الفيروس وجهه، ونفخ عينيه ولطّخ جلده بالبقع الحمراء. جرجر نفسه حتّى الباب، لكنّ أمّها منعته من الدخول. «اذهب من هنا، فأنت مصابٌ بالعدوى!» صاحت عليه.

كان يطرق الباب بكلتا قبضتيه. «أودّ أن أرى الطفلين. لحظة واحدة. دعيني أراهما لحظة واحدة فقط».

«اذهب من هنا. هل تريد قتلنا؟»

«افتحي يا ماريّا غراتزيا، أرجوكِ...»

«اذهب من هنا حبًّا بالله. إن كنتَ تريد الخير لولديك فاذهب من هنا على الفور». انبطحت أمّها على الأرض تبكي. وعاد هو مترنّحًا إلى المرسيدس وظلّ فيها، رأسه مُلقًى على النافذة، وفمه مفتوح.

وكانت آنّا قد اعتلت مسند الأريكة ونظرت إليه من النافذة. أسدلت أمّها الستائر، وحملتها بين ذراعيها ووضعتها في السرير بجانب أستور. كانت تنتظر أن تقول لها شيئًا، لكنّهم ظلّوا صامتين جميعًا.

توفّي أبوها في اليوم التالي. اتّصلت أمّها بالإسعاف فجاؤوا ونقلوا جثّته.

كان يمكن لآنّا أن تودّعه، وأن تبقى بقربه، لكنّ والدتها لم تكن تعلم حينها أنّ الصغار لا يصابون بالعدوى.

وبعد مدّةٍ حان دورها.

تتذكر آنّا تلك الفترة بصورٍ ذهنيّةٍ مضطربة. أمّها تكتب طوال النهار ومرفقها مسنود على الطاولة، شبه عارية، تملأ دفتر الأشياء المهمّة. ضفائر شعرها الأشقر الطويل والمتّسخ تتسدل لإخفاء وجهها، قدماها هزيلتان، ساقاها طويلتان، أصابع قدميها مضغوطة بالأرض، وحنايا بطنها المجوّف تتراءى من خلال ثوبها المهترئ والشفيف. البقع الحمراء على عنقها وساقيها، القشور على يديها وشفتيها، ولا تكفّ عن السعال.

مرّ زمنٌ طويل، لكنّ آنّا كلّما فكّرت في تلك الذكريات اجتاحتها نوبةُ حنينٍ عارمةٌ تُشعِرُها بالغرق في حفرةٍ لا تتمكّن بعدُ من الخروج منها.

* * *

حرّر النهارُ قطيعًا من الغيوم البيضاء في السماء الزرقاء.

انخفضت حرارة أستور، لكنّه لم يتحسّن بعد. عيناه الكبيرتان والمغتريتان تشغلان حيّزًا كبيرًا من وجهه، كأنّه فرخ دجاجة. وما إن حاولت آنّا أن تُشرِبه الماء حتّى تقيّأ عصارةً صفراء.

كان ينظر إليها متوجّسًا، يتحسّس بطنه.

- يوجعني هنا.

- اسمع، سأذهب للبحث عن أدوية. كلّما انطلقتُ مبكرًا عدتُ أبكر.

- سآتي معكِ.

- تعلم أنّك لا تستطيع. هل تريد أن تخطفك الغيلان الدخانيّة؟
هزّ الطفل رأسه نافيًا.
- فابقي أنتِ أيضًا.
- سآتيك بهديّة.
- لا أريدها.
هزّت آنّا رأسها.
- هذا لا يُصدَّق.
استدار أستور إلى الجانب الآخر متجهّمًا.
- ما رأيك إن استبقنا أعياد الميلاد؟
التفت الصبيُّ متحفّزًا ومبتهجًا.
- أعياد الميلاد؟ هل يطيب لكِ؟ حقًّا؟
- طبعًا.
- وهل لديكِ هديّة؟
- طبعًا.
- هل أختبئ إذن؟
- اختبئ، هيّا.

اختبأ أستور تحت الغطاء. فتحت آنّا غرفة أمّها وأخرجت قارئ الأقراص من أحد أدراج المكتب. ثمّ اعتمرت قبّعة بابا نويل وجزمته الحمراء. وأخذت رغمًا عنها دميةَ القنفذ التي أخفتها عن متناول أستور فوق إحدى الخزانات. كانت الدمية هديّةً لها من الجدّة مينا في حفل ميلادها. ولطالما أرادها أستور لكنّ آنّا رفضت إعطاءها له دومًا. غلّفتها في ورق جريدة.

هلّا أتيتِ؟ أنا جاهز. - صاح أستور.

كبست آنّا على زرّ التشغيل فصدحت أغنيةٌ بأعلى صوت.

كانت آنّا تستخدم أغنية الغيتو بأداء جورج بنسون للاحتفال بأعياد الميلاد. لم تكن تعرف السبب. ربّما لأنّ الإيقاع جذّاب، وربّما لأنّها وجدت القرص بجانب شجرة ميلاد في إحدى الاستراحات الطرقيّة.

وسرعان ما بدأت ترقص. الرقصة تكمن في تحريك المؤخّرة يمينًا وشِمالًا، واليدين على الخاصرتين، والرأس إلى الأمام وإلى الخلف مثل الحمامة التي تنقر الحبوب. وكان شقيقها مثل تلّةٍ ترتجف تحت الغطاء. مرّت بجانبه تغنّي، وقفزت على كرسيّ وغنّت مسدّدةً إصبعها نحوه: واحد... اثنان... ثلاثة. حان دورك يا غيتو!

طار الغطاء وراح أستور يرقص. كان يستخدم معصميه كثيرًا ويلطم رأسه بين الحين والآخر. هذه هي رقصته الخاصّة بأعياد الميلاد.

شعرت آنّا بالارتياح. إن كان يرقص فهذا يعني أنّه ليس مريضًا جدًّا. لعلّها تمثيليّة لإبقائها في المنزل. لكنّه كان يتقيّأ فعلًا.

– الهديّة! أعطيني الهديّة.

أعطته المغلّف.

– عيد ميلاد سعيدًا!

مزّق أستور الغلاف ونظر إلى الدمية.

– أهي لي؟ حقًّا؟

– أجل، إنّها لك.

عـاد الشـقيقان إلـى الرقـص بينمـا كان جـورج بنسـون يقـول إنّ ذاك هـو الغيتـو.

وضعت آنّا في حقيبتها قنّينة ماء، وعلبة بازلاء، وسكّين مطبخ، وبطّاريّات كهربائيّة لا تزال سارية المفعول، وقرصًا مزدوجًا للمطرب ماسيمو رانييري.

مستعدّة.

ودّعت أستور إذ عاد إلى السرير برفقة الدمية الجديدة، وغادرت.

.3

في المرّات الأولى التي تركت فيها آنّا أخاها وحيدًا في المنزل، لم تتقدّم أبعد من مزرعة آل مانينو. كان يبدو أنّ المؤن التي أعدّتها أمّها من الصعب أن تنفد، إلّا أنّها بعد عام لم يتبقَّ منها سوى بضعة علب من الذرة التي تسبّب المغص لأستور.

وكانت تلك المزرعة عند حدود الغابة. بناية طويلة ومنخفضة، وسقفها من القرميد الأحمر. والحظائر المسيّجة بالأسلاك قبالتها تمامًا. ومستودع أكداس التبن إلى جانبها.

حصدت الحمّى الحمراء الزوجين مانينو، ولم يستطع أبناؤهما الصغار الصمود بمفردهم فماتوا في أسرّتهم الطابقيّة. كانوا عائلة من الفلاحين، ذوي بصيرة، بحيث إنّ المخزن الكبير خلف المطبخ كان زاخرًا بعبوات الباذنجان والخرشوف المخلّل، وعلب المربّيات وقناني النبيذ وأفخاذ الخنزير المقدّد. وكانت آنّا تقصد إلى ذلك المخزن بغية التموين، لكنّها وجدته مفرّغًا من كلّ شيء ذات يوم. لا بدّ أنّ أحدًا ما مرَّ به وحمل ما استطاع. وما تبقّى كان منثورًا على الأرض.

وهكذا اضطرّت إلى توسيع نطاق استكشافاتها. نهبت خزائن المطابخ في المجموعة الأولى من البيوت التي صادفتها، ما بين الجثث والذباب والفئران. وكانت في بادئ الأمر تجتاز الشقق ويداها على وجهها، تدمدم أغنيةً وتتلصّص على الأجساد من

بين أصابعها، ثمّ استغرقت وقتًا قصيرًا للاعتياد عليها واعتبار حضورها راسخًا رغم كونه مستغربًا. كانت الجثث تختلف بعضها عن بعض، ولكلٍّ منها وضعيّةٌ وتعابير تخصّها، كما أنّ درجات الرطوبة والإضاءة والتهوية والحشرات والحيوانات الأخرى التي تتغذّى على الجيف، كانت تحوّل الأجسام إلى شرائح البكالا أو إلى عجائن مقزّزة.

وكانت آنّا قبل أن تخرج تغلق على أستور ودُماه في ركن المهملات تحت السلالم، لكي تمنعه من اللحاق بها أو إيذاء نفسه. وفي البدء كان الصغير يبكي خائبًا، ويضرب الباب بقبضتيه، ثمّ استوعب بفضل ذكائه أنّ لذلك الحبس جوانبَ إيجابيّة؛ إذ كانت شقيقته دائمًا تفتح الباب وفي يديها طعامٌ وهدايا.

يروي أستور أنّه حين يكون هناك، تحت الظلام، تنبت من بين البلاط حيواناتٌ صغيرة تعيش تحت الأرض.

- تشبه السحالي، لكنّ شعرها أشقر وتتحدّث معي.

وكانت آنّا مسرورةً بفكرتها تلك: فهي حرّةٌ في الحركة، وشقيقها لا يرى الخراب والجثث، ولا يشمّ تلك الرائحة الكريهة التي لا تفارقك حتّى لو تحمّمتَ بعطر.

إلّا أنّ أستور مع مرور الوقت بدأ يتطلّب. في البداية أراد الضوء، ومن المؤكّد أنّ أخته لن تشعل له شمعة في ذلك المجال الضيّق. ثمّ راح يدّعي أنّ السحالي الشقر ما عادت تريده بينها وصارت تحدّثه بأمورٍ سيّئة.

وفي النهاية جاء موسم الأسئلة. ما الذي يوجد خلف الغابة؟ لماذا لا يمكنني الذهاب معكِ إلى «الخارج»؟ ما الحيوانات التي تعيش هناك؟

وكانت آنّا كلَّ مساء تقصّ عليه حكايات الخارج لتقنعه بالبقاء في المنزل. وهو يصغي إليها بصمت إلى أن تنتظم أنفاسه ويسقط إبهامُه من فمه.

«الخارج»، ما وراء الغابة المسحورة، ليس سوى طاولة ميّتة. لا أحد نجا من غضب الإله دانون (هكذا كانت آنّا تسمّيه تكريمًا لتلك الحلويات التي تذكرها بشوقٍ كبير): رجال، حيوانات، أطفال. أمّا هما فكانا محظوظين بالسكن في تلك الغابة المتوارية ذات الأغصان المتشابكة بحيث إنّ الآلهة لا تقوى على رؤية ما فيها. وقد لاذ بها القليل من الحيوانات الناجية. فإضافةً إلى الشجر لا شيء سوى الحفر والأطلال التي تسكنها الأشباح، ومن عمق الحفر يبرز الطعام والأغراض، وأحيانًا تظهر علب التونة، وأصابع السيريال أحيانًا، وأحيانًا ألعابٌ وثياب. وفي ذلك العالم تحوم الغيلان الدخانيّة التي تعمل تحت إمرة الإله دانون. مردةٌ من غازٍ أسود تفتك بأيّ أحدٍ تصادفه. وفي بعض المساءات كانت غيلان الدخان في حكايات آنّا تتحوّل إلى حيوانات ما قبل تاريخيّة، شبيهة بتلك الموجودة في «كتاب الديناصورات». لا تنتظر سوى أن يُقدِم أستور على خطوةٍ واحدة ما وراء أرض التوت لتأكله حيًّا.

– ألن يمكنني الهرب؟ أنا سريعٌ جدًّا.

– مستحيل. –كانت آنّا حاسمة– وبمعزلٍ عن الوحوش الدخانيّة، الهواء سامٌّ وقد يقتلك. تجتاز الشباك ثمّ تموت بعد بضعة أمتار.

كان أستور يعضّ شفتيه غيرَ مقتنعٍ كليًّا.

– ولماذا أنتِ لا تموتين؟

- لأنّني حين كنتَ لا تزال صغيرًا، أعطتني أمّي دواءً خاصًا تعجز الفيلان عن إيذائي بسببه. - لكنّها قالت في أحيان أخرى:
- أنا مسحورة. لقد وُلدِتُ هكذا. وعندما أموت سينتقل السحر إليك وبوسعك حينها أن تخرج وتبحث عن الطعام بمفردك.
- كم أنا متلهّفٌ لموتكِ. أريد ،ن أرى الفيلان الدخانيّة.

يجب على آنّا أن تفسّر الموت لأخيها. كانت الجثث تحيط بهما، ورغم ذلك لم تتمكّن من تفسير الموت. فاضطرّت إلى اصطياد الفئران والسحالي وقتلها أمام عينيه.

- أرأيت، لقد مات الآن. لم يبقَ منه سوى الجسد، ولم يعد في داخله حياة. افعل ما تشاء، لكنّه لن يتحرّك بعد. لقد رحل. إن ضربتُك بالمطرقة على رأسك سيحدث لك الأمر ذاته، سترحل إلى العالم الآخر مباشرةً.
- وأين يقع العالم الآخر؟

ينفد صبرها.

- لا أدري. ما وراء الغابة. لكنّه عالمٌ مظلمٌ دائمًا، وباردٌ جدًا على الرغم من اشتعال الأرض التي تلهب قدميك. ستكون وحيدًا. لا يوجد أحدٌ هناك.
- حتّى ماما؟
- لا.

لكنّ أستور لا يستسلم بسهولة.

- وكم تبقين في العالم الآخر؟
- إلى الأبد.

كانت تضيق ذرعًا بتلك النقاشات الوجودية المطوّلة والمضنية.

وكان أستور يتظاهر باقتناعه أحيانًا، لكنّه في أحيان أخرى يستشعر أنّها لا تصارحه بالحقيقة، فيبحث عن التناقضات.

- وماذا عن الطيور التي تمرّ في أعلى، في السماء؟ إنّي أراها. لماذا لا تموت؟ من غير المعقول أنّها حصلت على الدواء.

آنّا ترتجل قائلةً:

- بإمكان الطيور أن تحلّق فوق الهواء السامّ، لكنّها لا تستطيع أن تتوقّف.

- يمكنني فعل ذلك أنا أيضًا. لن أتوقّف أبدًا. سأقفز من شجرة إلى أخرى.

- كلا، ستموت.

- هل لي أن أجرّب؟

- كلا.

خطرت على بال آنّا فكرة. تقع حظائر آل مانينو ما بين الغابة والحقول، على بُعد قرابة المئة متر عن أرض التوت. نفقت فيها الأبقار من الظمأ، وباتت جيفُها مرتعًا للدود، بحيث إنّ رائحة التفسُّخ تقطع الأنفاس لحظة الاقتراب منها.

رافقت آنّا شقيقها إلى السياج.

- اسمعني جيّدًا. سأصحبك إلى الخارج، ما دمتَ متشوّقًا إلى هذا الحدّ. ولكنْ تذكَّرْ، أنا مسحورة ولا أشمّ رائحة الموت. عليك أن تبقى متيقّظًا. ما إن تصلك روائح مقرفة، تسبّب التقيّؤ، هذا يعني أنّك موشكٌ على الموت. اركض إلى الخلف بأقصى سرعة، لا تتوقّف، اجتز الشبكة لتنجو.

أثارت الفكرة مخاوف الولد.

- لا أفضّل ذلك.

ابتسمت آنّا في سرّها وأمسكته من معصمه.

- والآن هيّا بنا، لعلّك تكفّ عن طرح كلّ تلك الأسئلة.

راح أستور يبكي، ثبّت قدميه وتشبّث بأحد الأغصان. جرّته آنّا بقوّة.

- هيّا!

- كلا، أرجوكِ... لا أريد الذهاب إلى الأرض الحارقة.

رفعته وقذفت به خلف السياج، ثمّ اجتازته هي أيضًا وأمسكت أخاها من رقبته، ودفعته بين الجذوع التي غزاها اللبلاب والآس البريّ الشائك. انتفخت عينا أستور من الدموع، وسدّ فمه. إلّا أنّ رائحة الجيف تغلغلت في منخاريه بكلّ الأحوال. نظر إليها مُحبَطًا، وأشار أنّه يشمّها.

- اذهب! اركض إلى المنزل!

عاد الطفل بوثبة القطّ إلى أرض التوت.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد ضروريًا أن تغلق عليه في ركن المهملات.

* * *

كان الجوّ منعشًا ويبعث على الرغبة في المشي.

تركت آنّا الغابة وراءها، وحاذت توزّي نورمانّا ودلفت إلى طريق الضاحية.

هنالك غربانٌ جاثمةٌ على أسلاك التيّار الكهربائيّ تنعق عليها مثل راهباتٍ يتّشحن بثوب الحِداد.

سارعت خطاها. ما زال الطريق أمامها طويلًا لتبلغ متجر التوأم ميكيليني.

باولـو وماريـو ميكيلينـي تـوأمٌ متطابـق. يكبـران آنّـا بعـامٍ واحـد، كانـا فـي الصـفّ الرابـع حيـن كانـت فـي الثالـث. ضخمـان وبدينـان ومتطابقـان. لهمـا ذات العينيـن الغائرتيـن والمحايدتيـن، وذات الشـعر الجـزريّ اللـون. مبقَّعـان بالنمـش كمـا لـو أنّهما عند الـولادة وضعوهما إلـى جانـب قِـدْرٍ مـن صلصـة الراغـو السـاخنة. فـي المدرسـة كانـا بليديـن ولا ينجـزان الوظائـف أبـدًا، إلّا أنّ حجمهمـا الثقيـل يرعـب الجميـع بمـن فيهـم المعلّمـات. فإن شـاهدا كـرةً فـي مجالهمـا اسـتوليا عليهـا، وإن أردتَ اسـتعادتها عليـك أن تدفـع النقـود.

وكانـت أمّهمـا تُلبِسـهما ثيابًـا متطابقـة: سـترة زرقـاء، قميـص أحمـر وحـذاء رياضـيّ. وأبوهمـا صاحـب متجـر غذائـيّ مـن سلسـلة ديسـبار فـي بوزيتـو باليتزولـو.

وكانـت آنّـا قبـل الفيـروس تلتقيهمـا فـي بـاص المدرسـة، لكنّهمـا لا يعطيانهـا أيّ انتبـاه، إنّمـا يجلسـان فـي آخـر البـاص ويلعبـان النيتانـدو بصمـت، مـا يعنـي أنّهمـا يتفاهمـان عبْـر التخاطـر. فبالنسـبة إليهمـا كان العالـم يُـرى بأربـع أعيـن، ويُلمَـس بعشـرين إصبعًـا، ويُمشـى بأربـع أقـدام ويُتبـوَّل فيـه بعصفوريـن.

وبعـد الجائحـة حـدث لآنّـا أن مـرّت قبالـة الديسـبار. كان المغـلاق الحديـديّ مرفوعًـا، ومـوزّع العلكـة والعرقسـوس فـي جـوار البـاب بجانـب صـفٍّ مرتّـبٍ مـن العربـات. زاويـةٌ فـي غايـة الترتيـب، يحيـط بهـا دمـارٌ شـامل وقـذارات. وبعـد سـاعة محـدّدة أُخفِـضَ المغـلاق، تمامًـا كمـا لـو أن لا وجـود للحمّـى الحمـراء. الشـيء الوحيـد الناقـص هـو الضـوء عنـد اللافتـة.

تساءلت آنّا إذا ما كان والد التوأم عاد من الحياة الآخرة. وكم رغبت مرارًا في الدخول واكتشاف الحقيقة، لكنّها كانت تخاف. فظلّت تحوم حول المكان، وتحملق إلى المدخل حيث يوجد ملصقٌ لكلبٍ خلف إشارة إكس يقول: «نحن نبقى في الخارج».

وذات يوم، بعد أن طافت جيئة وذهابًا، دفعت الباب الزجاجيّ. ما زال الداخل مطابقًا لما هو عليه حين كانت تذهب مع أمّها للتسوّق بالعودة من الشاطئ. الأغذية على الرفوف، قوالب حلوى البانيتوني في عرضٍ خاصّ، الخزانة الزجاجيّة التي تحتوي على الراديوهات وشفرات الحلاقة للمشتركين. سوى أنّ مصطبة الجبن واللحوم المجفّفة كانت فارغة، وكذلك صناديق الخضروات.

قطعت آنّا المحلَّ بصمت كأنّها تحلم: إن مدَّت يدها على العبوات وعلب الحبوب وقوارير الخلّ البلسميّ، فلا بدّ أنّ هذه الأشياء ستختفي.

- فيمَ ترغبين؟

كان التوأم واقفين، واحدًا بجانب الآخر، بسترتهما وأحذيتهما البيضاء. وأحدهما يمتشق بندقيّة صيد.

- هل تريدين عربة؟

أومأت آنّا بالنفي.

- لدينا كلّ شيء، حتّى بيض عيد الفصح الذي في داخله مفاجأة، والنوتيلا أيضًا. - فسَّر ذو البندقيّة.

النوتيلا نادرة الوجود. كانت من أوائل الأشياء التي نفدت بوصول الوباء.

نظرت آنّا إلى ما حولها.

- وشوكولاتة فيريرو روشيه أيضًا؟
- بالتأكيد.
- وكيف أحاسبكما؟ هل تريدان نقودًا؟ - لكنّها كانت تعلم أنّ العالم مملوء بالنقود وأنّ لا أحد يريدها.
- نتبادل. ألديكِ ما تقايضين عليه؟
بحثت في جيوب بنطلونها.
- لديَّ سكّينٌ سويسريّة.
هزَّ الدبّان رأسيهما معًا.
- نريد بطّاريّات، شرط أن تكون سارية المفعول، سنختبرها. كما أنّنا نحتاج إلى الأدوية وأقراص ماسيمو رانييري.
قوّست آنّا حاجبها.
- مَن هو ماسيمو رانييري؟
- مطربٌ مشهور. كان والدنا يحبّه كثيرًا. -أجاب صاحب البندقيّة- من أجله نعطيكِ ثلاث عبوات من النوتيلا الكبيرة وستّ أصابع توبليرون صغيرة. كلُّ ما ترينه هنا يصلح للمقايضة. هذا ميني ماركت.
لم تكن آنّا قد سمعت هذا العدد الكبير من الكلمات دفعةً واحدة على لسان أيٍّ من الأخوين.
ثمّ واظبت في الأشهر اللاحقة على البحث عن أقراص ماسيمو رانييري في كلّ مكان. وجدت كثيرًا من أقراص فاسكو روسّي ولوتشو باتّيستي، ولا شيء لرانييري. وذات يوم، في استراحةٍ طرقيّة، عثرت بين حافظات الجوّال والعطور البخّاخة والكتب المتعفّنة على ألبوم ثلاثيّ بعنوان «نابولي وأغنياتي».

كانت حينئذٍ ستقايضه بالمضادات الحيويّة.

* **

سلكت طريقًا خاطئًا. هناك طريقٌ أقصر للوصول إلى التوأم ميكيليني. كما لو أنّ قدميها قرّرتا ملء إرادتهما، فوجدت نفسها في الأوتوستراد من جديد.

ها هي السيّارة التي فيها الكلب.

كانت آنّا تحدّق إلى بابها المفتوح وتقضم ظفر إبهامها. كانت تريد رؤيته قبل أن تحيله الغربان إلى عظام.

أخرجت السكّين من حقيبتها، واقتربت إلى السيّارة وتلصّصت إلى الداخل. لمحت جزءًا من فروٍ قذر. صاحت، ولكنْ لم يحدث شيء. مالت أكثر. فرأت الكلب من خلال الفراغ بين المقاعد الأماميّة. كان على الوضع ذاته الذي تركته فيه. تخثّر الدم تحت عنقه بعد أن بلّل المقعد الخلفيّ كله. هناك ذبابٌ فولاذيٌّ ضخمٌ يحوم فوقه. ومن فمه المفتوح يتدلّى لسانه على اللثّة القاتمة والممتلئة باللعاب. عينه التي تُرى من خلال الفراغ، الكبيرة كقطعة البسكويت والسوداء كالنفط، كانت جاحظةً وتحدّق إلى العدم. كان بطيء الأنفاس حتّى إنّها تُسمَعُ أو تكاد. ذيله هامدٌ بين رجليه الخلفيّتين اللتين ترتجفان بخفّة.

لمسته آنّا من جانبه برأس السكّين. لم يتحرّك الحيوان، لكنّه أدار حدقته إليها وحدّدها في لحظة واحدة.

باتت روحه تضيق بذلك الرداء القذر. وهذا ما يحدث لكلّ مَن يموت، بشرًا أم وحوشًا، لا فرق.

في الأعوام الأربعة الأخيرة شهدت آنّا على كثيرٍ من الفتية تمتلئ جلودُهم بالبقع الحمراء وتوافيهم المنيّة. مرميّون تحت سلالم معتمة، داخل سيّارة مثل ذلك الكلب، تحت شجرة أو على سرير. كانوا يصارعون المرض، لكنّهم جميعًا بلا استثناء يدركون النهاية في لحظة معيّنة، كما لو أنّ الموت بذاته يخبرهم بها في آذانهم. يقاوم بعضهم وهم مدركون اقتراب الأجل وقتًا لا بأس به، لكنّ أكثرهم لا يكتشفون النهاية إلّا قبل لحظة واحدة من لفظ الرمق الأخير.

امتدّت يد آنّا، كأنّها تبادر من تلقاء نفسها، وحنت على جبين الكلب.

ظلّ الحيوان متحجّرًا وغير مكترث، إلّا أنّ ذيله انتصب وسقط بما يبدو أنّها هزّةٌ منهكة.

هزّت آنّا رأسها.

- ها أنت أيّها اللعين القبيح، ألم تمت بعد؟

على حافّة الأوتوستراد الممتلئة بقناة الصرف، وجدت كرة بلاستيكيّة منفوخة. قسمتها نصفين، وعادت بنصفٍ إلى السيّارة. أخرجت القنّينة من الحقيبة وصبّت نصفها بالقصعة المرتجلة. قرّبتها من فم الكلب الذي لم يعرها أيّ اهتمام للوهلة الأولى، فإذا هو يرفع خطمه ويغطّس لسانه في الماء على مضض.

قرّبت الفتاةُ القصعة إليه.

- اشرب، هيّا، اشرب!

لعق الحيوان قليلًا ثمّ استرخى.

أخذت آنّا عبوة بازلاء، فتحتها ورمت منها بجانب فمه.

أدّت واجبها.

بوزيتو باليتزولو أيضًا، البلدة ذات البيوت العصريّة المتكدّسة فوق أحد التلال، كان لها موعدٌ مع النار. لكنّ الحرائق بالكاد مسّت متجر ميكيليني، ففحّمت جدرانَ المبنى الصغير وأذابت الستائر البلاستيكيّة الخضراء للطوابق العليا.

طرقت آنّا على المغلاق.

- افتحا، لديّ ما نتقايض عليه. - انتظرت قليلًا - هل ثمّة أحدٌ هنا؟ هل تسمعانني؟ إنّني آنّا ساليمي، من الصفّ الثالث الابتدائيّ. لديّ ما نتقايض عليه. افتحا.

نفد صبرها فدارت حول المبنى.

كان باب العمّال الخلفيّ مغلقًا، ومن الصعب رؤية شيء من خلال الكوى. عادت إلى الأمام، حاولت أن ترفع المغلاق، لكنّه كان مقفلًا. ركلته بقدمها. لقد بحثت عن ذلك القرص الغبيّ طيلة أشهر وسارت كلّ ذلك الطريق من أجل لا شيء. فأين لها أن تجد المضادات الحيويّة الآن؟

- حسنًا، سأذهب. كنت قد أتيتُ بموسيقى ماسيمو رانييري. جميلة جدًا، وأعتقد أنّكما لا تمتلكان هذا القرص. - قرّبت أذنها من المغلاق.

أحدهم يتحرّك في الداخل.

- أعلم أنّكما هنا.

- اذهبي بعيدًا. لم نعد نتقايض على شيء هنا. - ردَّ عليها صوتٌ ناعس.

- حتى لو كان ماسيمو رانييري.

دار المغلاق مُحدِثًا ضجيجًا حديديًا. وبرز من ظلمات المحلّ طيفُ أحد الشقيقين. كان يحمل البندقيّة بيده.

لم تفهم آنّا إن كان ماريو أم باولو، لكنّها اكتفت بنظرة لتدرك أنّه مصابٌ بالحمراء. شفتاه مملوءة بالقشور والخدوش الحيّة، ومنخاراه منتفخان وملتهبان، وعيناه مطوّقتان. بقعةٌ آيلةٌ إلى الاحمرار على عنقه. قد يعيش بضعة أسابيع، وإن قاوم فليس أكثر من شهرين.

أخرجت القرص من الحقيبة.

- ها؟ هل تريده؟

ضيّق الشقيق عينيه.

- أرني إيّاه. -تفحّصه وأعاده إليها- لديّ منه. ثمّ إنّي مللتُ من ماسيمو رانييري. أفضّل دومينيكو مودونيو.

رفعت آنّا عنقها لتسترق النظر إلى الداخل.

- هل أنت بمفردك؟

سعل البدين وبصق على الأرض عصارةً صفراء.

- توفّي أخي. - رفع نظره وعدَّ بشفتيه - منذ خمسة أيّام.

مرّرت آنّا لحظة صمت ثمّ قالت:

- اسمع، أنا في حاجةٍ إلى دواء.

- قلت لكِ إنّنا ما عدنا نقايض على شيء. - استدار ودخل وهو يسحل قدميه في الميني ماركت. فتبعته إلى الداخل.

استغرقت عيناها قليلًا من الوقت للاعتياد على الظلمة. كلّ الأغراض كانت على الأرض، علب العسل وعبوات البرتقال وطعام الكلاب وحوافظ الصلصات وأنبوبات عجينة الأنشوفة. ثمّة صفيحة زيت مقلوبة، وشظايا زجاجة غارقة في بركة نبيذ.

كان يعزّ عليها أن ترى خيرات الله مرميّةً بذلك الشكل. ففي اليوم السابق كادت تموت من أجل أربع عبوات فاصولياء.

- ما الذي حدث؟

- لم أعد أرتّب المحلّ.

- هلّا أعطيتني هذه الأدوية؟ الحالة طارئة، إنّها لأخي. لديَّ بطّاريّاتٌ فعّالة إن أردتَ.

ذهب التوأم خلف المصطبة، وعلّق البندقيّة على الحائط، واسترخى بساقين ممدودتين وذراعين تتدلّيان على كرسيٍّ من الخيزران وعاد إلى السعال. لم تتمكّن الحمّى الحمراء من إنقاص وزنه. كانت فخذاه الثخينتان تبرزان من بنطلون بدلته حيث الجلد الشاحب ملطّخٌ بالنمش والزغب الأشقر. رأسه المكوّر يتموضع على كتفيه مباشرة، دون الحاجة إلى رقبة.

- لا أحتاج إلى بطّاريّاتكِ. لديَّ منها الكثير. - فتح درجًا زاخرًا بعلب السجائر - هل تريدين واحدة؟

- شكرًا.

- أيّ نوعٍ تفضّلين؟

- لا يهمّ.

أعطاها علبة مارلبورو وولّاعة.

- كم عمر أخيكِ؟

أشعلت آنّا السيجارة.

- سبعة أعوام، ربّما ثمانية.

- لا يمكن أن تكون الحمراءُ إذن.

- لعلّه تناول طعامًا فاسدًا. أصابته الحمّى، وهو يتقيّأ، أحتاج إلى مضادات حيويّة.

دلَّك البدين عنقه.

- هل تريدين رؤيته؟

أدركت آنّا أنّه يتحدّث عن شقيقه.

- حسنًا. ولكن، مَن أنت بينهما؟

- أنا ماريو. شقيقي كان باولو. - اقتادها إلى المستودع الخلفيّ المكتظ بعلب الكرتون والصناديق، إضافة إلى شاحنة بيضاء كُتِبَ عليها «ديسبار». - وضعتُه هنا.

كان باولو ملقًى في ثلّاجة كبيرة ومفتوحة، كتلك التي كانوا يحفظون فيها البيتزا المجمّدة وأكياس الجمبريّ في الماضي. وكان مطوّقًا بأكداس علب التونة المخلّلة بالزيت من شتّى الأنواع. كانت الجثّة آيلةً إلى الانتفاخ، اختفت العينان في فقاعتين بنفسجيّتين. ويداه تبدوان قفّازين ممتلئين بالهواء. ورائحته كريهة جدًّا.

مجّت آنّا من السيجارة.

- أراهن أنّه كان مولعٌ بالتونة.

- كم عمركِ؟ - سألها ماريو.

- فقدتُ العدّ.

ابتسم مبرزًا أسنانه الصغيرة والصفراء.

- أذكركِ عندما كنتِ في المدرسة. - عاينها - هل لديكِ بقع؟

نفت آنّا بهزّ رأسها.

- ولكن لماذا برأيكِ توفّي أخي قبلي؟ لا أفهم، نحن توأم. ولدنا معًا، وكان علينا أن نموت معًا.

- الحمـراء تصيـب كلّ شـخصٍ بطريقـة مختلفـة. وقـد تصيبـك فـي الرابعـة عشـر عامًـا أيضًـا.

أومأ وزمّ شفتيه.

- كيف أبدو لكِ؟

أطفـأت السـيجارة بأسـفل حذائهـا واقتربـت منـه. ركّـزت عينيهـا علـى عنقـه، وجعلتـه يرفـع الكنـزة لتـرى البقـع الأخـرى علـى ظهـره وتفحّصـت يديـه.

- لست أدري... ربّما أمامك شهران.

- أنـا أيضًـا أعتقـد ذلـك. -غمـز بعينـه- هـل تعلمين مـاذا يقولون؟ هنـاك بالـغٌ قـد نجـا.

ياه كـم سـمعت آنّـا تلـك الشـائعات! كلّ الذيـن تقابلهـم يحكـون لهـا عـن بالغيـن ناجيـن فـي مـكانٍ مـا. هـراء. لقـد أبـاد الفيـروس الجميـع ومـا زال بـكلّ سـهولة يواصـل فتكـه بأولئـك الذيـن يكبـرون. هـذا هـو الوضـع. حتّـى إنّ آنّـا لـم تعـد تصـدّق قصـة اللقـاح، بعـد مـرور كلّ تلـك السـنوات. لكنّهـا لـم تقـل شيئًـا. كانـت تأمـل فـي الحصـول علـى الأدويـة.

- أعلـم أنّـكِ لا تصدّقيـن. أنـا أيضًـا لـم أصـدّق فـي البـدء. إلّا أنّ الأمـر صحيـح. - وضـع ماريـو يدًا علـى قلبـه.

- ومـا الـذي يجعلـك واثقًا؟

- لأنّ الـذي روى لـي لا بـدّ أنّ عمـره سـتّة عشـر عامًـا علـى الأقـلّ. ملتـحٍ وليـس لديـه أيُّ بقعـة. قـال إنّ سـيّدة كبيـرة أنقذتـه. ليسـت كبيـرةً بالمعنـى الاعتيـاديّ، إنّمـا أكبـر. يسـمّونها البشـردونة. طولهـا ثلاثـة أمتـار، أصابتهـا الحمـراء لكنّهـا نجـت. -كانـت أنظـار ماريو تقلّ

حيويّة عن نظرات بقرة في المرعى، فإذا هي تتوقّد- اضطررتُ إلى إعطائه خمس قوارير من النبيذ ليخبرني أين تكون.

- وأين عساها تكون؟ - سألت آنّا.

- في مكانٍ ما فوق الجبال. «فندق ينابيع إليزة»، قال. هل تعرفين المكان؟

فكّرت آنّا قليلًا.

- أجل، ليس ببعيد.

- هل ذهبتِ إلى هناك؟

- ليس إلى هناك بالتحديد، ولكن إلى مكان مجاور. يكفي أن تلقي نظرة على إحدى الخرائط.

- البشردونة سوف تداويكِ.

افترّت من آنّا ابتسامةً متشكّكة.

- وكيف تفعل ذلك؟

- عليكِ أن تقبّليها، على فمها، لعابها سحريّ.

انفجرت الفتاة ضاحكة.

- عليك أن تقبّلها باللسان؟

- أجل.

- وماذا لو أنّها لا تريد؟ ماذا لو كنتَ لا تعجبها؟

- تريد، تريد. يكفي أن تحملي إليها الهدايا. - عاد يسعل وكاد يختنق. ثمّ استأنف كلامه بصوتٍ مبحوح: لا سيّما ألواح الشوكولاتة.

- الشوكولاتة لم تعد لذيذة. باتت كلُّها بيضاء وبلا نكهة.

ارتسمت على وجه ماريو ابتسامة بقّالٍ يعرض المرتديلا.

- لدينا طريقةٌ سرّيّةٌ لحفظها. نضعها في جوٍّ رطب، في القبو، في الأسفل. ونغلق عليها داخل حاويات بلاستيكيّة. تقبّلينها بخمسة ألواح شوكولاتة وستّة...

- هل تريد منّي أن أرافقك؟ - قاطعته آنّا.

- إلى أين؟

- إلى البشردونة. سأوصلك إليها بنفسي.

ظلّ التوأم ساكتًا لحظة، يحكّ بظفره قشور شفتيه. أشار إلى باب المستودع.

- فلنذهب إلى هناك. - عادا إلى المحلّ - ماذا أفعل بباولو؟

- لقد مات. اتركه هنا.

أمسك ماريو إصبع السيريال، وابتلعه بعضّتين دون أن يقدّم منه شيئًا.

- تعلمين، أنا لم أتحرّك إطلاقًا من دون أخي. كنّا نحبّ البقاء في المحلّ. نقايض الزبائن، نكدّس البطّاريّات والأدوية... وبعد الحرائق لم يعد يأتي إلينا أحد. ما عدا العصابات التي تحاول نهب المحلّ.

- لا نستغرق زمنًا طويلًا.

- كم؟

- يومان.

- لا أدري... بوسعي أن أعطيك الشوكولاتة لتقبّليها أنتِ أيضًا.

ابتسمت آنّا.

- أجل، ولكنّ هذا لا يكفي. إن أردتَ منّي أن أرافقك فيجدر بك أن تعطيني الأدوية لأخي.

فتح ثلاثة أدراج.

- خذي ما تشائين.

وجدت علبتين من المضاد الحيويّ على الفور ووضعتهما في الحقيبة.

- ويجب أن تعطيني كلّ الأغذية التي نستطيع حملها معنا، شرط أن أختارها بنفسي. وبطّاريّات فعّالة أيضًا.

- أوكي.

- فلنفعل على الشكل التالي: نمرّ إلى منزلنا، نعطي الدواء لأخي، ثمّ ننطلق في صباح الغد.

ابتهج ماريو.

- موافق، لقد مللتُ من البقاء وحيدًا. ما اسم أخيكِ؟

- أستور.

- اسمٌ غريب. - مدّ ماريو يده الغليظة نحو آنّا - اتفقّنا.

كانت خطّة آنّا في غاية البساطة: حين يصلان إلى توزّي نورمانّا ستهرب بالأغراض وترسل إلى الجحيم كلًّا من ماريو والبشردونة.

* * *

تقدّم الاثنان على امتداد طريقٍ ريفيّ يقطع قريةً مكوّنةً من أربعة بيوت وكنيسة صغيرة ودوّارٍ فيه نصبٌ تذكاريٌّ لقتلى الحرب العالميّة الأولى. أحرقت النيران الجنبات الخضراء للمكتب السياحيّ، وبدت جذوع الكينا مثل أقلام رصاص سوداء مغروسة في الأرض. لم يبق من كشك بائع الجرائد سوى هيكله الحديديّ. وهناك سيّارة إسعاف مصطدمة بباب محلّ الحلاقة.

كانت آنّا تحمل بيدها كيسًا مملوءًا بالمرطبانات. أمّا ميكليني، الذي وضع على رأسه قبّعة حمراء كُتِبَ عليها «نوتيلا» والبندقيّة على كتفه، فكان يجرّ عربةً تغصّ بالعلب. وكانت الحمولة مخفيّةً بقماشٍ مشمّع.

كانا يتصبّبان عرقًا، ولا يجدان السلامة إلّا حينما تختبئ الشمس خلف الغيوم.

لم تفهم آنّا إن كان ماريو لطيفًا أم غليظًا. فما إن خرج من المحلّ تجهّم وجهه، وبعد أقلّ من كيلومترين راح يتباطأ. قد يكون مصابًا بالحمراء، إلّا أنّها فكّرت أنّه ولدٌ كسول. فإذا اعتمدت على سرعته سيصلان إلى المنزل مع حلول الظلام.

– هل تريد أن نتبادل؟ هل أجرّ العربة؟

أومأ ميكيليني بلا.

– هل البندقيّة ملقّمة؟

– لديّ أربع خراطيش.

كان من الصعب العثور عليها، وقد أطلقوها كلّها في الأشهر الأولى من تفشّي الوباء، خلال عمليّات السطو وأحداث الشغب.

دلفا إلى دربٍ مطوّقٍ بسورٍ حجريّ.

توقّف التوأم لالتقاط أنفاسه.

– تبدو لي الحياة غريبة دون باولو. –نظر إليها– هل نما زغبكِ؟

– أجل.

– أريني.

فكّت آنّا بنطلونها. فانحنى ماريو، وما زال ممسكًا العربة، لينظر إلى تلك الخطوط السوداء.

- وصدركِ؟

نزعت كنزتها. ثمّة تلّتان صغيرتان، وعلى قمّة كلٍّ منهما قرنٌ زهريّ.

استأنفا السير وابتعدا عن البلدة. كانت آنّا تخطو بصبرٍ ينفد، لكنّها مرغمة على التماشي مع خطوات ذلك البطيء. اقترحت عليه لعبة للهو قليلاً.

- أيُّ لعبة؟ - كان التوأم يقطر عرقًا.

- فكّر في حيوان.

- حسنًا. فيل البحر.

- يجب ألّا تكشف لي عن اسمه، فكّر فيه فقط، عليَّ أن أطرح عليك الأسئلة إلى أن أكتشفه. واضح؟

- واضح.

- حسنًا. هل هو يطير، أم يسير، أم يسبح؟

أبدى ميكيليني ابتسامةً ماكرة.

- يطير، يسير، ويسبح.

- أيُّ حيوانٍ هذا؟

- البطّة.

- يجب ألّا تخبرني باسمه على الفور.

- أنتِ سألتِني أيّ حيوانٍ هو.

- كنت أتساءل. هيّا، فكّر بحيوانٍ آخر.

- حسنًا. الأرنب.

- من الأفضل أن نتابع المشي.

اجتازا لافتةً إعلانيّة فيها سيّارة ورجلٌ بسترة وربطة عنق يقول: «اختر مستقبلك اليوم!»

* * *

في أحد حقول الزيتون المحروق، تسير تسعةُ أطياف رقيقة كالأشباح. يتقدّمهم اثنان يكبرانهم سنًا، ذكرٌ بدين وأنثى هزيلة كالهيكل العظميّ، مطليّان باللون الأبيض. والآخرون من عمر أستور، عراة ومطليّون باللون الأزرق، وشعرهم يتناثر على أكتافهم بما يشبه البكرات المفتولة. وكان بعضهم يحمل العصيّ بأيديهم.

آنّا وميكيليني يراقبانهم من خلف سياجٍ خشبيّ. حكّ التوأم ذقنه.

– ماذا نفعل الآن؟

– أخفض صوتك. –همست له آنّا– إن اكتشفونا سرقوا منّا كلّ شيء.

وفي الجوار، إلى الجانب الآخر من الشارع، ثمّة بناية مزوّدة بكراجٍ أرضيّ تنتصب فوقه لافتة «ورشة بييري لتصليح السيّارات».

أمسكت آنّا مقابض العربة وراحت تتقدّم محدودبة الظهر، وتحتجب بالسياج.

– أخفض رأسك واتبعني دون إحداث ضجيج.

فإذا هي بعد أمتار قليلة تسمع دويَّ طلقة خلف ظهرها.

كان ميكيليني في وسط الشارع. ومن فوّهة بندقيّته تخرج غيمة دخان أبيض.

فغرت البنت فمها.

– ماذا فعلتَ؟

- هكذا يتركوننا وشأننا.

- غبيّ.

دفعت آنّا العربة التي صارت تترنّح يمينًا وشِمالًا. فتركتها وهُرِعت نحو البناية دون أن تلتفت إلى الوراء. نزلت على العتبة الأسمنتيّة فوجدت نفسها أمام ثلاثة مغاليق مخفضة. كان المغلاق الذي في الجهة اليسرى مرفوعًا بما لا يزيد على عشرين سنتمترًا. وقد تجمّعت أوراق الشجر والتربة التي سحبتها الأمطار فوق قناة الصرف. حفرت فيها الفتاة كالكلاب، ففتحت منفذًا، نزعت حقيبتها، وسحبت أنفاسها لتصبح أنحف وزحفت تحت المغلاق. مرّت ساقاها، وجذعها أيضًا، لكنّ رأسها ظلّ عالقًا. ضغطت بخدّها على الأرض حتّى صارت في الجهة الأخرى وقد تخدَّشَ وجهها على الجانبين. أطالت ذراعها واستعادت الحقيبة.

كانت الورشة غارقة في الظلام. حاولت أن تخفض المغلاق، لكنّه لم يتحرّك. تقدَّمت ويداها إلى الأمام نحو نهاية المكان. فاصطدمت ركبتها بسيّارة وساقها بالرفوف الممتلئة بالقطع المعدنيّة التي انقلبت على الأرض مُقرقِعةً. ابتلعت ألمها وتبعت الرفوف بملمس أصابعها، فلمست الجدار الخشن، ووجدت بابًا ففتحته. كان الظلام في الداخل أعمق. انغمست فيه تمشي على أربع حتى تحسّست بيدها حافّةَ سُلَّم.

وفي الخارج دوّت أعيرةٌ ناريّة.

جلست آنّا وشبكت ركبتيها وصلَّت ألّا يكونوا رأوها.

* * *

كانت العصابة قد التفت على دويّ الطلقة.

فتىً سمينٌ متمركزٌ في وسط الطريق يمتشق بندقيّة، وطيفٌ يدفع عربة ثمّ يهرول محنيّ الرأس نحو بناية.

صفّرت الفتاة الكبيرة مشيرة للأطفال الزرق نحوهما. فحمل أولئك الحجارة وراحوا يرشقونها وهم يصرخون.

أطلق ميكيليني الخراطيش الثلاثة المتبقّية لديه على الجمع. فأصاب أحد الأطفال بالطلقة الأخيرة فسقط في غيمةٍ من رماد.

– أجل –. رمى البندقيّة وراح يعدو نحو البناية، لكنّ المرض ووزنه الزائد قطعا أنفاسه. التفت لتفقّد مطارديه فأصابته حجرةٌ على رأسه. صاح، وبينما كان يحمل يده إلى صدغه تعثّر. تحرّك ثلاث خطوات متقلقلة ودوّرَ ذراعيه لاستعادة التوازن، لكنّه انقلب كالبلدوزر على أطراف الشارع وهوى باسط الذراعين في الحقلة المجاورة. لم يحاول النهوض. شدّ على العشب بقبضتيه، وأغرق وجهه في التراب الدافئ وفكّر في أخيه.

* * *

كانت صيحات الأطفال تَرِدُ مُجلجِلةً إلى الورشة.

داست آنّا على العتبة الأخيرة وهي تتعثّر حتّى وصلت إلى بابٍ مغلق. فتحته فوجدت نفسها في بهو البناية. الضوء يخترق زجاج المدخل المموّه. صناديق البريد المكسوّة بالغبار إلى جانب، وبجوارها ورقةٌ مصفرّة تحدّد موعد اجتماع السكّان، وأخرى تمنع ترك الدرّاجات وعربات الأطفال بلا قفل.

حاولت أن تفتح الباب الصغير، لكنّه كان مقفلًا. وإذ حارت في أمرها صعدت السلالم راكضةً. الشقق في الطابق الأوّل كلّها مغلقة. والشيء ذاته في الطابق الثاني. وحتّى الطابق الأخير كلّ الأبواب موصدة.

الأطفال في البهو.

أشرعت نافذة المستراح: نزلة الورشة الأسمنتيّة في الأسفل، وعلى بُعد خمسين مترًا من هناك ترقد جثّة ميكيليني. وفي الجهة اليسرى، على بُعد متر عنها، ثمّة شرفةٌ ناتئة.

الأطفال يصعدون السلالم.

قفزت بكلتا قدميها على الشبّاك، وألقت نظرة خلفها، أرجحت ساقيها ووثبت. طارت وذراعاها إلى الأمام حتّى ارتطم صدرها بسياج الشرفة، لكنّها استطاعت أن تتمسّك بالقضبان. أسندت قدمًا على حافّة الشرفة وتجاوزتها.

سارت وهي تعرج، وتبتلع الهواء، في الشرفة الواقعة على زاوية البناية. وخلف الزاوية وجدت المكيّفات والسخّانة وبابًا زجاجيًا مواربًا. دخلت فيه، وأغلقت المقبض وجلست على الأرض، تلهث وتحدّق إلى غسّالة أطباق وصندوق قمامة ملبَّسٍ بالكُرومّ.

وصل الأطفال عند المستراح. كانوا يطرقون على الباب.

نهضت آنًا، وفتّشت في أدراج المطبخ إلى أن عثرت على سكّينٍ طويلة مسنّنة. شدّت عليها بقبضتها واختبأت في زاوية، متأهّبة.

- تعالوا لكي أقتلكم. أقتلكم جميعًا.

إلّا أنّها سمعت أصداءهم وهم ينزلون السلالم، ثمّ عاد الصمت بعد قليل.

قرفصت بجانب الثلّاجة والسكّينُ في يدها ريثما يتبدّد الأدرينالين في عروقها. يجب أن تتأكّد أنّهم رحلوا حقًّا. فتحت الباب الزجاجيّ وزحفت على مرفقيها حتّى سياج الشرفة.

كانوا يسيرون في الشارع المظلّل، في طابورٍ نحو الغروب.

الفتاة المطليّة بالأبيض اعتمرت قبّعة ميكيليني، وكانت تدفع العربة.

عادت إلى البيت وانهارت على الأرض منهكةً تعانق حقيبتها.

قرّرت أن تمضي الليلة هناك.

تحقّقت من أنّ باب المدخل ينفتح من الداخل.

الشقّة في وضعٍ جيّد. بغضّ النظر عن النمل والصراصير، لم يدخل أحد. أعجبت بالشقّة، كانت مرتّبة. في المكتب المملوء بالكتب، هنالك شهادة مؤطّرة تثبت أنّ غابريلي ميتزوباني تخرّج من كلّيّة الطبّ في ميسّينا.

وكان الطبيب في الصالة، قبالة التلفاز، على أريكة ضخمة من جلدٍ رمليّ اللون ومسندٍ محنيٍّ إلى الأمام. مؤخّرته لا تزال على الوسادة، في حين أنّ جذعه كان مقلوبًا على طاولة صغيرة منخفضة، وجبينه ملتصقٌ بزجاجها. جثمانه سليم: لا يزال الجلد ملتصقًا بالجمجمة مثل كرتونٍ مبلّل أيبسته الشمس. شعره الأشقر والمتيبّس كحشوة المقاعد يشكّل تاجًا حول جمجمته الحرشفيّة. أضلاع نظّارته المذهّبة موضوعة على أذنيه المتجعّدتين. وكان يرتدي رداء مخطّطًا قرضه العثّ، وبيجاما وخفّين من اللباد. هناك عكّازةٌ بجانب ذراع الأريكة، وسلكٌ كهربائيّ يصلها بجهاز تحكّم رماديّ وأزراره حمراء، في يده المنكمشة. وعلى الطاولة الصغيرة، بجانب رأسه، ورقةٌ ملدنة تحوي أرقامًا وأسماء، وهاتفٌ ذو أزرار كبيرة.

دخلت إلى الحمّام. امتصّت النافذةُ دوّامةً من الخفافيش التي خلَّفت على البلاط الأخضر برازًا شبيهًا بحبوب الرزّ الأسود.

وفي ركن المكانس وجدت قنديل غاز للتخييم. وقبل أن تضيئه تحقّقت من إخفاض كلّ مغاليق النوافذ. في خُزُن المطبخ لم يبق سوى ظروف الشاي وأكياس الباستا التي باتت مرتعًا للحشرات. وفي الثلّاجة لا شيء سوى مرطبان الصلصة بجانب طينة سوداء تسيل من مستوى إلى آخر.

«غوفيدي غولاس» مكتوبٌ على الملصق. فتحته. عفنٌ أخضر وأسود يكوّن طبقةً بسُمك إصبع، انتزعتها وقرّبت الوعاء من أنفها. لم تكن واثقة من أنّ ذلك الشيء يؤكَل، لكنّها التهمته بكلّ الأحوال. اللحم بلا مذاق، لكنّه أخرس جوعها قليلًا.

على أحد الرفوف، بجانب عبوات القهوة، وجدت قنّينة عرق نونينو. حملتها معها إلى غرفة النوم، وضعت القنديل على الدُّرج، ونزعت حذاءها واستلقت بوسادتين خلف ظهرها. اجترعت من العرق جرعتين هبطتا ساخنتين وجافّتين في حلقها.

لمست الأغطية المكويّة جيّدًا فوق الفراش. «مثل الباشوات» قالت في نفسها.

عندما كان أبوها يأتي في مساء السبت من باليرمو لزيارتهم، كان يجلب معه دومًا حلوى الكاساتا والبطاطس المقليّة وكرات الأرانتشوني من مخبز «ماسترانجيلو». وكان يسمّيه العشاء المتوحّش، ولا بدّ أن يؤكل باليدين من الإناء الورقيّ مباشرةً، قعودًا حول الطاولة الصغيرة. وبعد ذلك يحملها أبوها إلى السرير ويغطّيها بالشراشف.

«اضغط بقوّةٍ أكبر!»

«لكنّك ستختنقين هكذا»

«أكثر، أكثر. يجب ألّا أتحرّك».

يضع والدها يديه تحت الفراش. «هكذا أفضل؟» يقبّلها «والآن بتِّ مثل الباشوات فعلًا. نامي جيّدًا». ويطفئ الضوء ويترك الباب مواربًا.

كانت شعلة القنديل تحترق مصدرة هسيسًا، والضوء الأبيض يبلّل إطارًا فضّيًا موضوعًا على الدُّرج. أخذته وأمعنت في النظر إليه.

الطبيب ميتزوباني في الصورة مرتديًا لباسًا أنيقًا بربطة العنق المرقّطة، يشبك يده بيد سيّدة على رأسها قبّعةٌ من القشّ.

أعادت الصورة إلى مكانها وأخذت تدور حول نفسها بعينين مغمضتين، فتصطدم بالجدران وتسحل قدميها على الموكيت إلى أن تحميا.

فتحت الخزانة الكبيرة. ثمّة مرآة على إحدى دفّتيها.

رسم لها الخمر ابتسامة بليدة على شفتيها. نزعت كنزتها وفتّشت ما بين الثياب المعلّقة. نسائيّةٌ في معظمها. للسيّدة ذات قبّعة القشّ، أغلب الظنّ. أخرجت الثياب ورمتها على كرسيّ. لم ترقها، ملابس امرأة عجوز. لكنّ بينها ثوبًا أرجوانيًا، قصيرًا، مكشوف الظهر، سوى أنّه فضفاضٌ عليها. جرّبت كنزة حمراء ضيّقة وتنّورة سماويّة تصل حتّى كاحليها. وجدت الأحذية مرتّبة على أحد الرفوف السفليّة. جرّبت حذاء من الساتان الأسود عالي

الكعبين ومطرّز بالبوارق على رأسه. نظرت إلى نفسها وهي تفتل كراقصة الباليه. كانت بالكاد ترى نفسها في ذلك الضوء الخافت، لكنّها بدت راضية.

مثاليةً من أجل سهرة.

استرخت على السرير. فتفجّرت إحدى الذكريات في رأسها مثل فقاعة صابون.

«كم أنتِ مغرورة يا آنّا!»

كانت طفلةً صغيرة، تقف على قدميها قبالة المرآة بذراعين قائمتين وساقين منفرجتين. ترتدي ثوبًا مرسومًا بالأزاهير هديّةً من جدّتها. والقوس الجلديّ يثبّت شعرها القصير. وكانت أمّها جالسة على السرير بجانب الألبسة المكويّة تهزّ رأسها باستمتاع.

استطاعت أن تشمّ رائحة المكواة المستعرة والمسنودة إلى اللوح، ورائحة البخّاخ الحلوة. نهضت وترنّحت حاملةً القنديل بيدها مواربة العينين حتّى المكتب. وجدت مجلّدًا أخضر كبيرًا بين الكتب: قاموس اللغة الإيطاليّة. كانت ثملةً لدرجة أنّها استصعبت فهم الكلمات الصغيرة المكتوبة.

واستغرقت أبديّةً بحالها، لكنّها في النهاية توصّلت إلى ما كانت تبحث عنه. هجّأت بصوتٍ عالٍ: «مغرور. صفةٌ لشخصٍ يدّعي امتلاكه مواهب جسديّة وعقليّة، ويتفاخر بها لاكتساب مزيدٍ من الثناء والإعجاب».

- هذا صحيح. أنا مغرورة.

عادت إلى الغرفة، نزعت الثياب عنها وغطست بين الشراشف. دوّرت عجلة القنديل، فتناقص الضوء وانطفأ بنفخةٍ واحدة.

بانغ. بانغ. بانغ.

ما هذا؟ بوّابةٌ تُفتَح؟ دقّةُ نافذةٍ تخلخلها الريح؟

خفق قلب آنّا على وقْع صوتٍ مدوٌّ يهتزّ على إثره السرير والبلاط.

بانغ. بانغ. بانغ.

الضربات منتظمة وميكانيكيّة.

الأطفال الزرق. يحاولون الدخول.

نهضت ونزلت عن السرير وتقدّمت نحو باب الغرفة التي كانت دعائمها ترتعش. وبعد تردُّدٍ وجيز أمسكت المقبض وفتحت حيّزًا من الباب.

كان الضياء السماويّ يصبغ الجدار المقابل والبلاط. بات الدويُّ أعلى حتّى أعاقها عن التفكير.

تجمّدت ساقاها من الرعب. اقتربت من الصالة فإذا بصرها يُعشى بوابلٍ من الضوء الذي يقطع السقف ويومض على بلّور خزانة زجاجية ملأى بالكؤوس والميداليّات، واللوحات على الجدران، والصندوق المذهّب لمقياس الضغط الجويّ. برز صوتٌ من بين الضجّة.

استندت آنّا إلى الحائط، لم تعد تتمكّن من المواصلة. شعرت أنّها مكسوّة بالنمل.

الصوت صادرٌ من التلفاز.

«أحدهم يضحك. أحدهم يبكي. كثرٌ مستلقون على الأرض. وكثرٌ يحاولون الصعود على متن السفينة بتسلُّق جوانبها»، يقول الرجل.

كانت آنّا في وسط الغرفة. أضواء الثريّا تومض في الآن ذاته مع ظلّ المصباح المكتبيّ، وأرقام الصّفر الأحمر للساعة تنبض كعين حيوان مفترس متربّص في الظلمات. وعلى الشاشة مشهدٌ بالأبيض والأسود: آلاف الرجال متجمّعون على رصيف مرفأ، وخلفهم تتصاعد أعمدة الدخان التي تغطّي الرافعات والحاويات.

بانغ. بانغ. بانغ.

كانت الأريكة المقابلة للتلفاز تنفتح وتنغلق وتزمجر وتهتزّ مثل فكّ وحشٍ ميكانيكيّ. وجثّة الطبيب ميتزوباني اليابسة تتمايل إلى الأمام والوراء على الطاولة الصغيرة، ورأسه المحني على أحد جانبيه ينزلق على بلور الطاولة، فيجرُّ معه فكّه السفليّ، وعيناه الجاحظتان والبيضاوان كالبيض المسلوق تحدّقان إلى آنا.

استمرّت بالصياح بينما تفتح عينيها وتمتصّ هواء الغرفة الساخن والجافّ بشهقةٍ واحدة.

كانت الشمس تتسرّب عبْر الدفّات الخشبيّة لترقّط الجدران والسرير والموكيت بنقاطٍ مضيئة. والعصافير تزقزق.

انتبهت أنّها كانت تتصبّب عرقًا. بدا لها أنّهم أخرجوها من تحت كومةٍ من الرمل الرطب والساخن. استعادت أنفاسها المنتظمة شيئًا فشيئًا.

كان قد حدث لها ذات مرّة أن حلمت بأنّ الكهرباء تعود فجأة، وكان ذلك كابوسًا مرعبًا، يرهبها أكثر من الكوابيس التي يعود فيها الكبار ليأكلوها.

نهضت عن السرير. ما زالت نكهة العرق الحلوة تعربد في فمها. وجدت داخل ركن المكانس، خلف الغسّالة، دلوين

بلاستيكيّين مليئين بالماء الخالي من المذاق كالمطر. ارتدت بنطلونها القصير وكنزةً بيضاء كُتِبَ عليها «Paris, je t'aime أحبّكِ يا باريس»، وأخذت حقيبتها وغادرت.

كانت جثّة ميكيليني في مكانٍ ليس ببعيد عن الطريق، رأسه المكوّرة غارقة في الحشائش ويداه مغلولتان في التراب. كنزته المبرومة حتّى كتفيه تكشف عن ظهره الشاحب المكسوّ بالبقع الحمراء. سرقوا منه حذاءه.

وفي القرب، وسط الحقلة، تبرز بين أعواد القشّ جثّة طفل أزرق.

تساءلت آنّا إن كان من الأجدى أن تعود إلى الميني ماركت وتسطو عليه. كلا، يجب أن توصل الأدوية إلى أستور، وقد تعود مرّة أخرى إلى المتجر من دون عجالة.

سارت نحو المنزل.

هبّت نسماتٌ خريفيّة، سيتغيّر الطقس قريبًا. كانت سعيدة. حصلت على المضادات الحيويّة. كما أنّ الأغذية في محلّ ميكيليني ستكفيها وأخاها سنةً كاملة على الأقلّ. وحالما تهطل الأمطار سيتوافر لديهما الماء أيضًا.

لم يعد لديها أيُّ عذرٍ آنذاك، ينبغي أن تعلّم أستور القراءة جيّدًا.

.4

أصيبت ماريّا غراتزيا زانكيتّا بالمرض بعد ثلاثة أيّام من أعياد الميلاد، وتوفّيت في مطلع يونيو، وفي أثناء ذلك ما فتئت تردّد على مسامع ابنتها بضرورة تعليم شقيقها على القراءة.

وفي أسابيعها الأخيرة، إذ أنهكتها الحمّى والتجفاف، سقطت في حالةٍ من الخدر لا تصحو منها إلّا بالهذيان: لا تريد أن تفوتها رحلة التلفريك... في البحر كثيرٌ من الهلاميّات... الأزهار التي تنمو على سريرها تخزها. لكنّها في بعض الأحيان، ولا سيّما في الصباح، تراودها ومضاتٌ من صفاء النفس، فتمسك يد ابنتها وتتمتم بالأشياء ذاتها التي لم يتمكّن حتّى الفيروسُ من محوها من ذهنها.

يجدر بآنّا أن تتصرّف بحكمة، وأن تتولّى أمر أستور، وأن تعلّمه القراءة، وألّا تضيّعَ دفتر الأشياء المهمّة.

- عديني! – كانت تلهث وتستحمّ بعرقها.

- أعدكِ يا أمّاه. – تجيب آنّا جالسةً بجانبها.

تهزّ ماريّا غراتزيا رأسها وتوارب عينيها المحقنتين بالدماء.

- مرّةً أخرى!

- أعدكِ يا أمّاه.

- أقوى!

- أعدكِ يا أمّاه!

- احلفي!

- أقسِم لكِ!

لكنّ الأمّ لا تبدو راضية.

- لن تصوني وعدكِ... أنتِ...

فتعانقها آنّا وتشمّ رائحة العرق والمرض الحادّة التي لا صلة لها بالرائحة الشذيّة، رائحة الصابون، التي لطالما فاحت من جسم أمّها.

- سأصون وعدي يا أمّاه. سأفعل.

وفي أسبوعها الأخير فقدت الوعي تمامًا، فأدركت البنت أنّها توشك على الرحيل.

وذات مساء، بينما كان الشقيقان يلعبان في الغرفة، فتحت ماريّا غراتزيا شدقيها، جحظت عيناها ومدّدت أطرافها كما لو أنّهم وضعوا فوقها جبلًا برمّته. هجرتها التكشيرةُ التي تشوّه وجهها، واستعادت ملامحها.

هزّتها آنّا، وشدَّت على يدها وقرَّبت أذنها من أنفها. ما من أنفاس. أخذت دفتر الأشياء المهمّة من فوق الطاولة وتصفّحته برفق. كان يغصّ بالفصول: المياه، البطّاريّات، النظافة الشخصيّة، النار، الصداقات. وفي الصفحة الأخيرة كُتِبَ ما يلي:

ما الذي ينبغي فعله عندما تموت ماما

عندما أموت سأصبح أثقل من استطاعتكِ على حملي إلى خارج المنزل. آنّا، افتحي النوافذ، وخذي كلَّ ما يفيدكِ واقفلي

الباب. عليكِ أن تنتظري مئة يوم. في الورقة الملاصقة لهذه رسمتُ مئة عود. عليكِ أن تشطبي عودًا في كلّ صباح. لا يمكنكِ فتح الباب ثانيةً ما لم تشطبي كلّ العيدان. لا تفتحيه أبدًا قبل ذلك. أيًا كان السبب. وإذا طفحت الرائحة الكريهة في المنزل، فاصحبي أخاكِ واذهبا للإقامة في كوخ المعدّات. ولا تعودي إلى المنزل إلّا إذا احتجتِ إلى شيءٍ ضروريّ. بعد مرور المئة يوم ادخلي إلى غرفتي. لا تنظري إلى وجهي. اربطيني بحبلٍ واسحبيني إلى الخارج. ستكون المهمّة سهلة، سترين، لأنّي سأغدو خفيفة الوزن. اسحبيني إلى الغابة، أبعد ما تستطيعين، إلى مكانٍ يعجبكِ، وراكمي فوقي الصخور. نظّفي غرفتي جيّدًا بالكلور. تخلّصي من الفراش. وحينذاك بإمكانكما العودة إلى المنزل.

أشرعت آنّا النوافذ، أخذت الدفتر، والألعاب، وحكايات أوسكار وايلد، وقفلت الباب كما أُمِرَت.

وفي الأيّام التالية أمضت وأخوها معظم الوقت في الهواء الطلق. وكانت ترهن نفسها لأستور طويلًا، لكنّه ما إن يغفو حتّى تركض إلى الطابق الأعلى، وتقف عند الباب وتسترق النظر من ثقب القفل إلى الداخل. فلا تستطيع رؤية شيء سوى الحائط المقابل.

ماذا لو أخطأت؟ ماذا لو أنّ أمّها لم تمت؟

كان يُخيَّل إليها أنّها تسمعها وهي تتوسّل بصوتٍ مبحوح: «آنّينا، آنّينا... لستُ بخير... افتحي الباب. إنّني ظمآنة. أرجوكِ...».

فتُخرِج المفتاحَ عندئذٍ وتقلّبه بين يديها، وتسند رأسها إلى حافّة الباب. «ماما، إنّني هنا! اصرخي إن كنتِ حيّة. أنا هنا خلف الباب. سأدخل. لا تقلقي، لن تثيري اشمئزازي. سأدخل لحظةً واحدة، أنظر، وإن كنتِ ميّتة أقفلتُ البابَ على الفور. أعدكِ».

وبعد فترة، بينما كانت هي رشقيقها في البستان، هبط ثلاثة غربان على شرفة غرفة أمّها. كانوا ينعقون مسرورين ومصطفّين بعضهم بجانب بعض.

حملت آنّا من الأرض حجرةً ورمتها عليهم. «ارحلوا من هنا أيّها الأوغاد!» فدخلت الطيور القبيحة المتغطرسة إلى البيت بقفزة واحدة.

هُرِعَت الفتاة إلى أعلى، أخذت المفتاح وفتحت الباب كلّيًا. فدهمتْها موجةٌ نتنة، سدّت فمها لكنّ العفونة تغلغلت في حلقها. كانت الغربان الثلاثة تتبختر فوق الجثّة وتنزع بمنقرها أطرافًا من جلد الساقين. طردتها آنّا، لكنّ الطيور استغرقت وقتها قبل أن تحلّق بعيدًا مستاءةً بعض الشيء.

لم تستطع إلّا أن تلقي نظرة إليها.

كانت ميّتة، لا شكّ في هذا. أضحى جلدها أصفر اللون مثل صابون الغسيل، فيما كان من جهة الفراش مدبوغًا بالأحمر الفاقع. وتوارت ملامح وجهها تحت قناعٍ مطّاطيّ، وحلّت عجينةٌ صفراء مكانَ فمها، وغرق أنفها ما بين جفنيها. وامتزج ذقنها بعنقها المقطَّب بالعروق الخضراء.

خرجت آنّا من الغرفة، وأقسمت وهي تجهش بالبكاء أنّها لن تفتح ذلك الباب أبدًا قبل مرور المئة يوم.

ومثلما ذُكِرَ في الدفتر، بات الهواء غير قابلٍ للتنفّس. انتقلت آنّا وشقيقها إلى كوخ المعدّات. وكانت تذهب إلى المنزل، مغطّيةً وجهها بقماشة، لمجرّد الإتيان بالطعام.

انقضت الأيّام ببطء شديد خلال صيفٍ لا ينتهي أبدًا، إذ استعرت صفائحُ سقف الكوخ قيظًا. وبدأ الاثنان ينامان تحت القنطرة أو على المقعد الخلفيّ للمرسيدس. وكانت آنّا في كلّ صباح تفتح الدفتر، وتشطب عودًا وتلقي نظرة سريعة إلى نافذة الغرفة، لترى أنّ الريح تنفخ الستائر البيضاء فتبدو كأشرعة السفن.

كانت تعلم أنّه ما من شيء هناك سوى جثّة، وعلى الرغم من ذلك تحلم أنّها تشاهد أمَّها خارجةً إلى الشرفة، تتمطّى وتسند مرفقيها إلى السياج. «صباح الخير يا ولديَّ، هل استيقظتما؟». «أجل يا ماما». «وماذا تفعلان؟». «ها نحن نلعب!»

وكانت أحيانًا تمضي أسابيع بطولها وهي تشطب العيدان في الدفتر، وتحضّر الطعام، وتنجز الحفر حيث تدفن الفائط، وتشاهد النجوم عبْر زجاج المرسيدس الخلفيّ، من دون أن تفكّر بأمّها كثيرًا. إلى أن حدث لها أمرٌ جميل فزلَّ لسانها بالقول: «انظري يا ماما...» فانغرست شفرةٌ حادّةٌ في قلبها مباشرة.

قرّرت أن تقضي الليلة التاسعة والتسعين في السيّارة.

خلال النهار، هبّت نسائم خريفيّة على رؤوس الأشجار. فتغطّى الشقيقان بغطاء واحد. كانت آنّا لا تنتظر إلّا اللحظة التي ستفتح فيها الباب وتتمّ الأمورُ على أكمل وجه بعد أن تُدفَنَ أمُّها.

باغتها النعاس فسقطت الطفلة بجانب أخيها وقد أنهكها التوتّر، لكنّها فتحت عينها في لحظة معيّنة. كانت الريح قد

انقطعت، وصار القمر بدرًا مكتملًا في السماء السوداء. لا هالةً تغبّش مرآه. وسكتت الغابة حتّى لم تعد تحمل أصداءَ البوم. وبدا لها فجأةً أنّها تشعر بشيء ما: صوتٌ خفيف، رجفةٌ متجمّدة، أو ربّما تنهيدة. قامت على المقعد وأغرقت أصابعها في حشوته. ومن وراء النافذة تراءى لها طيفٌ ينزل سلالم القنطرة ويمرّ بجانبها أخفَّ من الريشة. تابع الطيف مسيره على الدرب واختفى بين الأشجار كما لو أنّ الغابة كانت بانتظاره.

وفي الصباح، شطبت آنّا العود الأخير على الدفتر وقالت لأستور: «ابق هنا الآن ولا تشاكس!». دخلت إلى المنزل، وأخذت حبلًا طويلًا كانت قد أعدَّته خصّيصًى لذلك وصعدت السلالم. كانت رائحة التفسُّخ قد تبدّدت، ومع ذلك باتت تشكّل جزءًا من المنزل لا تتضايق منها. قطعت الممرّ المعتم خطوةً في إثر خطوة. سحبت نفسًا وفتحت الباب.

الأرض ملأى بأوراق الشجر، عدا ذلك كلُّ شيء على حاله: ما زال الكمبيوتر على المكتب، والمكتبة تغصّ بالكتب، ولوحة الراقصة على الحائط، والأدراج مكتظّة بالأدوية، والراديو المنبّه في مكانه. على السرير جثّةٌ متيبّسة. تلاشى الانتفاخ عنها، وعاد الجلد مشتدًا على العظام ومكسوًّا بالعفن المسوَّد. صَغُرَ حجمُ الرأس وأصبحت مدبّبة.

لم تشعر آنّا بالخوف ولا بالقرف. فذلك الشيء ليس بأمّها. أدركت الطفلة أمام ذلك الرفات أنّ الحياةَ مجموعةٌ من لحظات الانتظار. أحيانًا تكون قصيرةً بحيث لا تنتبه لمرورها، وأحيانًا طويلة بحيث لا تنقضي أبدًا. إلّا أنّ لكلِّ اللحظات نهاية سواء أتحلّيتَ بالصبر أم لا.

فوالدتها في نهاية المرض قد توفّيت، وصار جسدها خفيفًا بعد مئة يوم وبالإمكان دفنه. كما أنّ أستور، الذي يُخرِجها عن طورها ولا يكفّ عن المشاكسة، سيكبر ويعدل عن هذه التصرّفات. مسألة انتظار لا أكثر.

ربطت الحبل حول كاحلي أمّها وجذبته بقوّة. استعصت الجثّة قليلًا في البداية نتيجة التصاقها بالأغطية، ثمّ سقطت على الأرض. جرَّتها في الممرّ دون أن تلتفت إلى الخلف، ونزلت بها السلالم، وقطعت الصالون. كانت الجثّة ترتطم بالأشياء يمنة وشِمالًا، وعلقت بحافّة المدخل أخيرًا، كما لو أنّها لا تريد مغادرة المنزل، حتّى جذبتها آنّا بقوّة مرّة أخرى وأخرجتها إلى وسط الفناء. جرَّتها الطفلة عبْر غبار الغابة وأوراقها. وخلف أنقاض حظيرة الخنازير التي اعتلاها العوسج، تنهض قبّةُ شجرة التين الخضراء. تحتها ثمّة عالمٌ صغيرٌ وهادئ. ستكون ماما سعيدةً هنا، ففي الصيف تتنعّم بالفيء وفي الشتاء ترنو إلى السماء. كانت آنّا قد أعدَّت الأحجار مسبقًا. وضعت الجثّةَ بجوار جذع الشجرة، فيما كانت الثمار الساقطة على الأرض تشكّل طبقةً بنيّةً يتجمَّع عليها النمل والبعوض.

أمسكت آنّا حجرة وحطَّتها على صدر أمّها. ثمّ توقّفت. فحتّى لو ردمتها بالحجارة كانت الحشرات ستلتهمها في غضون أيّام قصيرة، ولن يبقى سوى العظم بعد أسابيع.

ماذا لو سمحت للنمل أن يتولّى شأن أمّها؟ بإمكانها أن تحتفظ بالعظام في المنزل، فالروائح لا تنبعث من العظام. وهكذا سيتسنّى لأمّها أن تعود إلى غرفتها، وأن تستلقي على سريرها

بجانب أشيائها وابنيها. كانا سيُعيدان تشكيلها بالاعتماد على الأشكال الظاهرة في الموسوعة.

جاءت بعلب المربّى وسكبتها على الجثّة قائلةً: «هاك أيّها النمل. ستعجبك النكهة هكذا أكثر. تعالوا... تعالوا على الفور... إنّها في منتهى اللذّة. نظّفوا كلَّ شيء... نظّفوا كلَّ شيء جيّدًا...»

أدّت الحشرات مهمّتها على أكمل وجه في خلال شهر. ما زالت بقايا اللحم اليابس عالقة على العظم، لكنّ آنّا لم تتوانَ عن حملها إلى الغرفة، هناك حيث نظّفتها جيّدًا بحدِّ المفكّ. وعندما انتهت جاءتها فكرة أن ترسم على العظم بالقلم الأسود الخطّاط أسطرًا ودوائرَ وأشكالًا هندسيّة أخرى. ثمّ وضعتها على السرير وأعادت تكوين الهيكل العظميّ.

سيفعل أستور بها ذلك وأكثر حالما يحين أوان رحيلها.

* * *

كانت آنّا قد هوت في بئرٍ من النعاس لا تشوبه الهواجس. بدا لها أنّها تمشي في طريقٍ يمضي في الاتجاه المعاكس. أرهقتها المطاردة، ثمّ الكابوس، وقلّة النوم أيضًا، وها هي آنذاك كالدّابّة تستمتع بالنسائم العذبة والصمت وأشعة الشمس الدافئة التي تنبض في السماء الصافية. لذا استغرقت وقتًا لتتنبّه إلى رنين الجرس، ولم تصحُ من السحر إلّا حينما سمعت من الخلف صوتًا يصيح:

- تنحّي! تنحّي! انتبهي!

استدارت فرأت درّاجةً هوائيّةً تُقبِل نحوها.

قفزت إلى مصطبة قُبَيلَ لحظةٍ من أن يدهسها الفتى ذو قبّعة الكوبوي على درّاجة ماونتن بايك برتقاليّة.

مرّ الدرّاج بجانبها، يشدّ بقبضتيه المكابح التي دوّى صريرُها، لكنّ الدرّاجة لم تبطئ، فأنزل قدميه إلى الأرض وكاد يصطدم بعمود الإنارة. ترك الدرّاجة على قارعة الطريق.

- هذه المكابح فاشلة حقًا. - هزّ رأسه واستدار - هل أنتِ صمّاء؟

لا جواب من آنّا.

دنا منها الفتى.

- كدتُ أدهسكِ.

لا بدّ أنّه في عمر آنّا تقريبًا، لكنّه أطول منها بعشرة سنتمترات، ناهيك أنّه كان بتلك القبّعة المضحكة يبدو كحبّة الفِطر. هزيلٌ ورشيق، وجهه مسفوعٌ بالشمس وعيناه المتوقّدتان بلون البندق.

ما الذي يحدث؟ كان السهل خاويًا على عروشه في ذلك العام، فإذا هي في خلال يومين اثنين تلتقي بالأطفال الزرق أوّلًا ثمّ هذا.

نزلت آنّا عن المصطبة واستأنفت سيرها.

لحق بها الدرّاج.

- انتظري لحظة.

آنّا تواصل المشي وتشعر بأنظار الفتى عليها. التفتت متأفّفةً:

- ماذا تريد؟

- لا داعي للخوف منّي.

رأت آنّا ملامح البلوغ تتبدّى على وجهه الصبيانيّ، وفكّرت أنّه قد يصبح رجلًا وسيمًا إذا كبر.

- لستُ خائفة، أنا مستعجلة.

تجاوزها الفتى وتوقّف في وجهها.

- إن كنتِ ذاهبةً إلى الحفلة، فلا جدوى، محض هراء.

وضعت آنّا يديها على خاصرتيها.

- أيُّ حفلة؟

- في فندق ينابيع إليزة. كلُّ سكّان صقلّية ذاهبون إليها. سيحرقون البشردونة.

- لماذا؟

- ليأكلوا رمادها. يقال إنّها تشفي من الحمراء.

ابتسمت آنّا، فبحسب رواية ميكيليني كان ينبغي تقبيلها من فمها.

- لقد ذهبتُ إلى هناك، ولم أرَ البشردونة قطّ. - تابع الفتى. نزع قبّعته بحركةٍ فروسيّة وقدَّم نفسه. - اسمي بييترو سيرّا. وأنتِ، ما اسمكِ؟

- آنّا.

فَطِنٌ.

وردت على بالها تلك الكلمة الغريبة التي كانت أمّها تردِّدها كلّما ذهبت إلى الكشك ونظر إليها البائع كما لو أنّها شوكولاتة تنتظر مَن يأكلها.

من الأفضل أن تسلك طريق الحقول إذا أرادت التخلّص منه.

- حسنًا، أنا ذاهبة. - مشت بضعة أمتار فإذا الجرس يرنّ ثانيةً من خلفها والفرامل تزعق.

توقّف الفتى بجانبها.

- آنّا، هلّا أعطيتِني الماء من فضلكِ؟

رأت عنقَ زجاجة مربوطة بحمّالة الأغراض على الدرّاجة.

- وما هذه؟

- هذه... - ارتجل بييترو - ليست لذيذة كالتي معكِ.

انفجرت آنّا ضحكًا.

- وما أدراك؟

- أعرف، أعرف. - مدّ الفتى ذراعه نحو حقيبتها - هيّا، رشفة واحدة...

تنحّت الفتاة.

- كلّا! قلت كلّا!

- إن أشربتِني قليلًا أوصلتُكِ بنفسي.

كان الفتى الواثق من نفسه أكثر من اللازم يثير أعصابها. تضايقها طريقتُه في النظر إليها.

- لا يمكن ركوب الدرّاجة لشخصين.

- ومَن قال ذلك؟ اجلسي هنا، على القصبة.

تردّدت آنّا قبل أن تجيب: - لا أحبّ الدرّاجات. ثمّ إنّني لا أودّ الذهاب معك.

- أرأيتِ أنّك خائفة؟

- لستُ خائفة إنّما... - شدّت آنّا قبضتيها غاضبةً.

-...إنّما مستعجلة. - أنهى بييترو.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر دون إيجاد ما يضاف.

فقطعت الفتاة الصمت: - وداعًا إذن.

- وداعًا آنّا.

* * *

آنّا وقبّعةُ الكوبوي على رأسها، تصيح ممسكةً مقود الدرّاجة. كانت الريح تنزلق على وجهها فيترقرق الدمع في عينيها عندما كانت في صغرها تُخرِج رأسها خارج نافذة المرسيدس.

بييترو يدوس بسرعةٍ فائقة.

- ها، ما رأيكِ؟ جميلة؟

كانا متضامّين يتقدَّمان في دربٍ يقطع الحقول كالمسطرة، فيما تجري على الجانبين أعمدةُ الإنارة والصبّار.

- أجل. - قالت آنّا مع أنّ القصبة تتعب ردفيها، إضافة إلى أنّها مذعورة تخشى السقوط. وكلّما لمسها بييترو بذراعيه ارتعشت وفكّرت في أن تتنحّى لكنّها لا تستطيع.

واجه بييترو منعطفًا من دون أن يخفّف السرعة، فصرخت آنّا وأغمضت عينيها. وعندما فتحتهما كانت في أمان.

- خفّف سرعتك عند المنعطفات. ثمّ أسرِعْ في الطرق المستقيمة.

- أسرع من هكذا؟ - لهث الفتى وتبلّل جبينه بالعرق. - إلى أين تريدين الذهاب؟

- إلى تورّي نورمانا. هل تعرف موقعها؟

- أجل، ولكن هل لي أن أخفّف السرعة؟ أكاد أموت. لحسن الحظّ أنّك لا تحبّين ركوب الدرّاجة.

- أحبّ أن يصفق الهواءُ وجهي.

- هل ركبتِ درّاجة ناريّة؟ ياه كم ستشعرين بالهواء عليها! إن فتحتِ فمكِ انتفخت وجنتاكِ.

- ركبتُ الفسبا مع سالڤو، الشابّ الذي يوصل الأغراض إلى البيت.

- كان لدى والدي درّاجة ناريّة من طراز ليفاردا يوتا. - سرح بييترو في البعيد وهزَّ رأسه - برتقاليّة كهذه الدرّاجة. سأعثر على واحدةٍ غير معطّلة عاجلًا أم آجلًا. وسأقودها.

- وكيف لا... - انفجرت آنّا بضحكتها العميقة.

لكنّه كان متيقّنًا: - سأفعل.

تابعا بقيّة الرحلة في صمت. وكانت أنقاض توزّي نورمانا تتضخّم مع كلّ دوسة. سارا بجانب حطام سيّاراتٍ انتهت خارج الطريق، وحاويات قمامة مقلوبة، وبقايا حانةٍ عليها لافتةٌ تقول «مقليّات أرانتشوني سفريّة».

كان لدى آنّا انطباعٌ أنّه يضيّق عليها، لكنّ الأمر لم يكن يؤسفها في الحقيقة. ظلّت ثابتةً وصدرُ الفتى يحتكّ بظهرها.

توقّف بييترو عند لافتة القرية.

- هنا يناسبكِ؟

- أجل. - قفزت آنّا عن الدرّاجة ودلّكت مؤخّرتها المتألّمة. أخذت حقيبتها عن حمّالة الأغراض وأرجعت إليه قبّعته. - شكرًا. وداعًا إذن...

ابتسم بييترو ورفع يده: - وداعًا.

تودّعا عشرين مرّة، لكنّه ناداها بعد عشر خطوات: - آنّا.

يريد قبلة.

التفتت: - ماذا؟

أخرج بييترو من سترته صفحةً من مجلّة مثنيّة بأربع طيّات، ومهترئة ومجعّدة.

- هل رأيت مثل هذا من قبل؟

في وسط الورقة ثمّة صورةٌ مطوّقة بالخطّ الأحمر، صورةٌ باهتةٌ لحذاءٍ رياضيّ من الكشمير الأصفر ومخطّط بثلاثة خطوط سوداء. «أديداس هامبورغ، 95 يورو». وبجانبها صورٌ أصغر حجمًا. المقال بعنوان: العودة العظمى للموضة الرياضيّة.

رفعت الفتاة عينيها: - هل تقصد الحذاء المشار إليه؟

- أجل. هل رأيتِه من قبل؟ فكّري جيّدًا.

- لا أظنّ. - نظرت إلى حذائها، المتّسخ كليًّا.

- هل أنتِ واثقة؟

لم تفهم آنّا إلى ماذا يرمي. لا بدّ أنّه مولع بالأحذية. غريب، كان ينتعل حذاء رثًّا وبائدًا.

- هل يعجبك كثيرًا؟

تردّد بييترو قليلًا، كما لو أنّ الثقة تنقصه، ثمّ قال:

- أجل. أبحث عنه منذ زمن طويل.

ركّزت آنّا بصرها عليه باستغراب، ثمّ قالت: - بالتوفيق إذن.

ركل بييترو حجرة صغيرة.

- اسمعي، هل أصابتكِ الحمراء؟

- كلّا. وداعًا. - وانطلقت.

نظر إليها بييترو وهي تبتعد.

- ولا أنا. - صاح.

* * *

«لا أصادف إلّا مجانين» آنّا تحدّث نفسها وهي تقطع الدرب المؤدّي إلى المنزل بسرعة «واحدٌ يقضي وقته بالبحث عن حذاءٍ... وقبيحٍ فوق هذا».

فكّرت بأمر الحفلة. من يدري إن كان للبشردونة وجودٌ حقًا. قيلت آلاف الأساطير عن كيفيّة معالجتها الحمّى الحمراء. وكثيرٌ ممّن قابلتهم آنّا كانوا متيقّنين من وجود كبارٍ على قيد الحياة، نجوا من الوباء، يعيشون في محافظة كالابريا، ما وراء البحر. يختبئون في ملاجئ تحت الأرض، ويكفي أن يعثر عليهم المصابُ حتّى يُشفى. وآخرون مقتنعون أنّه عليك أن تغطس تحت الماء برفقة دجاجة وأن تبقى هناك حتّى تموت، فتُشفى لأنّك تنقل إليها الفيروس. وهناك مَن يعتقد أن خلط الطعام بالرمل ضروري، أو الصعود إلى جبلٍ قرب كاتانيا تولد منه الغيومُ. أقاويل كثيرة، والحال هذه. لكنّ آنّا ليست واثقة إلّا من أنّها رأت آلاف الكبار يستحيلون إلى كومة عظام، ولم تلتقِ البتّة بأحدٍ تجاوز عامه الرابع عشر.

* * *

اتّجهت إلى المطبخ مباشرة، أخذت عبوة الصلصة عن الطاولة، فتحتها بالسكّين، وأخرجت بإصبعين حبّة طماطم رطبة وابتلعتها وهي تصيح: - أستور، لقد عدتُ. كيف حالك؟

أكلت قطع بسكويت قديمة بنكهة العفن، ثمّ سكبت البقايا الزيتيّة من علبة تونة في عبوة الصلصة وارتشفت في حين بدأت تقطر عرقًا. كان الطقس في الخارج منعشًا، لكنّ الحيطان الحجريّة العتيقة تختزن القيظ في الداخل.

- عثرتُ على المضادات الحيويّة! - أخذت حبّة طماطم أخرى من العبوة وقطعت الصالون.

ثمّة كرسيٌّ أبيض بجوار السلالم، وإحدى رجليه محطّمة.

- اللعنة! لقد كسرتَ كرسيّ ماما. - صعدت إلى الطابق الأعلى وكان ذقنها ملطّخًا بحمرة الصلصة، اجتازت الممرّ المعتم ودخلت إلى الغرفة. - أوه! هل سمعتَني أقول إنّني عدتُ؟

كلُّ شيءٍ مُلقًى على الأرض. كتاب الحكايات في بركة ماء. حملته وحرّكت رأسه ووضعته على الدُّرج.

في كلّ مرّةٍ تتركه وحيدًا، يرتكب أستور فعلة. لكنّه بالغ كثيرًا هذه المرّة، سيدفع الثمن. بدا لها أنّه يتعمّد الشغب لكي يعاقبها.

أطلّت من الشرفة. نادته مرّتين، ثمّ دخلت. إن كان قد خرج فهذا يعني أنّ صحّته تحسّنت.

ما زالت جائعة. لعلّها تتناول مرطبان البازلاء. اتّجهت إلى أسفل وهي تفكّر في فتى الدرّاجة. من يدري إلى أين ذهب؟ ربّما توقّف في تورّي نورمانا.

كان شعاع الشمس يتسرّب من بين الكراتين الملصقة على النافذة ويرسم خطًّا منيرًا على الأعتاب، وعلى كومة الأغطية، وعلى قبّعة حمراء. حملتها. على مقدّمتها مكتوبٌ «نوتيلا». قلّبتها بين يديها وقرّبتها من أنفها.

تراءت لها جثّة ميكيليني ملقاةً إلى جانب الطريق. يداه تشدّان الحشائش، وساقاه منفرجتان، ورقبته...

عادت إلى ذهنها صورةُ الأطفال الزرق وهم يبتعدون على الطريق والفتاةُ الطويلة تعتمر قبّعة حمراء.

انتفض قلبها في صدرها، وتركّزَ كلُّ العالم حولها فسقطت في بئر الفزع. نزلت من جديد، وهي تشعر بدمائها تفور في صدغيها. وكأنّها لم تواجه سُلّمًا في حياتها، كانت تطأ بقدمٍ تلو الأخرى على الأعتاب التي تتأرجح في ظلمةٍ خافقة.

خرجت إلى القنطرة. حجبت بيدها قرص الشمس الآخذ بالاتّساع والانقباض في كبد السماء الغبشاء.

أسـ... أسـ... أستور. – كانت تحاول أن تنادي أخاها، لكنّ رئتيها تفرَّغتا من الهواء. وعادت حموضة الطماطم اللاذعة إلى فمها. قاومت دافع التقيّؤ وحصلت على قليل من الأنفاس. – أسـ... أسـ... أستور...

لم يكن في المرسيدس ولا خلف الصناديق.

قد يكون في الغابة.

هناك صقرٌ بنيٌّ يحلّق عاليًا ويسدّد أبصاره نحو شيءٍ متوارٍ بين الأشجار.

غاصت بين النباتات وداست على حجارة وأغصان يابسة. أجمات الآس الشائك تخدش ساقيها، لكنّها لم تحفل بذلك.

وجدت بقعة بنفسجيّة تبرز فوق الخضرة. اقتربت. كانت قطعةً من قماش، انتزعتها من بين الأشواك.

هذا ثوب أمّها. ثوبها الجميل.

ما الذي يفعله هناك؟ كانت آنّا تعلم أنّ لدى أستور مفتاحًا مخفيًّا يستخدمه لدخول الغرفة حينما تكون غائبة. ولكن لماذا رماه وسط العوسج؟

ترنّحت فاستندت إلى جذع شجرة. شهقت أنفاسها، ووسّعت حدقتيها، وندهت على أستور بصوتٍ أعلى، فبُحَّ صوتها، ولكنْ ما وردها جوابٌ إلّا من عصافير الشجر.

وصلت إلى حدود أرضها، مرورًا بجانب سنديانة عملاقة يحبّ أخوها تسلُّقها كثيرًا. وراحت تتّبع الشباك، لكنّ أنظارها لم تقع

على شيء. وما زال الأطفال الزرق يتراءون لها وهم يركضون كالكلاب المسعورة.

وصلت إلى حظيرة الخنازير القديمة التي سحقها العوسج. لم يكن هناك حتّى. ولا تحت شجرة التين أيضًا.

حدّدت نطاق بحثها خلف المنزل حيث يستمتع أخوها بالنبش أحيانًا.

سقطت على ركبتيها وهي تلهث. اهدئي... - قالت لنفسها - اهدئي...

قد يكون هذا الأحمق في أيّ مكان، غافيًا في جُحر حيوانٍ ما، أو متسلّقًا رأس شجرة، أو على سطح المنزل.

ربّما استطاع أن يهرب.

كلّا، لن يتجرّأ على اجتياز الحدود أبدًا.

جلست عند شجرة تفرك وجهها بيديها، وذهنها يهيم في هواجس مرعبة. والعرق الساخن يقطر من إبطيها.

الغابة، غابتها المسحورة، تحيط بها من دون أن تقدّم لها أجوبة.

- أين أنت؟ تعال إلى هنا. - تمتمت، واستعادت صيحتها الحادّة: - أستور! أستور! أين أنت؟ سأقتلك حالما أعثر عليك! - اتّجهت نحو المنزل. قد يكون لديها قبّعة كتلك تمامًا. ففي خلال تلك الأعوام جلبت إلى المنزل أشياء من شتّى الأنواع، وربّما كان بينها قبّعة نوتيلا نسيت أمرها.

يا للغباء، كيف نال منها الفزع! أخوها نائمٌ في مكانٍ ما. لم تبحث عنه في كوخ المعدّات ولا في غرفة أمّها. إنّما هُرِعَت إلى الخارج كالمجنونة من دون أن تتبيّن جيّدًا.

اجتازت سياج البقس فدلفت إلى الدرب المؤدّي إلى مدخل الأرض. مرّت بجانب شيء أبيض ومدوّر ينتأ من بين الحشائش. توقّفت، عادت إلى الخلف، أمسكته بيدها وكاد يُغمى عليها.

كانت تمسك جمجمة أمّها.

امّحت كلُّ الأفكار من رأسها، وطافت مثل كيسٍ من عظم ولحم حتّى المنزل. سجّلت عيناها كيف أنّ الأطباق بدلًا من أنً تكون في الخزانة كانت على الأرض. سيّارة أستور اللعبة كانت مقلوبة هناك، وآلة المندولين الموسيقيّة مهشّمة. وضعت الجمجمة على إحدى العلب وصعدت السلالم.

باب غرفة أمّها مواربٌ والقفل المعدنيّ متهالكٌ بين شظايا الخشب المثلّمة.

* * *

انجلى عن كاهل آنّا كفنُ الألم الذي حجّر ذراعيها وساقيها وماج بها بين أهداب اليقظة والنوم. أشعلت شمس الصباح جبينها وأحرقت عينيها. كان أحد خدّيها غائصًا في القيء الجافّ وبجانب أنفها زجاجة جِنْ فارغة. حرّكت لسانها المنتفخ الذي يدخل فمها بمشقّة بينما يهتك إحساسٌ حادٌ كالمثقب صدغيها من جانبٍ إلى آخر. لم تذكر كيف انتهى بها المطاف إلى المقعد الخلفيّ لسيّارة المرسيدس.

مرّت ساعاتٌ منذ أن رأت باب غرفة أمّها مخلوعًا، ولا تذكر منها سوى آثارٍ باهتة، وشراذم ولحظات ألم. كلّ شيء محتجبٌ بهالةٍ داكنة تتخلّلها ومضاتٌ متفجّرة تسلّط الضوء على نسختين منها: آنّا التي تصارع خائبةً، وآنّا التي تراقبها صامتةً. والخيط الذي يجمع الصور معًا انقطع في تلك الليلة، فعامت لآلئُ الذاكرة هائمةً في بحرٍ من نفطٍ أسود ودبق.

دُنِّسَت غرفة أمّها. وبُعثِرَت عظامها في كلّ مكان. وسُرِقت مجوهراتها. وانتُهِكَت خزائنها. ورُمِيَت كتبها. ودمية أستور الزرافة: مزَّقت رأسها بالعضّ والنهش، وما زالت تشعر بمذاق حشوتها المصنَّع في فمها. لكمت مرآة الحمام، فتجرَّحت براجم يدها، وتبرَّمت نازفةً في الستائر. وامتصّت شفتاها المفتوحتان القماشَ الرقيق. قنّينة الجِنّ. البكاء بلا دموع، والشهقات الحادّة كورق الزجاج. رائحة المسك الترابيّة. الورقات التي تخشخش على وقْع أنفاسها. ثوب أمّها البنفسجيّ.

وما تبقّى عناءٌ يعبّئها ويفيض منها كالماء من إناءٍ ممتلئ.

ارتخت على المقعد وظلّ رأسها ملتصق بالنافذة تحدّق إلى يدها الجريحة.

كان لديها حدسٌ بأنّ كائنًا حيًّا كان في تلك الليلة مختبئًا يراقبها من تحت الظلام في الغابة.

كلب الأوتوستراد.

لا بدّ أنّها حلمت به، مع أنّ ذكراه كانت أكثر حيويّةً من بقيّة الذكريات.

الكلب بجانبها. يقعي ويكنس الأرض بذيله الضخم. كان يتحدّث إليها. – آنّا، هل تعرفين تلك الأنشودة؟ هلمّوا يا أطفال إلى النافذة للاحتفال، فالرجل الأسود مات ودفنوه في المقبرة! انقضى فصل الخوف، وسنبدأ حياةً جديدة. فانزلوا أيّها الأطفال، فالرجل الأسود مات! – كان ينظر إلى عينيها بحدقتيه الداكنتين.

– هل أطفئ الضوء لكي تنامي؟

كان والدها آنذاك يغطّيها. – تفضّلين أن يبقى الباب مواربًا، صحيح؟

الفصل الثاني

فندق ينابيع اليزة الكبير

.5

قرّرت آنّا ساليمي أن تبحث عن الأطفال الزرق. فحالما تعثر عليهم، تعثر على شقيقها أيضًا؛ إذ إنّها لم تستسغ فكرةَ أنّه قد مات.

هجرت أرض التوت في الثلاثين من أكتوبر عام 2020 بلا رجعة. ووضعت في حقيبتها مشعلًا إلكترونيًا، ولّاعة، دفتر الأشياء المهمّة ملفوفًا بكنزةٍ خضراء، سكّين مطبخ، وعظمة فخذ أمّها الأيمن.

كانت الأشجار ترتجّ بزقزقة العصافير، والثعالب تحفُّ بين الأجمات، والغدفان تنعق بحدّة. وكان خارجُ الغابة رازحًا تحت سجّادةٍ من سُحُبٍ كثيفةٍ وكحليّة اللون تتلبّد كأنّها بحرٌ مقلوبٌ في خضمّ عاصفةٍ هوجاء. وكانت نفحات الهواء الساخن القادمة من الشاطئ تدفعها إلى الأمام وتعبث بشعرها. وفي نهاية السهل إعصارٌ يتكاثف فوق الجبال خلالَ أجيجِ ضوءٍ رمليّ. دوّى الرعدُ المزمجر كالمدفعيّة معطيًا إشارة البدء فانهالت الأمطار الغاضبة على الحقول العطشى التي تشرَّبتْها بصمتٍ وهي تلفظ أنفاسها الرطبة كأيّ أرضٍ محروقة.

وقبل أن تصل إلى تخوم توزّي نورمانا، وجدت آنّا نفسها مبلّلةً كلّيًا، وقدماها تتمرّغان داخل حذائها، وشعرها يدبق على جبينها، وقطعة القماش تتردّى حول يدها الجريحة.

كانت تنتظر المطر منذ أشهر، فجاء المطر آنذاك، قاسيًا وفي غير أوانه، ليزيد الطين بلّة. لكنّه قد يوقف من تحرُّك الأطفال الزرق. لعلّهم لاذوا ببيوت توزّي نورمانا.

القرية منغمسةٌ في سحابةٍ من ماءٍ يطفح من المزاريب المسدودة ويطوف على الشوارع. وقد توارت ساحةُ الريح تحت بحيرةٍ تفور على جَلدَات الإعصار.

التقط الفيضان أنفاسه قبل أن ينهال بوابل البَرَد.

لجأت آنّا تحت أقواس مطعم «أذواق أفروديت». وكان سطح الشرفة الحديديّ المموّج يرتجّ على رشقات الكريّات المتجمّدة بحجم حبّات الكرز. أخرجت الدفتر من حقيبتها. لقد وَقَتْهُ الكنزةُ، ولم ينل البللُ إلّا من أطراف الغلاف.

باب المطعم مخلوع. وفي الداخل، في الصالة الدائريّة الكبيرة، كانت الطاولات والكراسي متكوّمةً في زاوية كما لو أنَّ جرّافةً قذفت بها إلى هناك. وما زالت السبّورة على أحد الجدران متماسكةً، وقد كُتِبَ عليها بخطّ اليد: «طبق اليوم: شرائح التونة على الطريقة الميسّينيّة، 18 يورو». الثريّا تتدلّى من السقف وقد تعرّضت لاعوجاجٍ كأنّما انهالوا عليها بالعصيّ.

اتّجهت آنّا نحو المطبخ بطريقةٍ عشوائيّة كالفئران. لم يعد على الجدران من قطع القرميد إلّا ما ندر، فالقطع الأخرى تبعثرت على الأرض بأكوامٍ من فتاتٍ أبيض. الثلّاجة الكبيرة مقلوبة، ودفّاتها مخلوعة.

جثمت آنّا على ركبتيها، فتحت دُرجًا ووضعت فيه الدفتر وعظمة الفخذ. أغلقت الدُّرج وعادت إلى الخارج.

انتهى تساقط البَرَد، وناب عنه مطرٌ ناعم.

شعرت آنّا أنّها تضيّع وقتها. لا يوجد أحدٌ هناك. ربّما اتّجهوا إلى الأوتوستراد. وربّما إلى كاستيلاماري. ركلت أحد الكراسي البلاستيكيّة البيضاء.

اهدئي.

شدّت على أحزمة حقيبتها وانطلقت نحو مخرج القرية. توقّفت بعد خطوات.

هنالك درّاجةٌ برتقاليّة مسنودةٌ إلى بوّابة أحد المنازل.

* * *

كان الباب الخارجيّ مقفلًا من الداخل. إلّا أنّ في الجهة اليمنى بابًا زجاجيًا مفتوحًا على صالة الجلوس. كلّ شيء محطّمٌ هناك أيضًا: الأثاث مهشّم، كتاباتٌ على الجدران، رماد نيرانٍ استُخدِمَت لإحراق الكراسي.

صعدت السلّم المغطّى بالجير. ودخلت الغرفة الأولى. فوق خزانةٍ مزوّدة بمرآة ثمّة زوجُ بوم فتحا أعينهما البرّاقة وطارا بعيدًا. كان بييترو نائمًا على الفراش الزوجيّ المكسوّ بلحافٍ متّسخ. خصلةُ شعرٍ منفوش، وجانبٌ من جبين، وحاجبٌ ينتأ من لفافة الأسمال البالية.

لكزته آنّا على مؤخّرته برأس قدمها.

- استيقظ!

ففر الفتى فمه وأصدر حشرجةً مخنوقة. حاول أن ينهض ولكنّه إذ كان مبرومًا بالغطاء كسترة المجانين انزلق عن الفراش.

- ماذا؟ ماذا؟ مَن هناك؟ - أمسك السكّين الذي كان بجانب حقيبته وصوَّبها نحو المعتدي.

- هل رأيتَ الأطفال الزرق؟

ضيّق بييترو عينيه وعرف آنّا.

- أنتِ مجنونة. - أسقط السكّين ووضع يده على صدره - كدتُ أموت فزعًا.

- هل رأيتَ الأطفال الزرق؟

تجرجر بييترو حتّى وصل إلى الحائط واستند إليه بظهره، وفرك إحدى عينيه.

- الأطفال الزرق...

غصّت آنّا حتّى تمكّنت من الغمغمة:

- لقد اختطفوا أخي.

حدّق بييترو إلى الفتاة التي كانت قبالته، مبلّلةً حتّى النخاع تزرب ماءً.

- متى؟

- صباح أمس، على ما أعتقد. - أطلّت من النافذة - لا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا. هل صادفتهم؟

- لا. لكنّي أعرفهم. - أجاب وهو يتثاءب.

أشرق الأملُ في وجه آنّا.

- مَن هم؟

- يعيشون في الفندق. يصحبهم الأكبر سنًّا إلى الأرياف ويستعبدونهم.

- لماذا؟

تمطّى بييترو. كان يرتدي سروالًا رثًا مخطّطًا بالأصفر والأخضر وقميصًا داخليًا ضيّقًا جدًا.

- للتجهيز لحفلة النار. يحتجزون كثيرًا من الصغار هناك.

أغمضت آنّا عينيها وفتحتهما. بدا لها أنّ الغرفة حولها تتفتّت وتتركّب من جديد بسرعةٍ كبيرة: الفراش، الخزانة، الفتى ذو السروال. انتفخ صدرها وتنفّست الصعداء. أستور لا يزال حيًا. ابتلعت ريقًا.

- كيف الذهاب إلى الفندق؟

- مهلًا. - دلّكَ بييترو خدّه. - أنا في الصباح أستصعب التفكير.

انتظرت آنّا ثلاث ثوانٍ.

- كيف الذهاب إلى الفندق؟

حنى بييترو رأسه. وشدّ أنفه.

- تتّجهين تحت الأوتوستراد، وعند الدوّار تسلكين جهة الجبال. وعند نقطةٍ معيّنة تجدين لافتةً ضخمة «فندق ينابيع إليزة الكبير». تتابعين بشكلٍ مستقيم حتّى تصلين. واعلمي أنّ الطريق طويل.

تقدّمت آنّا خطوةً ثمّ وثبت إليه وعانقته.

ظلّ بييترو متحجّرًا وعالقًا، حمل مرطبان المربّى عن الأرض، وغطّس فيه إصبعه ووضعها في فمه.

- ولكن، توخّي الحذر. فذلك ليس بالمكان الجميل.

- عليّ أن أستعيد أخي. - رفعت آنّا كتفيها.

ارتشف بييترو من قنّينة الماء شبه الفارغة.

- لماذا؟

- أيُّ سؤالٍ غبيٍّ هذا! إنّه أخي.

ما زالت تمطر في الخارج، لكنّ ستار الغيوم تمزّق بجانبٍ من سماء زرقاء.

وبينما كانت تنزل السلالم ناداها بييترو.

- انتظري، ضعي عليكِ هذه. إنّها ناشفة. - رماها إليها، كنزة ثقيلة.

أمسكتها وهي تطير وقالت: - شكرًا.

* * *

ظلّت آنا تلتفت إلى الخلف مؤملةً أن يظهر الفتى على ظهر درّاجته. كانت تودّ أن يصحبها أحدٌ ما لتتقاسم معه القلق الذي تشعر بازدياده إثرَ كلّ خطوة.

جلى المطرُ الجبالَ من الضباب الذي كان يكتنفها طوال الصيف. وباتت آنذاك تبدو أقرب من ذي قبل. النقاءُ يبسط جناحيه على كلّ شيء: على خضرة الأشجار، وعلى أفواه الكهوف وأخاديد الصخر الأبيض التي تشطر الجبال كما لو أنّها حبّات طماطم ناضجة.

أستور في مكانٍ ما هناك في الأعلى.

كانت آنّا تمشي على إيقاعٍ منتظم، وذراعاها تتعاقبان على ساقيها. هواجسها تتفتّت بفعل بكرةٍ فتّالة وتتناثر في الطريق. لم تعد تلجأ إلى تمارين غير مجدية مثل عدّ أرقام السيّارات أو تكهُّن عدد الخطوات اللازمة للذهاب من هنا إلى هناك.

وجدت النفقَ تحت الأوتوستراد فائضًا. وراحت تقطعه وحذاؤها يُنقَعُ بالماء، حتّى وصلت إلى الدوّار وانعطفت إلى الطريق المؤدّي إلى جهة الجبال.

كانت الحرائق عنيفةً جدًّا في تلك المنطقة، إذ اقتاتت على سلسلةٍ من منشآتٍ صناعيّة ومستودعات الفحم. وكلُّ الأشياء التي ليست من حجرٍ أو معدنٍ أُحيلَتْ إلى رماد. فبدت هياكل السيّارات صراصير مشويّة تشغل موقفًا تشرف عليه بنايةٌ منخفضة. وعلى واجهتها بقايا لافتة ضخمة.

- بيت... تزا... ريوم - هجّأت الفتاة - بيتزاريوم.

كاد يغمى عليها من الجوع وقد تشكّلت بثرةٌ على كعبها الأيسر.

تراءت لها بقايا مصنع من خلف بوّابة حديديّة طويلة. لم يبق من المستودعات إلّا قليلًا، لكنّ الخزّانات البيضاء الضخمة نجت من الحريق. تحيط بها شبكةٌ من المواسير الصدئة التي غلّفتها الطحالب. ووصلات الأنابيب ترشح ماءً فاض في الباحة الممهّدة بالأسفلت، وحوّلها إلى مستنقعٍ تعوم عليه قطعٌ كبيرةٌ من البوليسترول.

عثرت على منفذٍ بين قضبان البوّابة وتقدَّمت مفسحةً المجال لخطواتها وسط عقدة من نباتات المستنقعات. وحامت حولها اليعاسيبُ الحمراء والبعوضُ طويل السيقان فيما كانت الضفادع تقفز بين قدميها.

تمدّدت على غطاء فيات 500، نزعت حقيبتها وحذاءها.

كانت أصابع قدميها طريّة وبيضاء كأنّها غمَّستها بالكلور.

ثقبت البشرةَ بظفر إبهامها، ثمّ نزعت الشاش عن يدها. الخدش بين البراجم غائر، لكنّ نزيفه قد انقطع. دلّكت عضلة ساقيها واستلقت على غطاء السيّارة تحت شمسٍ دافئة.

استعادت الضفادع نقيقها واحدًا تلو الآخر.

لا بدّ أنّ البيتزاريوم كان مكانًا مذهلًا. كنتَ تدخل ومعك نقود ثمّ تخرج وبيديك بيتزا ساخنة، مغلّفةً بالورق الأبيض، وجبن الموتزاريلا ذائبٌ يقطر من تحتها، وحمرة الطماطم تلذع سقف فمك. وإن لم تكن بيتزا المرغريتا تعجبك، كان بإمكانك أن تتناول بيتزا بالفطر والبطاطس والكوسا والأنشوفة.

سرحت في عالم البيتزا حتّى استغرقت بعض الوقت لتنتبه أنّ الضفادع أصيبت بالخرس فجأة. وسّعت حدقتيها فرأت كلب الأوتوستراد على مقربة منها.

كان ثابتًا، أرجله في الماء، مشدود العنق. تشكّلت في النقطة التي أدمته آنّا عندها كريّاتٌ من قشور سوداء يرشح منها سائلٌ كثيفٌ ومحمرّ، وما تبقّى من وبره كان أبيض اللون ومنتفخًا. وكان يبدو أضخم من ذي قبل، إذا صحّت الرؤية.

حبست الفتاة أنفاسها، وكان الماريميّ يلهث بلسانه المجعّد أمام أنفه الأسود.

أسندت آنّا يدها إلى الحقيبة. السكّين في داخلها. لم تتمكّن من إزاحة أنظارها عن تينك العينين السوداوين كالحصى البركانيّ اللتين كانتا تخدّرانها.

كيف استطاع أن يصل إلى هناك، ويقف قبالتها، حيًّا؟

ثنى الحيوان رأسه ولعق من الماء مرّتين وما انفكّ يوجّه أنظاره إليها.

تنفّست آنّا بانتظار حدوث ما كانت تجهله هي ذاتها، لعلّها أملت أن يختفي فقط، ثمّ قامت على قدميها فوق غطاء السيّارة، وأحكمت في الهواء قبضتها وصرخت عليه:

- ماذا تريد؟ دعني وشأني! ألم تكتفِ بما فعلتُه بك؟

تهادى الكلبُ في الطين، ودار حول نفسه مقوّسًا ظهره يمطّ إحدى أرجله كما لو أنّه يسلّم عليها، ثمّ أنهض فخذه ليُبرِزَ بطنه الورديّ والملطّخ بالسواد، ونبح بما ينمّ عن ابتهاجه.

تشوّشت آنّا.

كان ذلك الشيطان قد حاصرها داخل سيّارة وكاد يأكلها وهي حيّة، وآنذاك بدا أشبَهَ بالجراء التي تجرّهنّ السيّدات خلفهنّ بالقيد وما إن يداعبها المرء حتّى تتحوّل إلى ممسحة.

قفزت عن السيّارة.

- اذهب من هنا! هش!

وثب الكلب، وذنَبُه بين رجليه، واختفى بين أعواد القصب.

* * *

كيف استطاع أن يعثر عليها؟ ولماذا فرَّ بعيدًا عوضًا عن مهاجمتها؟

كانت آنّا تفكّر في ذلك بينما تشقُّ أنفاسها وهي تتقدّم على الصعدة التي انعقدت بين جوانب الأرض المحترقة. وكانت تلتفت بين حينٍ وآخر، واثقةً من أنّه يتعقّبها، لكنّها لا تجد له أثرًا.

شغلتها المشقّة بهواجس أخرى: لم تصل بعدُ إلى لافتة الفندق، لعلّها أخطأت الطريق. وكانت الحقيبة ثقيلة كما لو أنّها معبّأةٌ بالأحجار. - ألف خطوةٍ أخرى وفي حال لم أجد الفندق سأعود أدراجي - قالت في نفسها.

وبعد منعطفين، استشعرت بأنّها باتت على مقربة، حتّى برزت أمامها لافتةٌ ضخمة عند حافّة الطريق. واستطاعت أن تقرأ محتواها على الرغم من انغمارها براسب الدخان: «فندق ينابيع إليزة الكبير. مياهٌ ساخنة، رفاهيّةٌ مطلقة وملعبُ غولف».

رفعت قبضتها عاليًا: - صحيحٌ إذن! أحسنتَ يا بييترو!

أصبحت الحقيبة خفيفةً مثلما كانت وعادت الرشاقة تنساب على خطواتها.

وكلّما تابعت المسير ضاق الشارع. لم يعد في الأرجاء بيوتٌ، كما أنّ البقع السوداء أفسحت المجال لنضرة اللون الأخضر. أشجار الكينا محمَّلةٌ بالأوراق، وشجيرات الدفلى زاخرةٌ بالأزهار، وحقول الصبّار تشكّل حاجزًا شائكًا. مرّت أمامها بقرةٌ مسالمة، ولم تتصدّق عليها حتّى بنظرة. هناك حيث الريح لا تحمل رائحة الحريق، إنّما روائح العشب الشذيّة.

على هضبةٍ مجاورة كانت أنساقُ الكروم ممتلئةً بالعنب الذابل الذي حطّ فوقه النحلُ. ركضت آنّا لتأكل منه، ووجدت مذاقها سكّريًا بحيث اقشعرّ ظهرها. وضعت في الحقيبة عنقودين وواصلت السير.

كانت تشعر بأنّها أفضل حالًا، وللمرّة الأولى في ذلك اليوم لم تفكّر في أخيها. كانت تستمتع بالطبيعة، والشمس التي تدمغ لونَ الفضّة على رؤوس أشجار الصنوبر التي تتمايل مع النسائم.

وفي نهاية الصعدة، انفتح الطريق قبالتها إلى سلسلة هضاب تغطّيها سنابلُ القمح الأصفر وأَسَلُ الوزال حيث ثبَّتَ عليها أحدُ العمالقة عشراتٍ من العنفات الهوائيّة الشبيهة بالمراوح الدوّارة.

سبق لها أن لمحتها من جانب السهل، وكانت صغيرة جدًا يستحيل بلوغها. لم تكن تتصوّر أنّها بذلك الحجم الهائل. وربّما بالإمكان رؤية الفندق من هناك في أعلى.

العنفة الأولى لا تبدو بعيدةً جدًا، إنّما يجب المرور بحقلٍ ينحدر تدريجيًا على وادٍ صغيرٍ وضيّق ثمّ يصعد إلى القمّة. وقفت حائرةً عند حافّة الطريق، ثمّ أدخلت إبهاميها تحت أحزمة الحقيبة وانطلقت.

وجدت نفسها بعد بضعة أمتار عالقةً حتّى صدرها وسط السنابل التي خدشت ذراعيها وساقيها. وكانت الخنافس تحوم حولها. أقلع طائرُ التَدْرَجِ عن السجّادة الذهبيّة مُطلِقًا نعيبَ شؤمٍ ثمّ هبط في الجوار. استغرقت آنّا وقتًا أطول من الذي تصوّرته، لكنّها وصلت في النهاية إلى منصّةٍ مربّعةٍ تبرز في ذلك الغمار الأصفر كأنّها جزيرةٌ من أسمنت.

كان البرج من الأسفل مرتفعًا بحيث لا تُرى ذروته. وثمّة جسرٌ معدنيٌّ يفضي إلى بوّابة صغيرة اقتلعها أحدُهم من مفصلها وباتت تتأرجح متخلخلةً. ومن الداخل تنبعث رائحةٌ لا تبشّر بخير.

أخرجت آنّا المشعل وأضاءت سلّمًا حلزونيًا ضيّقًا يتلولب مثل المثقاب البرّام على مدار المبنى. وكان النمل عند العتبة الأولى يفرّغ جيفة ثعلب.

تجاوزت الجيفة وغامرت بالمضيّ على السلّم. مشت بخفّة وهي تضيء العتبات المرتفعة والمتتالية بلا هوادة في دوّامةٍ ساخنة. وما لبثت أن تصبّبت عرقًا وضاقت أنفاسها. قعدت وأسندت رأسها إلى الجانب. كان المعدن دافئًا لشدّة ما سخّنته حرارة الشمس.

لـم تتعـرّض للإرهـاق فـي حياتهـا كمـا تعرّضت فـي ذلـك اليـوم، عـلاوة علـى الحيـرة والريبـة. وقـد أعياهـا المغـص بسـبب العنـب الـذي أكلتـه.

أطفأت المشعل فأغمدها الظلام، وطمأنها.

لقد تعلَّمت منذ زمنٍ طويل ألّا تخشى الظلام.

* * *

كانـت القاعـدة بسيطة، فيلمـان فـي الأسـبوع: تقـرّر آنّـا فيلـم يـوم السـبت، وأمُّهـا فيلـمَ يـوم الأحـد، وبقيّـة الأيّـام يظـلّ التلفـاز فيهـا مغطّـىً بقطعـة قمـاش ملوّنـة، كأنّهـم يشـعرون بالعـار مـن إدخالهـم التلفـاز إلـى منزلهـم. ولكـن مـا إن انتقـل الفيـروس كسـحابةٍ مشـعّة مـن بلجيـكا إلـى هولنـدا وفرنسـا وباقـي دول العالـم، ظـلّ التلفـاز مضـاءً علـى قنـاة الأخبـار.

وبعـد أن توفّيـت أمّهـا، كانـت آنّـا تقضـي طيلـة النهـار أمـام التلفـاز. إذ إنّ دفتـر الأشـياء المهمّـة لا يذكـر شـيئًا عـن التلفزيـون، ففسّـرت الفتـاة ذلـك علـى أنّـه مسـموح. سـوى أنّ القنـوات اختفـت واحـدةً تلـو أخـرى لتخلّـف شاشـاتٍ زرقـاء. لـم يبـق منهـا إلّا قنـاة راي واحـد، التـي لا تعـرض علـى شاشـتها سـوى النشـرات. كانـوا يقولـون إنّ الخـروج مـن المنـزل ممنـوع، وإنّ الأحـكام العسـكريّة سـارية، وإنّـه فـي حـال وجـود ظـرفٍ طـارئ ينبغـي الاتّصـال بالرقـم الأخضـر للدفـاع المدنـيّ. فلـم يبـق أمـام آنّـا سـوى مشـاهدة أقـراص الـدي فـي دي الموجـودة فـي المكتبـة بشـكلٍ متواصـل.

وعندمـا تعطّلـت محطّـة الطاقـة المركزيّـة فـي غوادالامـي – وكانـت المحطّـة الأخيـرة التـي تعمـل فـي الجزيـرة كلّهـا– وانقطعـت

الكهرباء إلى الأبد عن أرض التوت وشمال صقلّية برمته، كانت آنّا مستلقيةً على الأريكة تشاهد فيلم «ضابط ورجل نبيل»، الفيلم الوحيد الذي يستحقّ المشاهدة من تشكيلة أمّها. وأستور يغفو بجانبها كالدمية.

وكانت قد وصلت إلى أكثر مشهدٍ يعجبها، عندما يذهب الجنديّ بقبّعته وبزّته الناصعة إلى المصنع ليخلّص حبيبته وسط تصفيق العاملات. أطفئ التلفاز واختفت الأرقام الزرقاء عن قارئ الأقراص. ظلّت آنّا تحدّق إلى الشاشة السوداء دون أن تشغل بالًا. ففي الأسابيع الأخيرة غالبًا ما انقطع التيّار الكهربائيّ وعاد.

لكنّ التيار لم يعد في تلك المرّة. ولّى زمنُ الضوء -على حدّ تسميتها لاحقًا- في تلك اللحظة المعيّنة تحديدًا، بينما كان ريتشارد غيير يحمل ديبرا فينغر بين ذراعيه.

انتهى النهار، وغابت الشمس، ولمّا يُضئ المصباح على شكل الزهرة بجانب الأريكة بضوئه الأصفر الباعث على الارتياح. وأصبح عصير البرتقال في الثلّاجة فاترًا. أضاءت آنّا المشعل، وأستور راكبٌ فوقها، وبحثت عن حلٍّ للمشكلة في دفتر الأشياء المهمّة. كان مكتوبًا:

الكهرباء

ستنقطع الكهرباء قريبًا، ولن يتوافر الضوء، ولا التلفاز، ولا الكمبيوتر، ولا الموسيقى، ولا الهاتف، ولا الثلّاجة. ولكن ينبغي لكما ألا تخافا. ستعتادان الوضع بسرعة. فالبشر عاشوا زمنًا

طويلًا بلا كهرباء. كان يكفيهم إيقاد النار. ستعيشان خلال النهار وتنامان عند حلول الظلام، مثل حيوانات الغابة تمامًا. وفي الفجر ستحيّون الشمس بصحبة العصافير. سيكون الأمر جميلًا. وعندما تكونان متفرّغين، ستملآن الوقت بقراءة الكتب. وبإمكانكما الغناء عوضًا عن الاستماع إلى الموسيقى. ابقيا في المنزل في أثناء الليل ولا تخرجا أبدًا، مهما كان السبب. استعملا الشموع. والبطّاريّات في الحالات الطارئة حصرًا، ولكن من الأفضل أن تعتادا البقاء تحت الظلام.

هذا كلُّ شيء.

من دون كهرباء، صار الزمنُ أطول. وتشابكت الساعاتُ واحدةً بالأخرى في أيّامٍ تجرُّ نفسها ببطءٍ رهيب. تلاشت كلُّ الأصوات: الدقّات المنتظمةُ لأجراس كنيسةِ البلدة، رنّات الموبايل، دويُّ الطائرات، نفثات شاحنة القمامة. والصمتُ بعد نوم أستور صار ضاغطًا ومربكًا.

تعلّمت آنّا أن تصغي إلى الريح التي تهزّ النوافذ وتكنس الأوراق، وأن تصغي إلى قرقرة بطنها، وأصوات الطيور. وفي تلك السكينة اللزجة، باتت تجد رفقةً حتّى بالعثّ الذي يقرض دعائم السقف.

كانت آنّا في السابق طفلةً ثرثارة. أمّا بعد الوباء فأصبح فمها يمتلئ بكلماتٍ لا تدري ما تفعل بها. وصارت تتحدّث إلى نفسها بينما تفتح العلب التي تحوي العدس. – ها نحن ذا، كلُّ شيء جاهز. غداءٌ جميل.

وباتـت مـع مـرور الوقـت تجـد فـي مشاكسـات أسـتور المضنيـة شـعورًا بانعـدام الوحـدة.

وتعلّمت أن تتعرّف على الظلام.

فقـد نشـأت وهـي تعـرف أنّ أضـواء المنـزل تُبقـي الظـلامَ خـارج النوافـذ إلـى أن تطفئهـا أمُّهـا، ويخلـدون للنـوم، بحيـث يسـع الظـلامُ أن يمـدّد أصابعـه السـوداء علـى كلّ شـيء.

فـي تلـك الآونـة كانـت تجـد الظـلامَ فـي المطبـخ إذا نزلـت فـي الليـل خلسـةً لتنـاول البسـكويت، لكنّ سـاعة الفـرن بأرقامهـا الحمـراء والضـوء الأخضـر لآلـة القهـوة يطمئنانهـا. وكانـت أضـواءُ السـيّارة تمـزّق الظـلام عندمـا يخرجـون فـي المسـاء لتنـاول البيتـزا، كمـا كان بالإمـكان قتـل الظـلام بومضـة فـلاش واحـدة مـن الهاتـف المحمـول. وكانـوا يصنعـون الظـلام لتحضيـر قالـب الحلـوى بالشـموع الصغيـرة، لكنّـه كان ظلامًـا مبهجًـا. الظـلام يختبـئ فـي كـوخ المعـدّات، هنـاك حيـث يسـبّب الخـوف حقًـا. ففـي تلك الظلمـات العبقة بروائـح البنزين والطـلاء، يصبـح مشـذّبُ الأغصـان، والمكنسـة الكهربائيّـة القديمـة، والكرسـيّ المحطّـم، ومشـجب الثيـاب، وحوشًـا تتربّـص للانقضـاض عليـك. وحدَهـا الفئـران تجـرؤ علـى التحـرُّك فـي ذلـك السـواد.

إلّا أنّهـا آنـذاك باتـت تختنـق بالظـلام، يثقـل عليهـا، ويتحالـف مـع الصمـت ليشـعراها بالإعيـاء. ظـلامٌ كثيـفٌ ومكتنـزٌ يلـج كلَّ زاويـة، ويسـود كلَّ مسـام الجلـد. وكان يهبـط أحيانًـا بسـرعة بحيـث لا يسـعفك الوقـت لتجهيـز نفسـك، وأحيانًـا أخـرى يأتـي متمهّـلًا بطيئًـا، يمتـزج بالضـوء، يدمـي الشـمسَ ويجبرهـا علـى الاختفـاء فـي قـاع السـهل. عندئـذٍ لا تنفـع الشـموع. ولا تكفـي الكـرة الوامضـة لتبديـد الظـلام لا بـل كانـت تجعـل كلَّ شـيء أكثـر شـؤمًا وتهديـدًا.

تعلّمت آنّا مع مرور الوقت ألّا تخاف من الظلام، وأن تنغمس فيه على يقينٍ من أنّها ستخرج منه. كانت تجلس تحت غطاءٍ بجوار أخيها. وعندما يضطرّ إلى التبوّل يفعلها في وعاءٍ بجانب الفراش، إلى أن يخطفها النعاسُ ويُرجِعها إلى النهار.

وسواء أكانت الأجواء غائمة أم ممطرة، باردة أم دافئة، كان الظلام ينهزم في معركته اليوميّة ضدّ الضوء وينجلي عاجلًا أم آجلًا.

* * *

أفاقت آنّا من النوم مبسوطة الذراعين، كما لو أنّهم دلقوا عليها دلو ماء، ارتطم مرفقها بالجانب المعدنيّ ووثبت واقفةً. انزلق المشعل من فوق ركبتيها. فاعترضته بسفل حذائها وأضاءته ليرسم بُعدًا بيضويًا منيرًا على سطح الأسطوانة.

كم نامت؟

تلمّست يدها الجريحة وانتظرت أن يهدأ خفقان قلبها. وقرّرت أن تصعد مئة عتبة أخرى. فإن لم تصل إلى القمّة غيّرت رأيها.

وعند العتبة السادسة والأربعين حدّد ضوء المشعل بابًا مفتوحًا وغرفة صغيرة مملوءة بالأزرار. لا بدّ أنّ أحدهم قضى الليلة فيها، فعلى الأرض قوارير نبيذ فارغة ومبعثرة، وغطاء. وعلى الجانب سلّمٌ شاقوليّ يفضي إلى حُجرة مغلقة بما يشبه شريطًا معدنيًا. كان ثخينًا، لكنّها استطاعت أن تنزعه باستخدام كلتا اليدين. دفعت الفتحة بالاستعانة برأسها.

كادت الشمس تعشي أبصارها، فانتظرت كي تعتاد حدقتاها على ذلك النور، وتقدّمت على أربع. كانت الريح تهبّ وتعبث

بشعرها، وتصفر في أذنيها وتتغلغل في فمها. أرغمها الارتعاش والوجل على التشبُّث بالمتّكأ الذي يحيط بسقف المنفة ونظرت إلى الأفق.

كانت أنقاض البلدات المتفحّمة ما وراء التلال تشكّل قشورًا على السهل الممتدّ كطاولةٍ سوداء حتّى الشاطئ. يقطعه الأوتوستراد كأثر ممحاةٍ رماديّة. فيبدو البحر بطاقةً من قصدير تتركّز عليها جزيرةٌ قاتمة ومدوّرة مثل شوكولاتة باتشو البيروجيّة وجزيرةٌ أخرى أبعد وأصغر. وفي المدى تراءى لها خطٌّ أغبش، ربّما كان مجرّد تأثير بصريّ أو سراب.

القارّة.

لعلّ الحياة ما وراء المضيق قد عادت إلى سابق عهدها، وعاد الكبارُ ينجبون الصغار ويتجوّلون بالسيّارة، وافتُتِحت المحلّات ولم يعد الموت في سنّ الرابعة عشرة واردًا. لعلّ صقلّية كانت منسيّةً بكلّ ما فيها من أيتام. من بين كثير من الأساطير والفرضيّات العبثيّة التي نمت إلى مسمعها، بدت لها هذه أكثر إقناعًا، والوحيدة التي يمكن تصديقها، الوحيدة التي تستحقّ عناء الذهاب إلى هناك للتحقُّق من الوضع.

رفعت ذقنها، أغمضت عينيها وحاولت ابتلاع الشظيّة التي تشرِّخ حلقها. مسحت الريحُ دموعها. شدّت قبضتها على المتّكأ وهمست: - أُقسِم أنّني إن نجحتُ باستعادة أستور سأقطع البحر للتأكّد ممّا إذا ما زال الكبار أحياءً. - وضربت جبينها بالصفيحة الفولاذيّة التي كانت مستلقية عليها.

التفتت لتنظر نحو داخل الجزيرة. كانت التلال تتبخّر واحدةً في الأخرى، وتنتقل من الأزرق إلى السماويّ إلى النيليّ. ثمّة شارعٌ يتّبع ثنايا الأراضي إلى أن يصل إلى عمارة كبيرة ومعزولة، وبجانبه رافعةٌ صفراء.

الفندق.

* * *

ركضت إلى أسفل العنفة في الظلام، وهي تصيح وتصفع الجوانب بكفّيها. وعندما وصلت إلى القاع أصابتها دوخة. قطعت حقل القمح، والسماء تتأرجح على إيقاع ركضتها، وعادت إلى الأسفلت. أخرجت الكنزة واستعادت المشعل.

وبعد نزلة وجيزة أصبح الشارع مسطّحًا كالشريط.

تغيّر المنظر فجأة، لكأنَّ رسّامًا آخر مَن تولّى رسمه، فاستعاض صفرة القمح برماديّة الحصى. وغُمِر الشارع بطبقة من رملٍ ناعم. ولم يعد حولها سوى الآجام وصبّار الأغاف وبعض البقع المسلوخة بالحشائش اليابسة. حميرٌ هزيلةٌ ناتئة العظام تقضم العشب عن حافّةٍ مدمّرة، وفي السماء نسورٌ رابطةُ الجأش كالبواشق تحلّق بأجنحةٍ مبسوطة وتصوّب على فريستها. وكانت التلال الصخريّة في أثناء ضوء النهار المحتضر تبدو قواقع سلاحف ميْتة.

راودها حدسٌ، فاستدارت.

الكلب هناك. كان يتبعها محافظًا على مسافةٍ بينهما.

سارا بعض الوقت على ذلك النحو، ثمّ نفد صبر الفتاة فتناولت حجرةً ورمته بها.

- اذهب من هنا!

تهرَّب الكلب بقفزةٍ وحدّق إليها، يبدو أنّ لديه شيئًا مهمًّا يبلّغها إيّاه.

ركضت آنّا نحوه وهي تدوس بقدميها وترفع ساعديها.

- دعني وشأني!

دار الكلب حول نفسه وفرَّ بلا عجالة، كأنّ مؤخّرته تثقل عليه، وتوارى بين الآجام.

استأنفت الفتاة المشي، وما لبثت أن وجدته خلفها.

- اسمع، اتبعني إن أردت. ولكن ليس لديّ ما أعطيه لك. - وسارعت الخطى ولم تلتفت بعد.

* * *

في فسحةٍ مغبرّة، يعوم هيكلُ حافلةٍ زرقاء في ضوء الغسق الحائر. لم يعد فيها زجاج، وكانت مغطّاة بالكتابات والرسومات. وفي الداخل كانت المقاعد ممزّقة الأحشاء، والأرضيّة مكسوّة بطبقة من القمامة.

صعدت آنّا على سطحها وتربّعت على صفيحتها.

راقبها الكلب بعض الوقت مثنيًا رأسه، واختفى تحت الحافلة.

هُرِسَ العنبُ في الحقيبة، لكنّ آنّا أكلته بكلّ الأحوال، وهي ترمق السماء التي تحيل رغوة الغروب البرتقاليّة إلى لونٍ رصاصيٍّ لؤلؤيّ، ثمّ تعتم في أعلى لتغدو ليلةً مرصّعةً بالنجوم.

وما إن حلّ الظلام هدأت الريح.

ما تزال جائعة، ناهيك بشعورها بأنّها مكشوفة في ذلك المكان. وضعت الحقيبة تحت رأسها، واضطجعت على أحد جانبيها ودسّت يديها ما بين فخذيها.

حاولت أن تتصوّر ما الذي ستفعله عندما تصل إلى الفندق.

توقّفي عن التفكير.

أخذت تتأوّد إلى أن سحق الإجهادُ المخاوفَ تدريجيًا.

* * *

نهضت الشمس بين صخرتين ناتئتين ومدّدت أشعّتها بين المرتفعات المسلوخة وأحراش الصنوبر البائسة، وغمرت أحد منحدرات الوادي بالضوء.

آنّا تجرجر قدميها إلى منتصف الشارع وتستصعب إبقاء عينيها مفتوحتين. لم يدم النوم فوق سقف الحافلة كثيرًا، إذ كان يصارع البرد والكوابيس. وما زال الكلب الماريميّ يتبعها، مطأطئ الرأس.

راح ينبح على حين غرّة.

التفتت الفتاة.

هناك غيمةٌ من غبار تتصاعد في آخر الشارع وتتحرّك نحوها.

سيّارة.

وكان نباح الكلب يردِّد أصداءه بالصخور فيتضاعف مدويًا بحيث لا تستطيع أن تسمع شيئًا.

- اخرس! اخرس! دعني أسمع! - صرخت عليه.

سكت الحيوان، وكان وبر ظهره مقشعرًا، رمقها بنظرة جانبيّة ثمّ انتفض بذنبه المنتصب نحو غيمة الغبار.

لمحت آنّا حينذاك في وسط الغيمة المذهّبة شيئًا مكتنزًا، كتلةً قاتمة، مثل كوكبٍ محاطٍ بالهباء الجويّ.

خرجت عن الطريق واختبأت بين صبّار الأغاف الذي ينمو منهكًا بين الصخور.

وحينما اقتربت الكتلةُ القاتمة، استطالت وتحوّلت إلى شكلين رقيقين ومتمايزين يتقدّمان متوازيين.

حصانان.

أخذت الأرضُ تهتزّ. رأت آنا من خلال النباتات ثمانية حوافر مجهَدة تضرب على الأسفلت وأربع عجلات تحمل مقطورةً بحوافّ الأخشاب المطليّة بالأصفر، كُتِبَ عليها: «غرانيتا من أسونتينا». يجلس في الصندوق ذكرٌ وأنثيان. الفتى صغير البنية وهزيل، يمسك حبالًا يستخدمها لجامًا. وخلفه جبلٌ من العظام المصفرّة. كان الكلب يركض إلى جانب العربة وينبح. وبعد أن خذلته العجلات انتقل إلى الحصانين اللذين ضاقا ذرعًا بالقيود فراحا يصهلان ويرفّسان. لم يخشَ منهما بل قذف بنفسه بين أرجلهما كما لو أراد أن يمزّقهما إربًا ويمحوهما عن وجه الأرض. حاول الخيلان أن يعدوا، لكنّ العربة المهترئة كانت تترنّح وتتمايل يمنة وشِمالًا، وتخلّف وراءها سيلًا من العظام.

صاح الحوذي، ذو السروال والقميص، محاولًا احتواء الخيول. فشل فترك اللجام، وأمسك عصا كانت بجانب قدميه، وتقدَّمَ بجذعه كفرسان المبارزة في العصور الوسطى، مشدودَ الجسد، بينما كانت الفتاتان تتثبّتانه من أطراف قميصه. استطاع أن يضرب ظهر الكلب، لكنَّ الأخير بدلًا من التهدئة استشاط غضبًا وانقضّ بخطمه المسال باللعاب على أرداف أحد الحصانين. فرفسه الحصان على أضلاعه وقذفه إلى الهواء كما لو كان من التبن

وارتمى خلف العربة. وبعد لحظات اختفى تحت العجلات.

ابتهج الثلاثة.

لا يعلمون مع مَن تورَّطوا – قالت آنّا في نفسها وهي تعود إلى الشارع.

ظهر الماريميُّ من خلف المقطورة، نفض عنه الغبار وانقضّ ثانيةً نحو أعدائه، متجنّبًا عظام الفخذ والساق التي تتطاير في كلّ مكان. نشب أنيابه في رِجل الفرس الأيمن، فثار وانقلب على ظهر زميله وهو يصهل. سقط الحصانان أرضًا وتشابكت الأرجل وانعقدت الحبال واختلطت الذيول. توازنت العربة على عجلتين ثمّ هوت إلى أسفل، وتحطّمت بدويّ الحديد على الخشب. وطار الثلاثة والعظام في الهواء كأنّ ماردًا مشاكسًا رماهم بعيدًا. وإذ تحرّر الحصانان من قيودهما، راحا يعدوان حتّى اختفيا بين التلال والكلب يلاحقهما.

كانت العربة مقلوبةً على قارعة الطريق. والفتيان الثلاثة مقذوفون بين الغبار بلا حراك.

وضعت آنّا يديها على شعرها مذهولةً.

هذا الكلب مجنون.

الغضبُ نفسه الذي دفعه لمطاردتها على الأوتوستراد ألقى به لملاحقة الجياد. رأته يعود مهرولًا، وابتسامته تمتدّ من أذنٍ إلى أخرى. جلس قبالتها وهو يكنس الشارع بذنبه.

تظاهرت بأنّها لا تعرفه واقتربت من الحوذيّ المبطوح على الأسفلت. ما زال بقميصه المهترئ وقد طارت فردة حذائه. وكان مخدّشًا من المرفقين والركبتين ويئنُّ وجعًا.

فرفصت آنّا بجانبه، لكنّ الفتى صدَّها مبرزًا أسنانه السوداء.

- دعيني وشأني!

يشبه أحد تلك الجرذان الضخمة التي تعيش في كاستيلّاماري. وجهه مكوّنٌ من مجموعة زوايا. عظام وجنتيه، أذناه النافرتان وذقنه المدبّب. تظهر عليه كلُّ أعراض الحمراء: القشب على الشفتين والمنخارين، البقع البنفسجيّة تحت الإبطين، والكدمات على الساعدين.

أخرجت من حقيبتها القنّينة وأعطتها له.

- إنّها مجرّد كشوط. هاك، ضع عليها قليلًا من الماء.

لكنّه ضربها بظاهر يده.

تلمَّست آنّا خدَّها من دون أن تقول كلمة، شدّت قبضتيها وابتعدت.

أمسك الفتى عظمة فخذ من الأرض.

- توقّفي! - ركض إليها واعترض طريقها بصدره. - أين تظنّين أنّكِ ذاهبة؟ انظري ماذا فعلتِ! - رفع صوته مشيرًا بالعظمة إلى العربة. كانت عيناه الغائرتان والسوداوان تلمعان، ولديه مخاطٌ أصفر هابط يتدلّى من أحد منخاريه.

دفعته آنّا وقالت: - أنا؟ وما شأني أنا؟

سعل الجرذ، وبصق بلغمًا أصفر واقترب منها. كانت رائحة فمه توحي باللحم الفاسد.

- كلبكِ دمَّرَ العربة. كاد الوغدُ يقتلنا جميعًا. - استبدّ به الغضب وحاول أن يضربها بالعظمة.

انقضّت آنّا على عنقه وخنقته بقوّة.

- لقد صدّعتَ رأسي. ارمِ هذه العظمة! ارمها على الفور.
لكنّ الفتى كان عنيدًا، يشهق ويبقبق لكنّه لا يستسلم.
- سأقطع عنقك - صاحت وداست إبهام قدمه. فأصدر الفتى صيحةً وراح يثب على قدمٍ واحدة. - أنا لا شأن لي بهذا الكلب. - قالت آنّا.

وفي الأثناء نهضت الفتاتان وكانتا تحدّقان إليها. إحداهما هزيلة وطويلة، والأخرى قزمة مفلطحة. الهزيلة ترتدي ثوبًا طويلًا مطرّزًا بالأزاهير، بلا أكمام، ينتأ من كلا جانبيه عودان ينتهيان بيدين ثخينتين كثيرًا. أمّا القزمة فكانت قصيرة الساقين المبرومتين اللتين تحملان مؤخّرة كبيرة ومحشوّة في تنّورة بنفسجيّة قصيرة. وكانت كلٌّ منهما بكنزةٍ خضراء وزرقاء تحشر ثلاثة أرطال من الدهن وثديين ضخمين. وكانتا معًا تبدوان دميتين من أفلام الكرتون.
- إلامَ تنظران أنتما الاثنتان؟ - سألتهما آنّا.
لم تدليا بجواب، لكنّهما توشوشتا فيما بينهما.
أشار الجرذ إلى الكلب الذي كان مستلقيًا على الغبار يستجمُّ بالشمس.
- إن لم يكن كلبكِ فاقتليه!
- أقتل هذا؟ - انفجرت آنّا ضحكًا - اقتله أنت، فأنا حاولتُ سابقًا ولم أتمكّن. كاد يهشِّم عظامي، في الأوتوستراد. ولا يهمّني إن كنتَ لا تصدّقني.
تثاءب الماريميُّ تثاؤبًا مجلجلًا، وحنى ظهره ومطّ رجليه.
- أراهن أنّها هي التي أمرته بمهاجمة الخيول. - قالت المهزولةُ

للفتى. – والدي أيضًا كان لديه كلب. وكان اسمه هانيبال. وكان يكره الخراف.

– فياميتّا، أرجوكِ. – رفعت البدينة عينيها إلى السماء – صدّعتِ رؤوسنا بقصّة هانيبال.

– جهودُ أيّام طويلة ضاعت هباءً. – قال الجرز محبطًا – ما العمل الآن؟ كيفَ سنخبر الدبّ أنّنا أضعنا العظام والحصانين أيضًا؟

– ذاك شديد الغضب. حادّ الطباع... – أضافت فياميتّا.

– فلننسَ أمر القلائد. – هزّت القزمة رأسها. – لقد أضعنا الفرصة. – وعانقت صديقتها.

انفجرت الهزيلة في بكاءٍ يشبه الثغاء: – قال إنّه سيسمح لنا بالبقاء عنده...

رفع الجرز كتفيه: – سيعطيني قلادةً بكلّ الأحوال... أمّا أنتما فلا. لا أحد يطيقكما.

– لماذا؟ – لم تفهم فياميتّا.

– ألا تعلمين لماذا؟ – قالت البدينة – لأنّ لديه قلادةً بالأساس. ولم يخبرنا بذلك.

– أهذا صحيح يا كاتيو؟

– أجل. صحيح. – ارتسمت على وجه الفتى ابتسامة خبيثة. – أعطتها لي أنجليكا.

– ملعون. – ثبّتته البدينة من رأسه وشدّت شعره.

– اتركيني أيّتها الحقيرة. – صاح كاتيو وهو يركلها على ساقيها، لكنّها لم تستسلم.

- ساعديني يا فياميتّا.

- ها أنا ذا يا كيارا. - تقدّمت الهزيلة ثلاث خطوات بساقيها الشبيهتين بعكّازتين وانقضّت على شعر كاتيو هي أيضًا. وبدأ الثلاثة دبكةً غريبة من نوعها، يتصايحون فيها ويتدافعون.

وكانت آنّا فاغرة الفم من شدّة العجب.

توقّف القتال جرّاء صوتٍ آتٍ من خلفهم.

- المعذرة... - ناداهم صبيٌّ في وسط الطريق، يحمل بطّيخةً بين عنقه وكتفه. - من فضلكم...

كان لا يرتدي إلّا معطفًا رمليّ اللون طويلًا يجرّه خلفه مثل رداء، وينتعل حذاءً بأربطة من جلدٍ مصنّع لا بدّ أنّه كان في الماضي حذاءً أنيقًا.

- أهذا هو الطريق المؤدّي إلى الفندق؟ - بدا رأسُهُ مضغوطًا بالمكبس بحيث اختلطت ملامح وجهه بعضها ببعض. عيناه ليستا على نسقٍ واحد، إحداهما أعلى من الأخرى، شبه مغمضة، متوارية بعظمة خدّه، وفوق جبينه العالي والمتبثّر تنمو خصلٌ من الزغب الضارب إلى الشقرة كأنّه مصمّغ.

توقّف الثلاثة عن القتال ونظروا إليه متعجّبين. البطّيخة تزن عشرين كيلو على أقلّ تقدير. استعادت كيارا وعيها قبل رفيقيها:

- ماذا ستفعل بهذه؟

استغرق الصبيُّ بضع ثوانٍ كأنّه يبحث عن الإجابة الأفضل، ثمّ وضع الفاكهة أرضًا.

- أعطيةٌ للبشردونة. يقولون إنّها تشفيكِ إذا قدّمتِ لها هدايا قيّمة. - أخرج من جيب المعطف خرقةً وراح يلمّع بها القشرة المحزّزة. - لم يتبقَّ سوى القليل.

- وماذا عن وجهك؟ - سألته فياميتّا.

- سيبقى على هذه الحال. - رفع كتفيه. - فعندما ولدت للتوّ أغلق والدي على رأسي في دُرج.

اقترب كاتيو من الصبيّ: - وأين عثرتَ على هذه اليقطينة؟

- ليست يقطينة، إنّما بطّيخة. لا يوجد مثل حجمها ومذاقها الحلو في العالم كلّه. - ضرب على صدره متفاخرًا. - لقد زرعتُها بنفسي. وأضفتُ إليها السماد.

أطالت فياميتّا عنقها كالنسور لتتفحّص الفاكهة: - إنّها ضخمةٌ جدًّا...

- هل أنتم متّجهون إلى الفندق؟ بإمكاننا أن نسير معًا.

تلمّس الجرذ الثمرةَ برؤوس أصابعه، كأنّه يتحقّق من كونها ليست بلاستيكيّة: - لم لا تذوّقنا منها؟

- لا أستطيع، فهي من أجل البشردونة.

- هيّا يا فتى، حزٌّ صغيرٌ فقط.

- كلا! - عانق الصبيُّ كنزَه. - عليَّ أن أحملها إلى الفندق.

لطمه كاتيو على كتفه لطمةً أقوى من أن تكون وديّة.

- وهل تظنّ أنّ بطّيخةً واحدةً تكفي لإنقاذ حياتك؟ أنت مجنون. - أصبح جادًّا على حين غرّة. - ولكن، إن أطعمتنا منها سأتحدّث بنفسي مع الدبّ بشأنك...

بدا لآنا أنّها تقرأ الأفكار التي تمرّ في بال البائس صاحب المعطف. أفكارٌ متتالية، فكرةً تلو أخرى، مثل عربات قطارٍ بطيءٍ ومقعقع. بعضها تنتهي بإشارة استفهام، وبعضها بنقطة. لم يستطع احتواءها فسأل: - ومَن هو الدبّ؟

كبت كاتيو ضحكةً على أسنانه المعطوبة.

- أنت لا تعرف شيئًا إذن. روزاريو بارليتّا، الملقّب بالدبّ، هو الزعيم في الفندق. صديقٌ لي، وهو الذي ينظّم الحفلة، وهو الذي يتزّعم الأطفال الزرق. إن أعطيتني البطّيخة تحدّثتُ معه من أجلك، فهكذا تتناول الرماد وتنجو. - قبَّلَ سبّابتيه. - عهدٌ عليَّ.

قعد الصبيّ فوق البطّيخة كدجاجةٍ على بيضة.

- لا تريد أن تتقاسمها معنا؟ - قال كاتيو.

نظر المسكين إلى آنّا وفياميتّا، مستغيثًا بعينيه.

- لعلّها فاسدة. - ألحّ الجرذ. - تصوَّر أن يفتحها روزاريو ويكتشف أنّها فاسدة. لن يتوانى عن رميك من سطح الفندق.

تشرَّخ صوتُ الصبيّ: - ليست فاسدة... - ثمّ صرّح بتنهيدة أسى: - حسنًا، خذها لك.

رفع كاتيو قبضته عاليًا كأنّه سجَّلَ هدفًا.

تكلّمت آنّا من دون أن تنتبه: - دعه وشأنه. يريد أن يذهب ببطّيخته؟ دعه يذهب بها.

رماها الجرذ بنظرةٍ شرّيرة، ثمّ توجّه بكامل اللطف نحو الصبيّ: - اعذرني، معها حقّ. - أشار إلى الطريق. - تفضّلْ. - فإذا هو يصدح بصيحة فرح ويغرُّ كعبه في البطّيخة، فانفلقت ونزفت عصارتها الحمراء وبذورها السوداء على الأسفلت.

أصدر المسكين غصّةً مبحوحة وارتمى على شظايا كنزه الوحيد. وارتمت كيارا وفياميتّا عليها أيضًا، كالممسوستين، تجمعان قطع البطّيخة وتتهمانها.

- ابـن العاهـرة. - هجمـت آنّـا علـى كاتيـو الـذي كان مسـرورًا يشـاهد رفيقتيـه تـأكلان بنهـم، وصفعتـه علـى أذنـه.

ارتـجّ الفتـى وانفرجـت حدقتـاه عـن محجريهـا ليغـدو كالضفـدع. فتـح شـدقه بصرخـةٍ خرسـاء، فـرك أذنـه وسـقط علـى ركبتيـه باكيًـا.

أمّـا رفيقتـاه، المنشـغلتان بالنهـم، فلـم تعيـراه أيّ اهتمـام. صوّبـت آنّـا علـى مؤخّـرة كيـارا ورفسـتها بسـفل الحـذاء. فاحتـكّ بـوز البدينـة بالأسـفلت. قفـزت الهزيلـة إلـى الخلـف كطائـر الخـواض بعـد أن تلطّـخ وجههـا بالعصيـر الأحمـر وهربـت مسـرعة.

- هيّـا، فلنذهـب. دعـك منهـم. - أمسـكت آنّـا المسـكين مـن معصمـه. لكنّـه لـم يتزحـزح. كان يشـهق باكيًـا ويتـأوّد بجمجمتـه المشـوّهة. - افعـل مـا تشـاء. - التفتـت آنّـا نحـو الكلـب المسـتلقي علـى الغبـار. حاولـت أن تصفّـر، لكـنّ صفيرهـا كان مشـروخًا.

رفـع الماريمـيُّ رأسـه، ألقـى إليهـا نظـرةً تنـمّ عـن عـدم اكتراثـه واضطجـع ثانيـةً.

- إلى الجحيم أنت أيضًا!

6.

تـراءى طيـفُ فنـدق ينابيـع إليـزة الكبيـر مـن مسـافة كيلومتريـن، عريضًـا فـي الأفـق كسـفينة ركّاب ضخمـة جانحـة إلـى تلّـة. وكانـت أعمـدة الدخـان تتصاعـد مـن السـطح.

مـرّت آنًـا تحـت قـوسٍ حجـريّ أسـود يعلـو الشـارع. عظـامٌ نجت من الأمطـار، معلّقـةً بأوتـار، وتهتـزّ فتـرنّ كالأجـراس الصينيّـة. صفيحـةً كبيـرةٌ تحمـل أحرفًـا مذهّبة: «فنـد***ـابيع إلـيـ***» والأحـرف الأخرى سـاقطة. وقـد طـوّق أحدهـم جانبـي ذلـك الطريـق الضيّـق بأشـجار زيتـون عتيقـة، وباتـت آنـذاك شـبه ميّتـة. وكانـت زوابـع الغبـار تتراقص بيـن الصخـور القاتمـة والصبّـار. والريـح تحمـل روائـح الكبريـت والبلاسـتيك المحتـرق.

جلسـت، كان الهـواء يدخـل بمشـقة فـي حلقومهـا المخنـوق. والقلـق يتصاعـد تدريجيًـا. كلُّ متـرٍ يقرّبهـا إلـى الفنـدق كان أصعـب مـن سـابقه، وحينـذاك إذ صـار قبالتهـا لـم تكـن واثقـة مـن قدرتهـا علـى الدخـول إليـه.

ماذا لو أنّهم قتلوه؟

تحـرّك أطفـالٌ بيـن الشـجيرات علـى بُعـد مئـة متـر عنهـا. كأنّهـم يلتقطـون شـيئًا مـا عـن الأرض.

حـادت عـن الطريـق ومـرّت بيـن صخـورٍ قاتمـة تحيـط بالفنـدق كالحـرس، واختبـأت بيـن صخرتيـن وأسـندت ذقنهـا علـى ركبتيهـا.

كان جبينها ساخنًا، والقشعريرة تخضُّ جسمها. ظلّت ترنو إلى ذلك الامتداد القاحل يُصبَغُ باللون الأحمر جرّاء ضوء الغروب.

لعلّها تنتظر إلى اليوم التالي.

مرّت أمُّها بين الشجيرات. كانت ترتدي بنطلون الجينز ذا الخصر المنخفض والحزام الأسود، وصندلًا وكنزةً بيضاء من القطن السميك. رأتها تتربّع قبالتها. تثبّت عقبَ السيجارة بين شفتيها، وتعبّئ اللفافة بالتبغ بين أصابعها.

ما بكِ؟

حرارتي مرتفعة.

أمسكت أمُّها بالعقب ووضعته في طرف اللفافة. زلقت رأسَ لسانها على جانب الصمغ. وبرمت اللفافةَ بحركةٍ رشيقةٍ من إبهاميها وسبّابتيها وصنعت منها سيجارة. أشعلتها.

وماذا عن أخيكِ؟ هل ستتركينه هناك؟

كلّا، سأذهب في الغد. أمّا الآن فسأنام قليلًا.

أزّت اللفافة لتكتنف وجهَ ماريّا غراتزيا بالدخان. ومن بين خصل شعرها الأشقر برزت عيناها اللامعتان، الحَلَقيّتان، مثلما كانتا عليه في أيّامها الأخيرة.

كنت أعلم أنّه لا يمكنني الوثوق بكِ...

ها هي ثانيةً في غرفتها، مستلقيةً بين الأغطية اللزجة من شدّة التعرّق.

أنتِ من طينة أبيكِ الحمقاء ذاتها.

شدّت آنّا قبضتيها ومسحت مقلتيها المخضّبتين بالدمع بمعصمها.

ظهر الكلبُ من بين العوسج. كان يرمقها بعينيه التعيستين، ولسانُه خارج فمه.

مدّت آنّا يدها: - لقد عدتَ.

تقدّم الماريميُّ خطوتين، ثنى عنقه، تشمَّمَ أناملها بأنفه المتشقّق ولعقها مرّتين على سبيل الملاطفة.

- أنا وأنت صديقان. - قالت له، وكأنّها تبتلع عقدةً من الأشواك.

استرخى الكلب بجانب صاحبته، ومدَّ رأسه الكبير بين رجليه وغفا.

ظلّت آنّا متسمّرةً هناك، فيما كان وبره القذر والمقزّز يحتكّ بفخذها. ثمّ راحت تداعبه متهيِّبة. كانت عضلات الحيوان ترتجف على ملمس أصابعها. إحدى رجليه الخلفيّتين انتابتها رعدةُ متعة.

- ما اسمك؟

قوَّسَ الكلب ظهره ومدَّ فمه.

- أنت مدلَّلي. - ابتسمت. - بالضبط، سأسمّيك مدلَّلي: كوكولوني.

وهكذا حصل الكلب على ثالث اسمٍ له، بعد سالامي ومانسون: كوكولوني.

* * *

أضاءت آنّا المشعل، فامتلأت حزمة الضوء بحشود البعوض. وكانت عينا الكلب تلمعان بالأزرق الكهربائيّ.

- ابقَ هنا. - داعبت جبينه. - سأعود على الفور. - نظر إليها الكلب باهتمام ولم يتحرّك.

كان الفندق ملفوفًا بغيوم من دخان ضاربةٍ إلى الحمرة بفعل أجيج النيران. وثمّة صخبٌ موزونٌ من إيقاعاتٍ معدنيّة تدوّي في البعيد. سارت آنّا بجانب مجموعة ذاهبة بالاتّجاه نفسه: أطيافٌ داكنة تتضاحك وتثرثر فيما بينها. دفقاتٌ من كلماتٍ مبهمة، وشهقات وسعال تتناهى إلى مسمعها.

وكلّما تقدّمت ازدادت التجمّعات. كان أكثرهم جالسين على الدكّات أو مضطجعين على الأرض في خيم موقتة.

تسلّلت بسرعة في الزحام إلى أن تحوّل التدفّق البشريّ إلى طابورٍ فوضويّ يتقدّم على موجات. وكانت مواقد النيران البعيدة تومض على وجوهٍ مكسوّة بالبقع وأفواهٍ بلا أسنان. موكبٌ من مشوّهين وحُدُبٍ وجرحى. كلُّهم يحملون حقائب وأكياسًا مملوءة بالأغراض أو يجرّون عرباتٍ تغصّ بالأشياء.

وكان اثنان منهم على انفرادٍ يدخّنان.

- لديّ ثلاث علبٍ من اللحم. وأنت ماذا جلبت؟ - قال أحدهما.

- هذا... - أجاب صوتٌ أنثويّ. ارتجّت شعلة الولّاعة في الظلام وانعكست على زجاج قنّينة بدمغةٍ حمراء.

- وما هذا؟

- نبيذ.

- لا يكفي، لن يسمحوا لكِ بالدخول.

- وما السبب؟

- لأنّ هذه سأشربها أنا. - قال الآخر وانفجر ضاحكًا.

بدأ الاثنان يتشاجران على غير اقتناع، شجارًا بين صديقين.

لا يُسمَح بالدخول إلّا بالإتيان بشيءٍ ما.

ماذا لديها في الحقيبة؟ قنّينة فارغة. ولّاعة. سكّين. الشيء الوحيد ذو القيمة هو المشعل، لكنّها لا تودّ التخلّي عنه. فهو مصباحٌ ممتاز، فعّال، ولم يتعطّل يومًا. حتّى بطّاريّاته لا تزال سارية.

في الطابور الممتدّ تحت أسوار الفندق تندلع مشاجراتٌ لا تنتهي إلّا بالصياح والتدافع.

تلك هي المرّة الأولى التي تجد فيها آنّا نفسها ما بعد تفشّي الوباء محاطةً بهذا القدْر من البشر، وكانت تتقطع أنفاسها في خضمّ هؤلاء المتزاحمين الذين يلمسونها من هنا ويدفعونها من هناك. تملّكتها رغبةٌ في الهرب، لكنّها كزّت أسنانها وأجبرت نفسها على البقاء في الطابور.

وصلت إلى البوّابة بعد نصف ساعة.

مئات الشموع تذوب على صفٍّ من البراميل، وثلاثة فتية خلف القضبان يراقبون الداخلين. تتدلّى على أعناق كلٍّ منهم قلائدُ مصنوعةٌ من عظام أصابع بشريّة.

– ماذا جلبتِ للبشردونة؟ – سألها أحدهم وكان هزيلًا وشعره مدهونٌ بالوحل الأخضر.

أعطته آنّا المشعل.

تفحّص الفتى فعاليّته وسلّمه لزميله المجاور.

– جيّد...

رماه زميله الضامر والأشقر في علبة ملأى بالأعطيات الأخرى، وسدّد نظرةً إلى صدرها وسمح لها بالدخول بينما كانت بقيّة الطابور تحتشد عند القضبان.

قطعت آنّا ممرًّا مسقوفًا ومعتمًا تكتسحه الريح، يفضي إلى الحدائق. جدرانه تعجُّ بالرسومات والكتابات. وعلى جوانب البلاط الحجريّ يتكوّم حطام فخّار وبلاستيك ومعلّبات وصفائح مسحوقة.

صعدت إلى منصّةٍ تشرف على مدرج. كانت عتباته الضخمة المصنوعة من الأسمنت الخام تتدرّج بانحدارٍ إلى حوضٍ مملوء بالقمامة ومياه المطر، وخلف الحوض ستّة أعمدةٍ على طراز العمارة الكورنثيّة، وما زالت هناك ألواح تسوير لورشة بناء. خمسة نيران تستعر في محارق من الإطارات وتغطّي المسرح بدخانٍ أسود ولاذع. كلُّ شيء محطّمٌ ويتداعى. طغت الحشائش على جملةٍ من القنوات التي تتفرز منها كالثعابين أنابيبُ مموّجةٌ برتقاليّةٌ تحوي الأسلاك الكهربائيّة، على مدار المدرج نصف الدائريّ وتتّجه نزولًا نحو المسبح.

كان الناس يحتشدون في كلّ مكان. أولئك الذين على الشرفات يبدون نيامًا، وآخرون يتحرّكون على السلالم. وهناك فرقةٌ من أطفال بلباسٍ رثّة جالسين على دعامة، ويضربون على البراميل إيقاعًا بطيئًا ورتيبًا.

والفندق يهيمن في الأعلى، مكلّلًا بقبّة زجاجيّة. بات أحد جناحيه مجرّد هيكلٍ من دعائم أسمنتيّة، فيما تقدّمت الأشغال في الجناح الآخر حتّى رُكِّبَتِ فيه النوافذُ والدفّات.

غامرت آنّا بعد تردُّدٍ لصعود السلالم لكنّها لم تستطع التقدُّم. توقّفت عند عتبةٍ كبيرة تغزوها علب التونة الفارغة، والفاصولياء والحمّص. حملت علبتين، ووجدت زاوية مقفرة، فجلت قاع

العلبتين بإصبعيها. كانت جائعة لدرجة أنّ الحمّص الذي لا تستسيغه إطلاقًا بدا لها لذيذًا.

على مقربة منها، ثمّة صبيّة متربّعة على الركام، ترتدي رداءً أسود وقلادةً من العظام، وتمسك بكلتا اليدين سلّةً مملوءة بالقوارير البلاستيكيّة. يتهافت الجميع لانتزاع قارورة واحدة على الأقلّ. ومَن يستطع أخذها يجب أن يصونها من طمع الآخرين.

وبعد قليل، ثمل الذين شربوا، وترنّحوا، رؤوسهم ترتخي على صدورهم، وأذرعهم متهاوية، يغفون على قرع الطبول. أحدهم، يتقدّم بعينين مغمضتين، لم ينتبه إلى العتبة، فظلّت ساقه لوهلةٍ معلّقةً في الفراغ، حتّى سقط إلى أسفل وسط قهقهة مَن رآه.

نظرت آنّا حولها.

بدا لها أنّ الصخب الآتي من خارج البوّابة قد تبدّد. وظهرت أطيافٌ جامحةٌ من بين دفقات الدخان كأنّهم في حفلٍ موسيقيّ، لكنّ لا أحد منهم كان في عمر أستور.

لمحت ظهرَ فتاةٍ بجوارها، كتفاها تتّسمان كأجنحة الدجاجة، وساقاها هزيلتان.

– عذرًا. – لكزتها من الخلف. – هل تعرفين أين يُبقُون على الأطفال؟

لم يردها جواب.

شدّت الفتاةَ من ذراعها فوقعت الأخيرةُ عليها. كان خدّاها محفورين، كما لو أنّ طفيليًا امتصّها من الداخل، وعيناها زجاجيّتان وفمها متشنّجٌ على صورة صرخةٍ صامتة.

اجتاحت الريحُ المدرجَ. ثمّة ما لا يحصى من الأجساد تتلوّى تحت ضياء النيران المشعشع.

انتفضت آنّا واقفةً، فركت ذراعيها محاولة إبعاد الموت الذي التصق بجلدها مثلما لو كان سربًا من الذباب، وتعرقلت بكاحل صبيّ. امتلأ أنفها برائحة البول الثاقبة. كان المسكين يرتجف ويرتعش. وجهه وعنقه وصدره، تستبدّ به القروح، وذراعاه متيبّستان وقبضتاه مشدودتان كما لو كان يصارع أحدًا ما.

هذه غرفة انتظار.

هكذا كانوا يسمّونها. قيل إنّ في باليرمو كانت هناك واحدةً في الإستاد وأخرى على شاطئ مونديلو. وكانوا يسحلون إليها الموتى وأشباه الموتى ليموتوا معًا.

- أنا... أنا لستُ مصابة بالحمراء. - تلعثمت. مشت خطوتين فإذا هي محاصَرةٌ بغيمة من غازٍ يملأ رئتيها.

صعدت السلالم ركضًا وهي تسعل. رأت تحت هيكل شجيرة تتدلّى منها الخرق والأكياس جبّالة أسمنت. اختبأت خلفها وانكمشت على نفسها ووضعت الحقيبة على رأسها.

إن تجاهلت ذلك الظلام سمعًا وبصرًا، فلا بدّ أنّه على شاكلة ظلام أرض التوت.

تثاقل جفناها في غضون ثوانٍ وغطّت في النوم.

* * *

أعشاها ضوء النهار.

غطّت آنّا وجهها بيديها ولمحت السماءَ الحليبيّة من بين أصابعها. كانت الشمس تعتلي الأفق للتوّ، وتشبه بقعة صلصة على منديل أبيض.

بدا المدرج تحت الضوء أصفر. وكانت الإطارات التي تحتوي على أكوام الرماد تلفظ خيوط دخان سوداء ومستقيمة. دعامة الطبول مقفرة. وما زال بعض المرضى على الركام.

نهضت على مرفقيها تتثاءب.

وجدت قبالتها طيفًا يحجب الضوء ليتشكّل على وجهٍ مألوف.

- ما الذي تفعله هنا؟

كان بييترو مترنّحًا.

- جئت أبحث عنكِ. - أجاب. رفع عن الأرض قنّينةً ما زال في قعرها قليلٌ من سائلٍ أسود وحملها إلى أنفه. - هل شربتِ هذا القرف؟

تمطّت آنّا: - لا، ما هو؟

- يوزّعون هذا المشروب في المساء. يحتوي على كلّ شيء: كحول، حبوب مهلوسة، منوّم... يسمّونه «دموع البشردونة». شربتُ منه ذات مرّة نصف قنّينة بمفردي، ثمّ هشّمتُ رأسي ببابٍ زجاجيّ. انظري. - أظهر على مرآها ندبةً غامقةً ولحميّة خلف أذنه اليسرى. - لا أذكر حتّى أنّني اصطدمتُ بالباب. حدّثوني بما جرى.

عدّلت الفتاة كنزتها.

- بالأمس رأيتُ موتى، أين هم؟

- يحملونهم بعيدًا ما إن يطلع ضوء النهار، ويدفنونهم في حفرة.

رمقته آنّا. كان يبدو متعبًا، وجهه مُضنىً وشعره أشعث، لكنّ عينيه السائلتين والوسيعتين كانتا جميلتين.

- ألم تكن تبحث عن الحذاء؟

أمسك بعلبة تونة فارغة ودوَّرها بين يديه.

- من دوني لن تعثري على أخيكِ أبدًا.

مرّرت آنّا أصابعها في شعرها وثنت رأسها جانبًا.

لقد جاء من أجلي.

نظّف بييترو بقايا السمك بإصبعه ووضعها في فمه.

- إنّه في الأسفل، في المقلع. ولكن إن أمسكوك أرسلوكِ إلى الصهريج. ليس بوسع أحدٍ الذهاب إلى هناك، ما عدا الحرّاس، أولئك الذين لديهم قلائد على صدورهم. لكنّي أعرف طريقًا. سآخذكِ فيه، إن شئتِ.

ظلّت آنّا في صمتها قليلًا.

- كيف لك معرفة كلّ هذه الأشياء، أنت؟

أولى ظهره إليها: - أنا أيضًا كان لديّ قلادة. ثمّ وقعتُ بمشكلةٍ معهم، ومن الأفضل ألّا يروني في هذا المكان. - رمى العلبة نحو المسبح، وأخطأ تسديده كلّيًا. فقد أصاب رأس صبيٍّ مستلقٍ أسفل منه بعتبتين.

نهض الأخير وأشار إليه: - أيّها الأخرق... - وبدأ بالسعال.

رفع بييترو يده: - المعذرة.

صفّقت آنّا: - لحسن الحظّ أنّك لا تريد إثارة الانتباه. - ربطت فردة الحذاء. - هيّا بنا!

* * *

دار الاثنان حول حوض السباحة وبلغا باحةً حيث تسخّن زمرةٌ من الحرس صفيحةً فضيّة على النار. كانوا يرمقون الطعام صامتين، يتثاءبون، كما لو أنّهم يطبخونه بأعينهم.

- لا تنظري إليهم. - وشوشها بييترو - بعد هذا الحدّ يجب أن يكون لديكِ قلادةٌ لكي تتحرّكي.

قطعا بقعةً من نبات الأسل وحينما خرجا منها انفتح أمامهما سهلٌ محترقٌ تحت سحابةٍ بيضاء كثيفة كالحليب، تنتأ من فوقها قمم التلال الباهتة. تابعا السير على أحد الطرق الذي انقطع بعد قرابة المئة متر بحاجزٍ من طاولات مثبّتة بالمسامير. لا بدّ أنّه في الجوار هنالك مبولة، إذ تنبعث روائح البول والبراز.

انزلقا ومؤخّرة كلٍّ منهما على الأرض من خلال أحد الجوانب الممتلئة بالأوراق المريضة والثمار الشائكة، فوصلا إلى منحدرٍ مغطّىً بالقمح. وكان بييترو يفتح طريقه بيديه ما بين السنابل، ويلتفت بين الحين والحين لتفقُّد آنّا التي تتبعه.

تخفّيا وراء صناديق مملوءة بكسارة الحجر عند أطراف فسحةٍ مسحوبة التربة حيث توجد شاحنةٌ وجرّافةٌ مهملتان بجانب أكواخ مسبقة الصنع.

- ذاك هو الطريق المؤدّي إلى المقلع.

أطلّت آنّا لكي ترى.

- علينا أن نركض بسرعة، وإلّا رأونا من الفندق. - تابع بييترو - وإذا اقتادونا لدى أنجيليكا فقد قُضِيَ عليَّ.

- مَن هي أنجيليكا؟

عضّ بييترو شفته السفلى: - هي التي تقرّر كلَّ شيء هنا، بمشاركة الدبّ.

تذكّرت آنّا الدبّ، الذي تحدّث عنه كاتيو، صاحب العربة.

- وأين هي؟

- إنّها نائمة الآن.

ثنت الطفلة رأسها ونظرت إليه من أسفل إلى أعلى.

وثَّبَ بييترو حوضه قليلًا، وقال: - لقد أغرمت بي، ولم تعد تتركني وشأني. تريدني.

انفجرت آنّا في ضحكةٍ مجلجلة.

سدَّ فمها بيده وفحَّ هامسًا: - اخرسي! قد يسمعوننا...

مسحت آنّا دموعها بمعصمها.

كيف كانت ماما تسمّي بابا عندما يتفاخر بقدرته على الغطس في البحر من صخرة الراهب؟

- أنت طبق الأصل عن والدي: دجّال.

- إنّها الحقيقة، أقسم لكِ. - قبَّل بييترو سبّابتيه. - هذا ما دفعني إلى الهرب. تلك مجنونة. كانت تقول إنّني إذا صاحبتُها عرّفتني على البشردونة، لكنّ هذه مجرّد ذريعة. هلّا تكلّمنا بالأمر لاحقًا؟ - بحث عن نبرةٍ بالغة. - اسمعيني الآن: حين أوعز بإشارة الانطلاق نركض دون توقّفٍ لغاية الجرّافة ونختبئ خلفها.

- وكيف هي؟ جميلة؟

- كلا. هزيلةٌ جدًا، تشبه الساحرات.

- لماذا؟ كيف تعجبك النساء؟ كلّهنَّ... - ورسمت منحنياتٍ في الهواء.

- أرجوكِ... - ضمَّ بييترو يديه.

حاولت الفتاة أن تصبح جادّةً، لكنّ عينيها لا تزالان تضحكان.

- إن أمسكونا، يأخذونك إلى أنجيلكا؟

- لن يمسكونا.

- لماذا؟

نظر إلى عينيها مباشرة.

- أنا وأنتِ خفيّان.

- أرأيتَ أنّك دجّال!

* * *

ربّما ليسا خفيّين، ولكن لم يرهما أحد وهما يقطعان الفسحة راكضين.

توقّفت آنّا عند جنزير الحفّارة. وانزلق بييترو بجانبها بعد لحظات، وأشار إليها بالتمهُّل إذ كان لاهث الأنفاس.

- لقد أغلقوا الطريق.

كانت الفسحة التي تنتهي بعد سلسلة من المنعرجات في الوادي السفليّ كانت مغلقةً بشباكٍ معدنيّة. والشباك في حالٍ جيّدة حيث تسندها الدعائم، أمّا ما تبقّى منها فكانت مغمورة بالكُسارة الصخريّة.

- علينا أن نعبر من جهة الأحراش. - قال الفتى.

ساور الشكُّ آنّا. ماذا لو كان يحتال عليها؟ كيف لها أن تثق بدجّالٍ يتحدّث عن أنجيلكا التي تعشقه ويتجوّل باحثًا عن حذاء؟ ولكن ليس لي أصدقاء غيره.

الأشجار متشابكةٌ بعضها ببعض كأنّها تخشى التدحرج إلى الوادي. واللبلاب يعصر البلّوط، ويتساقط كالعناقيد ليحوّل الأرض الملأى بالحفر والصخور إلى عقدةٍ خضراء غادرة. طلعت الشمسُ فاحتشدت غيومٌ من الذباب البريّ الذي ينهش الأقدام والأذرع.

وكانت آنّا تتبع بييترو على المنحدر بقلقٍ بالغ.

- هل أنت واثقٌ من أنّه الطريق الصحيح؟

- لا. - اعترف بييترو.

- إن أخطأتَ الطريق فعلينا أن نصعد ثانيةً من... - ولم تكد تنهي جملتها حتّى تعرقلت بجذرٍ ووجدت نفسها تنزلق على ظهرها. حاولت التشبُّث باللبلاب لكنَّها أغرقته معها. وما لبثت تصيح فإذا مؤخّرتها تصطدم بمنحنىً يقذفها إلى الهواء. وقد تخدّش وجهها وذراعيها بالأوراق والأغصان.

بصفقتها الأحراش.

وبعد عدّة شقلبات، هبطت إلى منحدرٍ من ركام حصًى وعر. حاولت الكبح من اندفاعها الجارف بيديها وقدميها، لكنّها كانت تزداد سرعةً في الهبوط، وترتفع من جانبيها أمواجٌ من الحصى، حتّى تحوّل المنحدر كلّه إلى انهيارٍ صخريّ. وكانت ترى أمامها بقعة خضراء، بدت لها من البعيد مجرّد أجمة، ثمّ أخذت تتضخّم وقد أخفقت في إبطاء نزولها باتّجاهها. وهكذا ابتلعتها أغصان شجرة - كالسمكة في الشباك - شجرة التين البرّيّ المتجذّرة بحافّة هاويةٍ سحيقةٍ تهبط بحدّةٍ حتّى قاعدة المقلع. لم ينتبه قلبُها أنّه ما زال حيًّا، إذ كان ينبض في صدغيها. ثنت أصابعها المبيضّة ومرّرت لسانها على أسنانها المشبعة بالغبار.

وبعد قليل، سمعت صيحةً تمهّد لانزلاق بييترو إلى جانبها ممرّغًا بالرمل.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وكانا مستلقيين تحت قبّةٍ من أوراق اللبلاب، مذهولين من أنّهما لا يزالان على قيد الحياة، وكانا مكسوّين بطبقةٍ من البياض. فانفجرا من الضحك.

شهقت آنّا بأنفها وقالت له: – هلّا طرحتُ عليك سؤالًا، إن لم يكن فيه إحراج... – نحنحت صوتها – لماذا أنت مصرٌّ على البحث عن ذلك الحذاء؟

فرك بييترو جفنيه، سحب نفسًا عميقًا وتسطّح على ظهره واضعًا ذراعيه تحت رقبته.

– لا جدوى من أن أروي القصّة، فلن تصدّقينني.

– حاوِل.

– كان لي صديقٌ اسمه بييرباولو سافريوني. يكبرني بعامين. أصابته الحمراء، بشدّة. فتلطّخ جسمه كلّيًا بالبقع، وصار يتنفّس بصعوبة ولم يعد يقوى على النهوض عن السرير. كانت أيّامه معدودة. وذات صباح أعطاني صفحةً من جريدة، تلك التي أريتُكِ إيّاها، وقال لي إنّ ذلك الحذاءَ سحريٌّ، قد ينقذ حياته وطلب منّي أن أبحث عنه من أجله. كان متيقّنًا. فماذا عساني أردّ عليه؟ كان صديقي، وقد استضافني في منزله وأطعمني. فذهبتُ إلى المركز التجاريّ ووجدتُ الحذاء. أديداس هامبورغ. كان منه قرابة عشرة أزواج. – أبعد عنه ذبابةً تحوم حوله. – ظننتُ أنّ الأمرَ ترّهةٌ، فجلبتُ زوجًا واحدًا فقط، قياس 42. انتعله، لا بل ألبستُه إيّاه بنفسي، لأنّه لم يكن قادرًا حتّى على ذلك، وذهبتُ للنوم. – صمت عدّة لحظات. – وفي اليوم التالي كان قد اختفى. ترك على سريره صفحة الجريدة التي تُظهِرُ دعاية الحذاء. بحثتُ عنه في كلّ مكان. إذ كان من المستحيل أنّه غادر على قدميه، لأنّه بات شبحًا من شدّة الهزال، عاجزًا عن الحركة. حتّى إنّي تحقّقتُ إن كان قد ألقى بنفسه من النافذة.

حكّت الفتاة خدّها.

- وأين كان؟

- فـي الجانـب الآخـر. فـي العالـم حيـث كلُّ شـيءٍ علـى سـابق عهده، حيث لـم تتفشَّ الحمـراء وحيـث كانت الأمـور تسـير بالطريقـة الصحيحـة. لا أعـرف مـا سـرّ ذلـك الحـذاء، لكـنّ بييرياولـو فسّـر لـي أنّك إذا انتعلتَه يأخـذك عبْـر طريـقٍ إلـى ذلـك العالـم الآخـر. - رفـع كتفيـه. - هُرِعتُ إلـى المركـز التجـاريّ فلـم أجـد أيّ زوجٍ مـن الحـذاء. اختفـت كلّهـا. - التفـت نحـو آنّـا.

كانت آنّا ترمقه: - ماذا لو وجدتَ الحذاء ولم يكن سحريًّا؟

أخفـض بييتـرو عينيـه: - ألا تعتقديـن أنّ ثمّـة طـريقـةً للنجـاة؟ هـل نحـن مُقـدَّرٌ علينـا أن نمـوت هكـذا؟

انتهـت أنظـار آنّـا علـى عنكبـوت بنّـيٍّ يهتـزّ وسـط شـبكته التـي ذرتهـا الريـح.

- أنـا لا أعتقـد بـأيّ شـيء. أنـا يجـب أن أعثـر علـى أخـي، فقـد وعـدتُ والدتـي أنّنـي لـن أتخلّـى عنـه.

- وبعد؟ ما الذي سيتغيّر؟ بعد فترةٍ تموتين ويبقى هو وحيدًا.

- لكنّي سآخذه إلى القارّة قبل ذلك.

حكّ الفتى رأس أنفه: - إلى كالابريا؟

- لعلّ الكبار هناك قد نجوا وصنعوا اللقاح.

- أترين أنّك تعتقدين بشيءٍ ما؟

أغمضت آنّا عينيها.

بحثت أصابعُ بييترو عن أصابعها. فشدّت بيدها على يده.

وبقيا على تلك الحال، يدًا بيد، متماسكين كقطعة السالامي، وكانا سيبقيان هكذا لو لم يقاطعهما رنينٌ غريب.

رفعت آنّا رأسها: - أتسمع؟

بدا أنّ بييترو لا ينوي أن يتحرّك: - ماذا؟

- ذلك الصوت. هل تسمعه؟ - أزالت عنها الأوراق وتحرّت بين الأغصان. غيومٌ صغيرة بيضاء وكثيفة تعوم على وجه السماء الزرقاء. وهناك رافعةٌ، تتدلّى على أحد أسلاكها الفولاذيّة دميةً لها ملامح الهيكل البشريّ. لم تكن آنّا بارعة في تقدير الأحجام، لكنّ ذلك الشيء كان أعلى من مبنى البنك في ساحة ماتّيوتّي.

كان مبنيًا من دعائم خشبيّة موحَّدةٍ بمفاصل الحبال. قفصه الصدريُّ على شاكلة القارب، وحوضه مثقوبٌ من وسطه. وكان مركّبًا بالعظام كلّيًا، ما عدا نصف ساقه اليسرى وذراعه اليمنى. ومن عظم العضد يتدلّى عظم العضد، وعظم الفخذ من عظم الفخذ، وعظم الترقوة من عظم الترقوة. إلّا أنّ الجمجمة هي أشدّ الأجزاء غرابة، مكوّنة من أقحافٍ مصفوفةٍ بنسقٍ لولبيّ. والعمود الفقريّ عبارةٌ عن موزاييك من الفقرات. فكانت العظام حرّةً في الحركة، يصطكّ بعضها ببعض كلّما هبّت الريح.

أطلّ بييترو لكي يرى.

- تمكّنوا من تشييده في النهاية.

- إنّه رائع. - قالت آنّا مفتونةً.

- سيستخدمونه من أجل حفلة البشردونة.

كانت أكوام العظام متراكمة في الأسفل حول الرافعة. وفي الجوار، بقرب مستودع مصفّح وطويل، ثمّة شاحنة صهريج، وجبال من الإطارات وأكداس الحطب.

تقدّم بييترو وآنّا على أربع فوق الشفير الرمليّ لتلك الهاوية ونزلا إلى المقلع. وكانت الدمية المعلّقة تنظر إليهما بحدقتيها السوداوين المصنوعتين من عجلات الجرّار.

والريحُ تجول بين ركام الرمل، وتجتاح الفسحة فتهبّب فيها الغبار وتصفق باب المستودع. كان الصهريج في أحسن حال، وما زالت آثار عجلاته التي خلّفها وراءه واضحةً.

أمّا أكوام العظام، فكانت الصغرى مقسَّمة كلٌّ بحسب نوعها: الظنابيب، الأضلاع، الكمابر، إلخ. وما زالت العظام الكبرى مختلطة.

وضعت آنّا يديها على خاصرتيها، يراودها اليأس.

- لا يوجد أحدٌ هنا، فلنعد إلى أعلى.

ألقى بييترو بنفسه على الأرض: - ومع ذلك...

أسكتته آنّا: - ما هذا؟ - غبارٌ كثيفٌ يصعد من أسفل الوادي ويتبعثر في السماء الزرقاء.

* * *

لا بدّ أنّ سائق الصهريج متديّن. إذ كانت لوحة القيادة مزيّنةً بأشكالٍ مصغّرة تمثّل الأب بيو والبابا فوجتيلا. تعلوها صفيحةٌ ذهبيّةٌ منقوشٌ عليها بالخطّ العريض: «مقياس الحبّ هو الحبّ بلا مقياس».

اتّكأ بييترو وآنّا على مقعد السائق وتلصّصا من النافذة إلى غيمة الغبار التي كانت تتضخّم وتتفكّك إلى ثلاث عربات يقود كلٌّ منها حصانان تشبه عربة كاتيو. إلّا أنّ هذه العربات، عوضًا عن شحن العظام، كانت تنقل أطفالًا. توقّفت القافلة تحت الدمية المعلّقة ونزل الجميع قفزًا يتصايحون.

تذكّرت آنّا كيف كانت تنزل من باص المدرسة أمام البوّابة بصحبة عددٍ من رفاقها المهتاجين ويركضون في الباحة. الفرق هو أنّ هؤلاء عراة ويشبهون السحالي.

كانت عيناها تثب من طفلٍ إلى آخر بحثًا عن أستور، إلّا أنّ جميعهم يبدون لها من هناك متشابهين. تخيّلت أنّهم يربطونهم مثل عبيد مصر، لكنّهم كانوا حينذاك أحرارًا وتتّضح عليهم السعادة أيضًا. ثمّة ستّة فتية أكبر منهم يتبعونهم كالمعلّمات، ويجتهدون لترتيبهم في طابور. فكلّما أمسكوا واحدًا فلت منهم واحد. حتى استطاعوا في النهاية اقتيادهم إلى جانب صفّ من البراميل.

لطم بييترو جبينه بقبضته وأشار إلى فتاة طويلة، شبه عارية ومطليّة بالأبيض: - هي تلك أنجيلكا.

كان بجوارها فتى بدين، مرتخي الكتفين ومفلطح الوركين، يغترف من الدنّ حفنةً من مسحوقٍ أزرق ويرميه على الصغار فيختفون في غيمةٍ من لونٍ فضّيّ.

- وذاك هو الدبّ، روزاريو.

شدّت آنّا على معصمه.

- لقد رأيتُ هذين الاثنين سابقًا، هما اللذان قتلا ميكيليني.

ما إن انتهت عمليّة التلوين حتّى جاءت صبيّةٌ عرجاء تحمل علبة كرتونيّة ووزّعت منها على الجميع قوارير كوكا كولا.

وبعد تلك الوجبة، صفّرت أنجيلكا فتوزّع الأطفال الزرق على مجموعات. منهم مَن يحمل الظنابيب ويملؤها في كيس معلّق على جانبه، ومَن يرتّب أكداس العظام. جرت العمليّات بطريقة

سريعة، دلالةً على أنّ تلك ليست بالمرّة الأولى. تعلّقَ أصحاب الأكياس على دعائم تتدلّى من الرافعة ورُفِعوا إلى فوق على سواعد آخرين يثبّتون الحبال. تسلّقوا كالقردة نحو الهيكل العظميّ، وتأرجحوا وقفزوا من جانبٍ إلى جانبٍ لتركيب العظام على مسامير بأسلاكٍ حديديّة. وكان الكبار يوجّهونهم من الأسفل وهم يصرخون.

التصقت آنّا بالنافذة.

- ها هو. إنّه هو.

- أيُّهم؟

- ذاك الذي هناك. - أشارت بإصبعها نحو طفلٍ واقفٍ على كومة عظام. - سأنزل لاستعادته.

- تمهّلي... تمهّلي... - أراد بييترو أن يوقفها، لكنّها ألقت بنفسها من الشاحنة وهمّت بالركض.

* * *

كان الطفل موليًا ظهره. يحمل في يديه عظام الحوض على أنّها طائر. ارتمت آنّا بين عظام الزند والفقرات التي تبعثرت تحت قدميها، ومدّت ذراعها واستطاعت إمساك كاحله. صاح الصغير ووقع عليها.

نهضت الفتاة ورأت تحت الطلاء الأزرق عينا والدتها الزرقاوين، وأنف أبيها، وأسنان أستور المشوّهة. حُلِقَ حاجباه. ابتسمت له:

- أستور!

حدّق إليها مشدوهًا، كما لو أنّها لا يعرفها، ثمّ ابتلع ريقه وتلعثم: - آنّا... آنّا... - وانفجر في بكاءٍ غزير.

مدّت آنّا يدها نحوه: - هيّا فلنذهب!

هزَّ رأسه بوجهه الذي تلوّى بالشهقات.

- أستور، فلنذهب!

نظّف شقيقها بذراعه المخاطَ الذي سال على شفتيه، لكنّه لم يتحرّك.

- فلنذهب. - ردّدت آنّا.

إلّا أنّ الطفل رجع ثلاث خطوات إلى الوراء، مثل الجمبريّ، واغرق ظهرَهُ بين العظام.

- كلّا، لا أريد...

- هيّا بنا. - حاولت أن تبتسم.

تخيَّلت كلَّ شيء خلال رحلتها، ما عدا أن يرفض أخوها العودة معها. صدمتها المفاجأة فما عادت تستطيع إلّا تحريك شفتيها: - فلنعد إلى السحالي ذات الشعر الطويل.

طأطأ أستور رأسه: - أنتِ شرّيرة. قلتِ لي إنّ الجميع أموات. اكتشفتُ أنّه لا وجود للغيلان، لا وجود للخارج. - عاد يبكي.

أحسَّت آنّا بأزيزٍ يطنُّ في أذنيها. المقلع، والعظام، والدمية المعلّقة كانت تفتل حولها مثل الدوَّارة العوجاء. شعرت بغصَّةٍ في الترقوة. قالت وهي تختنق: - فعلتُ ذلك من أجلك، لكي أمنع عنك رؤيةَ الأشياء القبيحة. فلنذهب، أرجوك، هيّا!

ابتلع الطفل هواءً، وكان الطلاء معجونًا بدموعه ومخاطه، وتنهّد: - لا أريد. هنا يوجد أطفال، مثلي.

انقضّت آنّا عليه: - هذا يكفي! - أمسكته من ذراعه. - أنا أختك، مفهوم؟ أنا مَن يقرّر. - وجرَّته وسط الغبار. - عليك بالطاعة، تبًّا!

حملت إليها الريحُ صفيرًا حادًا. لمحت بطرف عينها الأطفال الزرق يهجمون نحوها.

تحرّر أستور مندفعًا وصعد إلى كومة العظام ثانيةً على أربع.

كان الزرق يشدّونها من شعرها وكنزتها، ويلتصقون بساقيها. سقطت آنّا على الأرض وهم ينهالون عليها لكمًا ورفسًا، وكلّما قام عنها واحدٌ هاجمها آخر. استطاعت بمشقّةٍ أن تجثم على ركبتيها وتنهض. أحاط بها الأولاد من كلّ جانب. تقدّمت خطوتين محاولةً التخلُّص منهم، لكنّهم لا ينفضّون عنها فسقطت ثانيةً وهي تئنّ في الغبار كالمسيح اللاهث.

ثبّتوها على الأرض، من معصميها وكاحليها، بينما كانت الشمس وقت الزوال تعشي أبصارها.

حُجِبَ الضوء بطيفٍ هزيل يسألها بصوتٍ لا نبرة فيه: - ماذا تريدين من مندولين؟ دعيه وشأنه.

- مندولين؟ عمّ تتحدّث؟ - ضيّقت آنّا عينيها فميّزت ظلّ أنجيلكا. كانت مطليّة بالأبيض كليًّا، هزيلةً بحيث تبدو خارجة من تابوت. تتدلّى على نهديها الصغيرين قلادةٌ من عظام تتوسّطها جمجمةُ طير. وكانت ترتدي سترةً أرجوانيّة مفتوحة، وبنطلونًا مموّهًا ومهترئًا مرسلًا على قدميها العاريتين. وأنفها المعقوف يحمل نظّارةً شمسيّة من معدن مذهّب، تخترقها شريطةٌ سوداء تحجب وجنتيها المرتفعتين. شعرها مجعّدٌ مثل التورتيليوني منثورٌ على كتفيها كحشوة المقاعد. اقتربت من أستور المتربّع فوق العظام يرنو إلى الأفق وإبهامُه في فمه. داعبت رأسه، كما يفعل المرء بالكلب وقالت: - أتحدّث عنه.

حاولت آنّا أن تقوم، وسرعان ما انهالت عليها الأيدي الصغيرة:
- لا يدعى مندولين. اسمه أستور. إنّه أخي.
- كم عمرك؟

التفتت آنّا ورأت الدبّ. رأسه المكعّبة محمولةٌ على رقبة قصيرة. ووجهه المطليُّ بالأبيض مسطّحٌ ككفّ اليد، وجبينه ينضح بكوكبةٍ من البثور. لحيته ناعمة ومتّسخة بالمسحوق الأزرق وموصولة بخوذة شعره الأجعد عبْر سالفتيه البرّيّتين. وكان يرتدي كنزة مهترئة كُتِبَ عليها «سأذهب إلى أبعد حدّ، سأذهب إلى المكسيك»، وبنطلونًا قصيرًا من طراز برمودا بمربّعاتٍ خضراء وسوداء، ومربوطًا بخيط، ومرسلًا حتّى عضلات ساقيه الثخينتين ككتل الخبز.

بصقت آنّا على قدميه.

قرفصت أنجيلكا بجانبها والسيجارة تتدلّى من بين شفتيها، وراحت تتفحّصها. مجّت ونفخت غيمة دخان في وجهها ودسّت يدها في بنطلون آنّا القصير.

أطلقت الفتاة صيحةً وحاولت الإفلات من براثن الزرق.
- ابتعدي عنّي أيّتها الحقيرة.

أمسكت تلك زغب آنّا وشدّته. فحصدت بأصابعها عقدةً منه وأخذت تعاينها باهتمام. ثلاثة عشر عامًا، ربّما أربعة عشر.

زأرت آنّا: - أنتما تطليان جسديكما بالأبيض كي تخفيا أعراض الحمّى الحمراء.

تلقّت صفعة. زمّت فمها وتمنّعت عن البكاء.

- اتركوهـا. - أمرهـم روزاريـو، لكنّ الأطفـال لـم يتحرّكوا، ونظـروا إليـه مـن دون أن يفهمـوا. - قلتُ اتركوهـا. - أبعـد أحدَهـم بركلـةٍ منـه فأنهـى الجميـعُ الحصار.

حكَّ الدبّ لحيته الناعمة.

- تقولين إنّه أخوكِ؟

- أجل. - نهضت آنّا على قدميها.

- لا يهمّنـا هنـا إن كنت أخًـا، ابـنَ عـمٍّ أو صديقًـا. - أشـار إلـى الأولاد بتلويحـةٍ مـن ذراعـه - هـؤلاء جميعًـا ينتمـون إلـى البشـردونة. بمـن فيهـم مندوليـن.

- لا تسمّيه مندولين. - شهقت آنّا بأنفها. - اسمه أستور.

- أنت! ما اسمك؟ - توجّه الدبُّ بسؤاله إلى أستور.

غمغم الصبيّ بكلماتٍ غير مفهومة.

وضع الدبّ يده على أذنه: - لم أسمعك. ما اسمك؟

نظر أستور إلى شقيقته، تردَّد قليلًا ثمّ أجاب: - مندولين.

* * *

فـي السـنوات الأربـع الأخيـرة ذاقـت آنّـا آلامًـا قاسـية وتجـاوزت صعابًـا عاتيـة، ومجلجلـة مثـل انفجـار مستودع غـاز الميتـان، وعذاباتٍ لا تـزال ماثلـة فـي قلبهـا. وبعـد وفـاة أبويهـا، سـقطت فـي عزلـةٍ ليس لهـا حـدود جعلتهـا تتبلّـد طيلـة أشـهر، لكنّهـا لـم يخطـر علـى بالهـا إطلاقًـا، ولا لحظـة واحـدة، أن تضـع حـدًا لحياتهـا، لأنّهـا كانـت تشـعر أنّ الحيـاة أقـوى مـن أيّ شـيء. الحيـاةُ ليسـت لنـا، الحيـاة تعبـر مـن خلالنـا. فهـي محكومـةٌ بدافـع الاسـتمرار فـي الحيـاة، مثلمـا يقـاوم الصرصـار ويمـرج علـى رجليـن عندمـا يتعـرّض لدهسـةٍ شـديدة، ومثلمـا

تلوذ الأفعى بجلدها تحت ضربات الفأس وتجرّ خلفها أحشاءها. كانت آنّا في عقلها الباطن تدرك أنّ كلَّ الكائنات في هذا الكوكب، من الحلزونات إلى النوارس، وبما فيها الإنسان، يجب أن تعيش. هذه هي وظيفتنا، هذا ما نُقِشَ في لحمنا. ينبغي المضيُّ قُدُمًا، دون الالتفات إلى الخلف، لأنّ الطاقة التي تجتاحنا لا نستطيع السيطرة عليها، وحتّى لو كنّا يائسين، مهانين، عميًا، فنحن نستمرّ في الأكل، والنوم؛ ونسبح مناهضين الدوّامة التي تجذبنا إلى أسفل. وعلى الرغم من ذلك، تزعزع لديها هذا اليقين في المقلع حينئذ. إذ فتحت تلك الكلمةُ، «مندولين» الملفوظة بنبرةٍ خفيضة، فتحت أمامها آفاقًا جديدةً وأشدّ وضوحًا لفكرة الألم. تملّكها حدسٌ أنّ قلبها تيبّس في صدرها مثل زهرةٍ في أتون فرن، بينما كانت دماؤها التي تملأ عروقها تستحيل إلى رماد.

ابتسم الدبّ مسرورًا. وقهقهت أنجيلكا المتبرّمة. وبدأ الأطفال يقلّدون أسيادهم ويضحكون، كالقردة المدرّبة.

طأطأت آنّا رأسها وانصرفت.

* * *

أستور يواجه الغيلان الدخانيّة

قبل ثلاثة أيّام، كان أستور لا يزال ملكًا على أرض التوت. ملكٌ يعاني من ارتفاع بسيط في درجة الحرارة وتقرّح في سقف الحلق، لكنّ صحّته سليمة بما فيه الكفاية للعب. انخفضت حرارته في أثناء الليل، واستيقظ عند خيوط الفجر الأولى وكان الغطاء مبلّلًا بعرقه.

نسماتٌ منعشةٌ تتغلغل من النافذة تبعث على المتعة ما إن تلامس العنق والكتفين بعد عناء الحرارة المرتفعة.

فرك عينيه، وتثاءب وترنّح حتّى الشرفة. كانت الشمس في الغابة، تعبُّ من الهواء المنعش قبل أن تغرق في القيظ، والسماء فوق رؤوس الأشجار صافية، لكأنّها بيضاء، قاتمةٌ في أعلاها إذ ما زالت تستبقي فضلات الليل.

خلال الصيف الطويل والخانق اكتشف أستور أنّ ذلك هو الوقت الأحبّ إلى قلبه، ويروقه التمتّع به في سلام ووئام. وهو الوقت المثاليّ للطيور أيضًا، التي تتنافس في مسابقة الشدو. يشارك فيها العصفور ونقّار الخشب وأبو الحنّاء والزرزور والغدفان الناشزة. أمّا الطيور الساهرة، كالبوم الأبيض والأسود، فتفضّل النوم في أعشاشها أو مثلما تفعل البومتان بيبو واحد وبيبو اثنان، إذ يسكنان بين دعائم السقف.

تمسّك أستور بأحد قضبان السياج وتبوّل، وركّز تسديده إلى منتصف صفيحة زيت بين الحشائش.

كانت ماما قد كتبت في الدفتر أنّ الحوائج تُقضى في الغابة، بعيدًا عن المنزل، وإذا أردتَ التغوُّط فعليك أن تحفر حفرةً بالرفش أوّلًا ثمّ تردمها. لكنّ أخته لم تكن هناك، فبإمكانه الإقدام على بعض الأشياء، كالتبوّل من الشرفة بالضبط، شرط ألّا يصرّح بفعلته. أمّا الغائط فلا، لم يتغوّط من الشرفة إطلاقًا. لأنّ مؤخّرته لا تمرّ من بين القضبان، هذا أوّلًا، وثانيًا لأنّ الأمر يثير اشمئزازه قليلًا.

نـزل إلـى الأسـفل ووجـد الطعـام الـذي تركتـه لـه آنّـا فـي علبـة كبيـرة. التهـم مرطبانًـا مـن العـدس وانتهـى منـه بجشـأةٍ مسـرورة. رفـع عـن الأرض هاتفًـا جـوّالًا وحملـه إلـى أذنـه.

– آنّـا! آنّـا! أيـن أنـتِ؟ متـى سـتعودين؟ – سـأقتل غـولًا وأعـود حـالًا. – أجـاب علـى نفسـه بغنّـةٍ أنفيّـةٍ تشـبه صـوت شـقيقته إلـى حـدٍّ مـا. – عثـرتُ علـى الشـوكولاتة، هـل تريدهـا؟ – طبعًـا. وأريـد البطاطـس المقرمشـة أيضًـا. – ثـمّ اتّصـل بالسـحالي ذات الشـعر الطويـل. – مرحبًـا! لقـد اسـتيقظت! نلتقـي فـي الغابـة. سـأصل بعـد قليـل. – رمـى الجـوّال وعـاد إلـى الأعلـى.

دخـل إلـى الحمّـام، وصعـد علـى كرسـيٍّ صغيـر ورنـا إلـى نفسـه فـي المـرآة.

كان فـي كلّ مـرّةٍ يكتشـف شـيئًا مثيـرًا للاهتمـام فـي منخاريـه اللذيـن يدسّـهما بمقبـض المكنسـة، وفـي لثّتـه الزهريّـة التـي تصبـح بيضـاء إذا ضغـط عليهـا كثيـرًا، وفـي أذنيـه اللذيـن إذا أثناهمـا يعـودان إلـى موقعهمـا ويطقطقـان. وكان يلطـم بطنـه كأنّـه طبـل، ويمسـك عصفـوره بيـده ويخفـض غرلتـه. فيخـرج رأس عصفـوره، بحسـب الضـوء، رطبًـا كشـرغوف زهـريّ، أو أفعـى عميـاء أو بيضـة عصفـور.

وفـي ذلـك اليـوم، تركّـز انتباهـه علـى حاجبيـه. مـا الفائـدة منهمـا؟ مـا الحاجـة إلـى امتـلاك غابتيـن صغيرتيـن متشـابهتين تفصلهمـا صحـراءُ الجبيـن عـن غابـة شـعره الكبيـرة؟

فتـح الـدُّرج الأبيـض المشـمَّع، وسـحب مـن بيـن العلـب شـفرةَ بيـك وحلقهمـا. – هكـذا أفضـل، قـال لنفسـه. – صـار لديـه مـكانَ الحاجبيـن بقعتـان باهتتـان تجعلانـه يشـبه السـحليّة.

كان يخبّئ مفتاحًا سرّيًا في علبة أسبيرين. لا تعرف أخته أنّه وجد بين المفاتيح واحدًا يفتح قفل غرفة أمّه. دوّرها في الثقب وأشرع الباب. ظلام. أزاح ستارةً فتلوّنَ الحائط بخيط ضوء.

تكمن حيلته التي تمنع افتضاح أمره في إعادة الأشياء مثلما كانت والحرص على إبقاء الغبار على حاله. لكنّه لم يمسّ هيكل أمّه العظميّ إطلاقًا. كانت آنّا هي التي زيّنته بتلك المجوهرات، واقتصر دور أستور على إسداء المقترحات.

أخرج من المكتبة «كتاب الديناصورات الشامل». جلس على الأرض، تحت الضوء، وبدأ يتصفّحه. كان يعرفه عن ظهر قلب، لكنّه يكتشف تفاصيل جديدة في كلّ مرّة: مخلبٌ فريد من نوعه، ذيلٌ شائك، لونُ ريشة.

وكانت أخته تقصّ عليه أنّها رأت الكثير من هذه الديناصورات في أثناء رحلاتها إلى «الخارج». الغيلان الدخانيّة تسمّمك بروائح أفواهها الكريهة، لكنّ الديناصورات قادرة على التهامك بأكملك. هو أيضًا كان يلمح أحدها حين يتسلّق شجرةً عند حدود الغابة. ديناصوره المفضّل هو الهيثرودونتوصور: صغير الحجم أكبر من قطّ، بنفسجيٌّ بالكامل، بوزه كالمنقر وذيله مدبّبٌ وجميل. ولا يبدو في الرسم شرّيرًا.

اتّبع بسبّابته الأسطرَ المكتوبة، واجتهد في القراءة بصوتٍ عالٍ: – كان للهيثرودونتوصور ثلاثة أنواع من الأسنان. الأسنان الأماميّة، صغيرة، تساعده على اقتلاع الأوراق. وتلك الخلفيّة، المسطّحة، تفيده في المضغ. وكان للذكور سنّان طويلان إلى جانب الشدقين. – ثمّة سؤالٌ في زاوية الصفحة بمربّعٍ أصفر: – وأنت، كم نوعًا من الأسنان لديك؟

تلمَّس أسنانه ولاك: - لديّ أسنانٌ طبيعيّة وأسنانٌ توجعني.
وقعت أنظاره على الخزانة. دفّتها مواربة. في داخلها ثيابٌ معلّقة لوالدته. أحدها أطول من البقيّة، من لون الهيثرودونتوصور نفسه. اقترب وحكَّ عنقه. إن اكتشفت أخته أنّه دخل الغرفة ولمس الثياب تعرَّضَ للتوبيخ حتمًا. عليه أن يكون متيقّظًا.
صعد فوق كرسيّ وتشمَّمَ الرائحة الآتية من داخل الخزانة. تشبه رائحة السكاكر الخضراء التي تلذع أنفك حين تمصّها. إنّها رائحة أمّه.
مدّ جذعه وأنزل الثوب عن الشمّاعة. قفز أسفل وقارنه بلون الرسم. متطابق.
ارتداه ونظر إلى نفسه في المرآة. ممتاز، أهداب الثوب تشكّل الذيل، وفتحة الصدر تصل حتى سرّته. وجد أحذيةً مرتّبة في الطبقة السفليّة من الخزانة.
أخرج حذاءً أحمر طويلًا مزوّدًا بحزام. انتعله، فما وجده مريحًا، لكنّه كان سيفتك بالثعابين بذلك الكعب الطويل والمدبّب.
فتل على نفسه بذراعين مفتوحتين، كما لو أنّه يتوازن على عارضة. ثم رفع الثوب على رأسه ليغطّي وجهه. - عررررر... عررررر... - خار مقلّدًا الهيثرودونتوصور. - والآن سأقضي عليكم جميعًا...
وهكذا راح يسحل بكعبين عاليين، شبه أعمى، أغلق الباب وأعاد المفتاح إلى مخبئه ونزل السلالم. قطع الصالون وهو يتزحلق وخرج إلى الشرفة. كان يحرّك أصابعه كالمخالب الباترة:
- ها أنا ذا، حذارِ...

ما هذا؟

بدا لـه أنّـه يلمح شيئًا مـن خـلال النسـيج الرقيـق الـذي يحجـب عنـه الرؤيـة: شـكلٌ أسـود يتحـرّك فـي البعيـد.

- آنّـا! هـل عـدتِ... سـأعيد الثـوب إلـى مكانـه علـى الفـور. - كشـف وجهـه. - لـم أمزّقـه...

هناك أشكالٌ بشريّة وسط الدرب المطوّق بشجيرات البقس.

أغمض أستور عينيه، وفتحهما، أرخى شدقه وتشنّجت عضلات وجهه بتكشيرة هلع.

ثمّـة فتيـان كبيـران مطليّـان بالأبيـض، أحدهمـا يدفـع عربـة، والأطفـال المطليّـون بـالأزرق جميعًـا يتقدّمـون نحـوه.

تكثّف الرعب في جسده. وتراصّت مئةُ الألف مليار خليّة التي تكوّنـه واحـدةً علـى الأخـرى مثـل عـشّ الفـراخ. انعصـرت معدتـه، وتجعّـدت رئتـاه مثـل كيـس الخبـز إذا أُمسِـكَ فـي قبضـةٍ واحـدة، وفقـد قلبـه بعضًـا مـن نبضاتـه وارتخـت مثانتـه.

أخفـض أسـتور رأسـه. السـائل الدافـئ يقطـر علـى سـاقيه. وقـد بلّل بـه ثـوب أمّـه.

اقتربت تلك الأشكال أكثر فأكثر.

قرّر أن يغلق عينيـه ويعـدّ حتّـى سـتّة. كان بارعًـا فـي العـدّ حتّـى سـتّة.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة.

فتح عينيه ثانيةً.

اقتربـوا منـه أكثـر. بينهـم صغـارٌ ليسـوا ملوّنيـن بـالأزرق تمامًـا، إنّمـا يبـدون أنّ اللـون يغطّيهـم، وكانـوا يزعقـون بأصـواتٍ غريبـة.

أشباح.

استطاعت أشباحٌ الدخولَ إلى الغابة السحريّة، لأسبابٍ كان يجهلها. فقد روت عليه آنّا أنّهم لا يؤذون، مخلوقون من الهواء، من لا شيء. غبارٌ حيواتٍ سابقة. ماذا يمكن أن يكونوا؟ ففي العالم لا يعيش أحدٌ سواه، وشقيقته وحيوانات الغابة. فلا بدّ أن تكون تلك أشباحًا. قرّر أن يتجاهلها وأن يدخل إلى المنزل، لكنّه اكتشف أنّه كان مشلولًا. لا يتمكّن من تحريك شيء، سوى انقباض فتحة الشرج. اجتاحت القشعريرة فروة رأسه. وبات شعره المنتصب يهتزّ كلواقط الإشارة.

أشار إليه الشبحان الأكبران، الذكر والأنثى.

لقد رأوني.

لم تحمله ساقاه فسقط أستور على وجهه، متصلّبًا كالدمية، مخلّفًا حذاء أمّه الأحمر وراءه ليرتطم جبينه بالأسمنت. وظلّ هكذا، على حافّة السلّم، ممدود الذراعين، كمؤمنٍ ساجدٍ في حضرة آلهته.

سارت بجواره أقدامٌ متّسخة، أظفارٌ سوداء، أحذيةٌ مهترئة، كواحلُ مخدوشة. طفلان يدخلان المنزل بسرعة، ويمرّان فوقه كما لو كان سجّادة الباب. لم يتصدّق عليه أحدٌ بنظرة أو بكلمة.

ماذا لو كنتُ أنا الشبح؟

أُجهِضتُ الفكرةُ على الفور، مصعوقةً بنبض الدماء في الصدغين. لم يتحرّك من مكانه عندما سمع الأصوات تدويّ في الصالون وأدرك أنّ الأشباح تتكلّم مثله.

- انظرْ، كم يوجد من أشياء هنا! - قال أحدهما.

- سأصعد إلى أعلى. - قال الآخر.

كانت حيلة أستور هي أن يتركهم يفعلون ما يشاؤون، وألّا يزعجهم، وأن يكون طيّعًا لهم. فمثلما ظهروا كانوا سيختفون. لكنّه كلّما ردّد في نفسه بعدم وجوب التحرّك، استمرت رغبتُه في رؤيتهم. كان الخوف والفضول يتصارعان في روحه، وانهزم الخوف في النهاية.

وقف أستور على قدميه واقترب من الباب بخطوات متباطئة، ممسكًا أهداب الثوب البنفسجيّ بيديه كأنّه أميرةٌ من القرن التاسع عشر. رأسه يتمايل يمنة وشِمالًا، حتّى بدا دميةً عنقُها على شاكلة النابض.

أعجبه أولئك الأطفال الزرق كثيرًا، كانوا يذكّرونه بالفئران التي تسرح وتمرح في الليل وتفعل ما يحلو لها. كانوا يتراشقون بالأغراض، ويتسلّقون على رفوف المكتبة، ويقفزون على أكداس القمامة. ركب أحدهم سيّارته اللعبة وظلّ الآخر يدفعه حتّى صدمه بالجدار. وأحدهم يجمع الأشياء ويضعها في كيسٍ أصفر معلَّقٍ تحت إبطه.

كان أستور مفتونًا يتأمّل السطوَ كما لو أنّ المنزل ليس منزله. تكتظّ حدقتاه بأفواهٍ وأنوفٍ وأعينٍ وأيدٍ وتعابير وجوه غريبة، وأعضاء، ومؤخّرات ملوّنة، وحركات وألفاظ لا يفهمها. كان مستندًا إلى حافة الباب، يتلمّس عصفورَهُ سارحًا وينظر في صمتٍ إلى أعظم مشهدٍ في حياته.

وفي لحظة معيّنة، خرج أحد أولئك النموس الزرق حاملًا دمية الكلب الضخم، فوكزه وطرحه أرضًا. وظلّ على الأرض مبتسمًا.

أمّا الفتى البدين المطليّ بالأبيض، المزيَّن بقلادةٍ من العظام على صدره، فكان جالسًا على كرسيّ وبين يديه مندولين آنّا. قال لأستور: - أهذا منزلك؟

كان قبيحًا جدًّا. ساقاه غليظتان كجذع الشجرة، وبطنه منفوخ، وشعره غزير ولديه زغبٌ طويل ينبت على ذقنه أيضًا.

- هل تفهم ما أقول؟

حدَّق إليه أستور ساكتًا.

صاح الشبح نحو السلالم: - وجدنا واحدًا لا يجيد التكلُّم.

ردّ عليه شبحٌ من فوق: - تعال وانظر ماذا لديهم هنا. في منتهى الجمال.

لا بدّ أنّه دخل غرفة أمّه. في منتهى الجمال بالتأكيد، هيكلٌ عظميٌّ ملوَّن.

تشرَّخ صدعٌ أرفعُ من شعرةٍ في يقينه، وتوسّع متّبعًا مسارًا ذهنيًا معقّدًا لكنّه سليم، وانبلجت الرؤية دفعةً واحدة. أدرك أستور أنّ هؤلاء ليسوا أشباحًا، إنّما أحياءٌ مثله، مثل شقيقته، ومثل حيوانات الغابة.

ليسوا شفّافين مثل الأطياف، ثمّ إنّ رائحةً كريهةً تنبعث منهم، يحملون الأغراض بأيديهم، يشربون، يتكلّمون، يكسّرون سيّارته اللعبة. أسعده هذا الإدراك، وأثلج صدره بخاطرٍ جديد: ثمّة كائنات بشريّة أخرى على قيد الحياة. نجوا من الغيلان الدخانيّة، والديناصورات، والغازات المميتة. سوى أنّه تأسّف لعدم وجود آنّا لكي يُطلِعها عليهم.

بلع ريقًا وفحَّ بحرف الهاء: - هـ هـ هـ ... - سحب نفسًا وأنهى الجملة: - هل أنتم أحياء؟

انفجر الفتى البدين بضحكةٍ مجلجلة: - وقتًا قصيرًا. لن نطيل البقاء في هذه الحياة. - توجَّه بكلامه إلى فوق: - أنجيلكا، كنتُ مُخطئًا، إنّه يجيد الكلام. - ثمّ أشار إلى أستور بالاقتراب: - تعال هنا.

انصاع أستور لذلك الأمر كما لو أنّه مُنزَّلٍ من عند إله.

ابتسم له الفتى البدين وصفق على فخذيه: - هنا.

جحظت عيناه الغامقتان بينما تولّى وجهَه الفزعُ.

- لا تخف. - مدّ الإله يده إليه.

عاينها الطفل، يدٌ غليظة، عريضة، وأظفارها ثخينة وصفراء. نكزها بإصبعه الوسطى، متردّدًا، كما لو أنّه يخشى أن تصعقه.

- أرأيت؟ إنّني من لحمٍ وعظم.

نظر أستور إلى كنزته المكتوب عليها: «سأذهب إلى أبعد حدّ، سأذهب إلى المكسيك».

- المكسيك... - تأتأ.

هزّ البدين رأسه متعجّبًا: - أوووه... وتجيد القراءة أيضًا؟ شاطرا - أمسكه من خصره ووضعه على حضنه.

كاد الولد يغمى عليه. رأسه يثقل عليه كأنّه من فولاذ، لكنّ أفكاره في الداخل كانت خفيفةً كالغاز وتنصهر الواحدة في الأخرى. نظر حوله. كان الزرق يتشاجرون من أجل شال. تفحّصَ فيمن كان يُجلِسه على ركبتيه، وزغبه الذي على ذقنه، والمسحوق الأبيض الذي يحجب خدّيه.

- هل أنتم طيّبون؟ - سأله.

شبكه بقوّة كما لو أراد تقييم وزنه.

- مَن علّمك القراءة؟

- آنّا.

- بارعة آنّا. هذه أوّل مرّةٍ أجد فيها طفلًا يجيد القراءة. أنا اسمي روزاريو. وأنت ما اسمك؟

- أستور.

- ما هذا الاسم التافه. - أشار إلى المندولين. - هل تعزف عليه؟

أمسك الطفل الآلة ونقر على الوتر الوحيد الذي بقي فيها.

- هل تعرف ما اسم هذه الآلة؟ - سأله روزاريو.

- غيتار.

- لا، هذا ليس غيتارًا، هذا مندولين. - حنى رأسه ونظر إليه. - حسنًا... سأسمّيك مندولين، هذا يعجبني أكثر. - أعاده إلى الأرض وصاح بصوتٍ جهير. - أنجيلكا، علينا أن نغادر، تأخّر الوقت. - أدخل يده في جيبه وأخرج منها شوكولاتة مارس، نزع غلافها، ووضعها بين أسنانه، ونظر حوله كأنّه يبحث عن شيءٍ ينهبه.

نزلت أنجيلكا من السلالم مغطّاةً بالمجوهرات مثل عذراء ترابانى. وكانت جمجمة ماريّا غراتزيا زانكيتّا في يدها.

خرج الجميع من المنزل، صغارًا كبارًا، محمَّلين بالأغراض.

وجد أستور نفسه مثل فرخ البطّ يتبعهم. لم يخطر على باله أيُّ تساؤل، كان يمشي وسط الآخرين، حافي القدمين، يجرجر خلفه الثوب. كان قد نسي كلّ شيء: آنّا، المنزل، وذاته.

ركض الزرق إلى الأمام، لكنّه ظلّ بجانب روزاريو الذي كان يدفع العربة المملوءة بالأغذية ويدخّن سيجارة. توقّفت أنجيلكا، عاينت الجمجمة ثمّ رمتها بين الحشائش بقذفةٍ قويّة.

ركض أستور وحملها عن الأرض.

- هذه أمّي.

- ارمها.

تجاوز الزرق البوّابة. وتابع روزاريو سيره فيما توقّفت أنجيلكا تنظر إلى أستور الذي ظلّ واقفًا وسط الدرب، والجمجمة بين يديه، يشبه لاعب كرة سلّة مستعدًّا لتنفيذ الرمية الحرّة.

- تحرّك. - أمرته.

بقي أستور يحدّق إليها متبلّدًا.

كان «الخارج» بالنسبة إليه يقع بعد ذلك الحدّ تمامًا، ولا يمكن له اجتيازه، وإلّا مات مخنوقًا.

- تحرّك. - ردّدت الفتاة.

أومأ مستنكرًا برأسه.

توجّهت أنجيلكا إلى روزاريو: - لا يريد أن يأتي.

توقّف وأسند العربة ومجّ من السيجارة آخرَ أنفاسها ثمّ رماها.

- مندولين؟ ما بك، ألن تأتي؟

أستور لم يتحرّك.

عادت الفتاة رافعة عينيها نحو السماء وأمسكته من معصمه.

تقدّم الصغير خطوتين ثمّ غرس قدميه في الأرض وهو يئنّ معترضًا.

دفعته أنجيلكا، فتدحرجت الجمجمة بين الأعشاب.

- هيّا تعال أيّها الغبيّ! - زجرته، وأبرزت أسنانها المتفرّقة والحادّة التي تنتأ من لثّتها السوداء. أمسكت رقبته، لكنّ أستور نشب قواطعه في ذراعها.

صاحت الفتاة ولطمته بظاهر يدها الأخرى فقذفت به أرضًا.

- سأريك الآن ماذا أفعل بك...

أستور لم يفهم. لا يمكنه تجاوز البوّابة. هل يريدون له أن يموت؟ أحسَّ بالبكاء يتجلّط في حنجرته. رفع يديه ليدافع عن نفسه لكنّ أنجيلكا باغتته بركلة على قفاه.

حاول الطفل أن ينهض، تعثَّر، سار بضعة أمتار على أربع، ثمّ نهض واقفًا. أرجحَ ذراعيه وساقيه فقفز فوق أجمة أزهار النسرين وراح يعدو هاربًا.

رحّبت به الغابة.

كان يسمع من خلفه صفيرًا وصياحًا وصوتَ روزاريو: - أمسكوه! أمسكوه!

فيما يناور أستور بين شجيرات الآس الشائك الذي يتشبّث بثوبه البنفسجيّ، ويدوس بقدميه على عقد الأغصان المتساقطة، ويثب على الصخور التي اعتلتها الطحالب، ويغوص بساقيه في الطين.

من الصعب أن يمسكوه، فهو الآن في مملكته، هناك حيث وُلِد، داخل تلك الهكتارات الأربعة التي استكشفها سنتمترًا في إثر سنتمتر، وعرف حفرها وجحورها وأشجارها التي تسلّقها. قد يكون أولئك الأولاد مخلوقات عجيبة، ولكنْ لا أحد منهم يعرف الغابة أفضل منه. سوى أنّ ذلك الثوب الملعون يعيق حركته. فلت

منه مثلما يبدّل الثعبانُ جلده، واستأنف الركض بسرعة أكبر، عاري الجسد، إلى حيث تتشابك الأغصان.

كانت الشمس تتسلّل إلى تلك القبّة الخضراء لتبقّع ما تحت الأشجار بآبارٍ من الضوء الذهبيّ، حيث تحوم أسراب الذباب بين الجذوع. مرَّ أستور وسطها، فاغر الفاه، فدخل بعض تلك الحشرات إلى حلقه.

التفت.

أحسنت، لقد خدعتَهم. همست له السحالي ذات الشعر الطويل من فوق أحد الأغصان.

أصيب بالصمم من هول أنفاسه ودويّ قلبه الخافق في صدره، فجلس على صخرة وأزال شوكةً من كعبه.

كان قد ابتعد كثيرًا عن المنزل جرّاء ركضته المنهِكة، فوصل إلى منطقةٍ مفتوحة، قريبة من «الخارج». هناك حيث ابتلعت النيرانُ الأشجار الشابّة، ولم يبق سوى جذوعٍ متفحّمة وأوتادٍ مثلّمة وشبكة السياج المعدنيّة وقد اعوَجّت برمتها. صمدت سنديانةٌ مغضّنة وسمراء بوجه النيران؛ كانت تمتدّ ما بعد الحدّ حيث أحرقت ألسنة اللهب أصابعها.

وبعد أن هدأت عاصفة الأفكار، تفحّص أستور جروحه. خطوطٌ حمراء على فخذيه وعضلة ساقيه وجلد بطنه الرقيق. لم تكن توجعه حينذاك، إلّا أنّه سيشعر بها بعد قليل.

كان متيقّنًا من أنّه فلت منهم، لكنّه أخطأ.

انتبه إليهم لأنّ اللون الأزرق يتبدّى في المنظر المجبول من البنيّ والأخضر.

لا يوجد أيُّ حفرةٍ يختبئ فيها.

على الشجرة.

شبك الجذعَ وبقفزةٍ رشيقةٍ تشبَّثَ بالغصن الأوّل، ومنه انتقل إلى غصنٍ آخر وآخر فآخر. ولم يتوقّف إلّا عندما فكّر في أنّه صار صعب المنال.

كان الزرق يشيرون إليه من الأرض.

تسلّق اثنان منهم السنديانة مثلما فعل هو تمامًا.

حاول أستور أن يقفز مزيدًا إلى أعلى، لكنّ الشقَّ الثاني كان بعيدًا عنه. فدفعه اليأس إلى السير بذراعين ممدودتين على غصنٍ سرعان ما غدا أضعف من أن يحمله. فقرفص ممسكًا الأغصان اليابسة يكزّ على أسنانه.

وفي الأسفل وصل روزاريو وأنجيلكا أيضًا.

– مندولين، ماذا تفعل؟ ألا تريد المجيء معنا؟ – قال له الفتى البدين. – سنأخذك إلى البشردونة.

انطلق نحوه المطارِدان على أربع، برشاقةٍ تضاهي قرود المكاك.

تراجع أستور، وكان الغصن بين ردفيه يتمايل، ثمّ ألقى بنفسه، من دون أن يأخذ بالحسبان الارتفاعَ والأذى الذي كان سيسبّبه لجسمه ناهيك بأنّه سيقع في أيدي أعدائه بسهولة. تشقلب في الهواء نصفَ شقلبةٍ متخبّطة وانتهى إلى جانب بساطٍ من الأعشاب الطريّة بما فيه الكفاية لعدم انكسار ظهره.

كان رأسه ينبض كما لو أنّهم وضعوا قلبه مكانَ دماغه، في حين أنّ صعقاتٍ ضوئيّةً صفراءَ ترجم حدقتيه. وكان مذاق العدس الحامض يعربد على لسانه. استطاع أن يقف على قدميه.

رأى العالـم حولـه يتمـاوج: الشـمس مـا بيـن أوراق السـنديانة المصفـرّة. الغابـة. روزاريـو. أنجيلـكا. الأطفـال الـزرق. الحقـول المحروقـة. وبقايـا السياج.

لقد أصبح في «الخارج».

ففـر شـدقه بصيحـةٍ صامتـة، وضـع يديـه على عنقـه وسـقط على ركبتيه.

ظـنّ أنّ الهـواء السـامّ، الغـاز الخفـيّ، يتغلغـل فـي مسـامه، وفـي ثقـب أذنيـه، وأنفـه ودبـره. لـم يعـد يسـتطيع التنفّـس. كان يمـوت. يستنشـق السـمَّ لاهثًـا. وكانـت الغيـلان الدخانيّـة فـي البعيـد تتقـدّم بخطـوات ثقيلـة تهـزّ الأرض، عمالقـة كالجبـال وهائلـة كالخـوف الـذي يخنقـه. بُـمْ. بُـمْ. بُـمْ. وصلـوا إليـه. سـيموت علـى الفـور. سـيلتحق بـكلّ النمـل والجـراد والسـحالي التـي قتلهـا. سـيذهب إلـى أمّـه، أينمـا كانـت.

كان روزاريـو واقفًـا قبالتـه. يتحـدّث إليـه، ويـداه علـى جانبيـه، ويهـزّ رأسـه. لمـاذا يضحـك؟ مـا مـن داعٍ للضحـك.

كان أسـتور مشـوّشًـا بطنيـن الملاييـن مـن النحـل، ومـع ذلـك تناهـت إلـى سـمعه دفقـةٌ مـن الكلمات.

– مندولين، هل أنت تموت الآن؟

جحظ عينيه وأومئ بنعم برأسه.

– متأكّد؟

رفع الطفل ذراعه نحو الشمس: – إنّهم آتون...

– مَن هم؟

- الفيـلان... - وهـوى بأحـد جانبيـه علـى الأرض، يكـزّ أسـنانه ويُصـدِر أصواتًـا بلعوميّـة.

- ماذا يفعل؟ - سألت أنجيلكا.

- ليـس لـديّ أدنـى فكـرة. - توجّـه روزاريـو نحـو الأولاد الذيـن تجمّعـوا حـول أسـتور. - هيّـا، احملـوه فقـد تأخّـر الوقـت.



7.

- توقّفي. توقّفي قليلًا.

كانت آنّا تصعد مشدودة القبضتين المنحدرَ الواصل بين المقلع والفندق، يتبعها بييترو.

- إلى أين تذهبين؟ توقّفي.

أسرعت الخطى.

حاول بييترو الاقتراب منها.

- تمهّلي.... - وضع يده على كتفها - آنّا!

تخلّصت منه بقوّة وتشبّثت بركام الصخور التي تحجب منعطفًا خلفها. غاصت قدماها في الأرض، سارت خطوتين ثمّ جثمت على ركبتيها مقطوعة الأنفاس.

- آنّا، هلّا سمحتِ لي بالكلام؟

- ماذا تريد؟

ابتلع بييترو ريقه: - أنجيلكا كانت هناك... لم يكن باستطاعتي الظهور. سنستردّه ليلًا. أعرف أين ينامون.

تصدّعت شفتيها بابتسامةٍ حادّة.

- نستردّ مَن؟

- أخوكِ. ننتظر هبوط الليل ونستردّه. أنا وأنتِ. أعدكِ بذلك.

ثنت آنّا رأسها جانبًا، كما لو أنّ بييترو يتحدّث بلغةٍ أجنبيّة.

- أنت دجّال. لا بل جبان. وعمّ تتحدّث؟ أنا وأنت؟ مَن أنت أساسًا؟ وما الذي تريده منّي؟ - كانت نبرة صوتها تعلو وتشهق. -

هل أنا أعرفك؟ هل نحن صديقان؟ شقيقان؟ - دفعته عنها فوقع بييترو على قفاه. - دعني وشأني، هذا أفضل، فأنا شرّيرةٌ أكثر من أنجيلكا. اذهب وابحث عن الحذاء، هيّا. - تسلّقت على أربع، وتجاوزت الركام الصخريّ واستأنفت المشي.

لم يتبعها بييترو. صاح قائلًا: - أنا مَن جاء بكِ إلى أخيكِ. وقد خرجتِ بتلك الطريقة... حاولتُ إيقافكِ لكنّكِ...

سدّت آنّا أذنيها.

ذلك الجبان لم يساعدها. وإن كانت آنّا تكره أحدًا فإنّما تكره الجبناء.

* * *

اجتازت الفندق وسارت في دربٍ يهبط على منحدر التلّ ويرزح تحت الضباب.

عليها أن تمحو من ذهنها أستور وبييترو وتمضي في سبيلها. تصوّرت قلبها يحتجب بالوحل مثل خليّة نحل يذود عنها بعوضٌ عملاق.

والآن بإمكانكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ. أنتِ حرّة.

هبّت الريح فاتّضحت أمامها الرؤية. على أحد المنحدرات الممتلئة بالقمامة المحترقة، ثمّة ثلاثة أحواض أسمنتيّة يتدرّج بعضها في بعض، ومحاطة بنخيلٍ ملفوفٍ بالبلاستيك الأزرق وثلاث صخور مصفرّة. الحوض الأسفل، المختنوق بعباءةٍ من بخار، ممتلئٌ بمياهٍ تنبعث منها رائحة البيض النافق. وهنالك جدولٌ من ماء مصفرٍّ ومغليّ ينبع من أحد الأنابيب الأسمنتيّة ويصبّ في المسبح ويكسو جوانبه بقشرة الكلس. رؤوسٌ تبرز وتختفي بين أدخنة البخار كالثعابين في مرفأٍ ضبابيّ.

نزلت آنّا السلالم، مرورًا بجانب مجموعةٍ تنام حول رماد موقد نار. حملت قنّينة نصف ممتلئة بسائلٍ أسود، يشبه السائل الذي رأتهم يوزّعونه في المدرج.

تعرَّت من ثيابها وكدّستها وخبّأتها خلف صفٍّ من البراميل. جلست على حافّة الحوض وألقت بنفسها فيه. اعتصر الدفءُ صدرَها وبثّ أشعّته في عضلاتها المتراخية، وانتزع منها تنهيدةَ متعة. ثمّة دكّةٌ صغيرة في الأسفل، تحت نصف متر. جلست عليها وتركت رأسها خارجًا. تشبّثت بالقنّينة، فيما كانت ساقاها ممدودتين، ورقبتها مستندة إلى الجدار، والماء يخضُّ في أذنيها. انسكب المزيجُ مكثَّفًا في معدتها. كان حلوًا ومرًّا.

كانت تسمع همهمة المستجمّين الآخرين، والعصافير على الأشجار، والريح ما بين النخيل.

لقد أصبح أستور كبيرًا، ومضى في شأنه. لم يعد يريدها.

هكذا أفضل.

- ماذا يسمّونه؟ مندولين؟ - همست مبتسمةً.

كان السائل الأسود يؤدّي مفعوله. لا يعوم في الماء فحسب، بل في داخلها أيضًا.

دنت منها بعض الرؤوس كأنّ التيّار يجذبها وتراصّت حولها.

كان جفناها متثاقلين، وتحت ذلك البخار المتلألئ لم تعد تميّز الوجوه. تبدو مثل وجوه الفقمات.

دقّ ناقوس الخطر في دماغها المتكدّر، لكنّها لم تصغِ إليه، إذ ضاقت ذرعًا بتشديد الحراسة.

انتزعوا القنّينة من يدها. أرادت أن تعترض، لكنّ الكلمات لم تخرج من فمها. فكّرت أن تبتعد لكنّ العمليّة بدت لها مضنيةً وشاقّة. أغمضت عينيها. انتشت وتجرّدت عن كلّ شيء، حلمت أنّها تمسك أفكارها الحزينة، تكوّرها وتلقيها في نفقٍ مظلم.

كانت الشمس تدمغ غيوم الكبريت بهالة نور. وكان الدفء المنبعث من قاع المسبح يحمل إلى الأعلى ترابًا وأعشابًا مائيّة وفقاعاتٍ متكاسلة. خُيِّلَ إليها أنّ الحافّة المواجهة تتباعد وأنّ الحوض يصبح قِدرًا كبيرةً مملوءةً بحساءٍ مغليٍّ وضع فيه الطاهي كلَّ ما لديه.

كانت أمّها في أعياد الميلاد تحضّر التورتيلّيني باللحم المسلوق والبطاطس. وها هي تضع الإناء على المائدة. «هذه الطبخة شعبيّة في باسّانو». وتسكب لها في الطبق كثيرًا من الضفادع الخضراء التي تعوم في الحساء المبقّع بالزيت.

كانت تتأوّد في داخل جسمها، وتسقط فيه، وتتماوج ببطء مثل ريشةٍ في بئرٍ جدرانُها من لحم، وتجد نفسها في كهفٍ ساخنٍ ووسيع. وإذا نظرتْ إلى أعلى، فوقها، وجدتْ فتحة مدوّرة وقاتمة تنتهي في فمها. وكانت ترى جولان الغيوم من بين الأقواس التي تشكّلها أسنانُها.

وكان أولئك الذين يحيطون بها يزحفون حولها، فيما يدهن أحدهم وجهها بالطين ويحدّثها بصوتٍ ملتوٍ كأنّه خارجٌ من أنبوب. كانت تشعر بأصابع على أنفها، وخدّيها، وشفتيها. يحفرون أخاديد على جلدها مثلما يفعل نصل المحراث في الأرض المبلّلة.

– أريد أن أشرب. – غمغمت وهي تبصق الماء النتن الذي يملأ فمها المـوارب.

بدا لها المزيجُ آنذاك مالحًا. وكان الضباب يغيّر لونه، من الرماديّ إلى الأخضر ومن الأخضر إلى الورديّ.

- أنتِ جميلة. هل جاءكِ الحيض؟ - سألها صوتٌ ما.

لم تكن قادرة على التحدّث. فالكلمات تصل إلى حلقها من دون القوّة اللازمة لتصبح أصواتًا. الكلمات تتراكم في فمها كمجوهرات الفضّة ذات المذاق الحادّ. كانت تشعر بوخز الخواتم والأقراط المسنّنة على لسانها. رفعت يدها. أحسّت بأنّها شفّافة. تجري عروقٌ ذهبيّةٌ تحت جلدها ما بين أحزمة التبن المحصود للتوّ.

- أنتِ جميلةٌ جدًا. - همس الصوت.

انفجرت آنّا ضاحكةً.

كانت الأيدي تنساب على ساقيها ومعدتها، وتعصر نهديها وحلمتيها. والأصابع تستكشف فمها باحثةً عن لسانها، تشدّ شفتيها، في حين كانت أصابعُ أخرى تنغمس ما بين فخذيها. قوّست ظهرها، وتشنّجت وبسطت ذراعيها فتمسّكت بعنق أحدهم، أغرقت وجهه المحاط بالشعر المبلّل وخدشت ظهره. كانوا يتنفّسون في أذنيها، ويضغطون شفاههم على شفتيها. ثمّ بدؤوا ينازعونها. يفسخون ساقيها ويمسكونها من قدميها ويثبّتونها من إبطيها. صرخت عندما عضّوا حلمتها بقوّة، إلّا أنّ يدًا سدّت فمها. استفاق وعيُها بانتفاضةٍ غاضبة، وبدأت آنّا ترفُس وتهيّج ذراعيها وتملص منهم وهي تشهق وتبتلع الحساء الذي نزل في حلقها فاترًا وعفنًا. سعلت وتشبّثت بأطراف الحوض وتمدّدت على الحساء، سوى أنّ أسنانًا عضّت عضلة ساقها محاولةً أن تستعيدها.

مدّت آنّا ذراعيها وغرست أصابعها في الأرض. ثمّ أوغلت كعبها في أنف أحدهم واستطاعت أن تخلّص نفسها وسط اعتراض الجميع.

وقفت على قدميها لاهثة الأنفاس وقد أعياها ارتجافٌ شديد، فأحكمت يديها على بطنها، وما انفكّت تسعل وتبصق. كانت الأبخرة تتصاعد من جلدها الورديّ كما لو أنّه يغلي. مشت بضع خطوات حائرةً في البرد، تفرك صدرَها، وتصطكّ أسنانُها. واتّجهت نحو البراميل حيث خبّأت ثيابها لكنّها لم تجدها.

استندت إلى جدارٍ وفغرت فمها لتتقيّأ دفقةً ساخنة وحامضة بلّلت قدميها. وسرعان ما شعرت بتحسُّن، لكنّ رأسها ما زال عرضةً للدوار ولم تستطع التخلّص من نوبة الرعاش. ركضت حول المسبح تتعثّر بالأجساد. وجدت كنزة حمراء مهترئة تصل حتّى ركبتيها. برمت كمّيها. وانتعلت حذاءً واتّجهت نحو السلالم وهي تتخبّط.

كان عنقها ينحني إلى جانبٍ فتحاول تعديله بالميلان نحو الجانب الآخر. هناك أطيافٌ سوداءُ حيثما قلّبت أنظارها. وكانت جدران الفندق تلتوي وتندفع قبالتها كأنّها أحصنةٌ أسمنتيّة. ذُعِرت فرفعت ذراعيها لتحتمي بهما وتراجعت فاصطدمت بأحدٍ صدَّها عنه وهو يقول لها: – بطّة عيد الميلاد.

انكمشت على نفسها، كما لو أنّهم لكموا بطنها، وسارت نحو كوخ.

كان بابه ممترسًا. دارت حول الكوخ مسبق الصنع وهي تنهال على جوانبه المعدنيّة باللكمات. ارتطم جبينها بالميزاب فانفجرت باكيةً، وهوت على الأرض متهالكة.

كان المبنى قائمًا على دعاماتٍ أسمنتيّة. اندسّت بينها. لن يجدها أحدٌ هناك.

تبخَّر مفعول المزيج من جسمها بأبخرةٍ خضراء متباطئة.

* * *

أحييت حفلةُ النار في الثاني من نوفمبر 2020، وهو يوم الموتى. فإن ماتت في ذلك التاريخ فهذا محض صدفة.

يُروى في صقلّية أنّ الموتى في الليلة الواقعة ما بين الأول والثاني من نوفمبر، يعودون من العالم الآخر لزيارة أهلهم ويحملون للأطفال هدايا وحلويّات. يستيقظ الصغار، وبالاستعانة بآبائهم يجدون «عظام الموتى»: البسكويت المقرمش والمحشوّ باللوز المحمَّص، شوكولاتة ولذائذ أخرى مخبّأة بين الأغطية وفي الخزانة وتحت وسائد الأرائك.

لعلّ بعضًا من أيتام فندق ينابيع إليزة الكبير ما زال يتذكّر طقس البحث عن الحلويات، إلّا أنّ الإحساس بالزمن بات مفقودًا. الاحتفالات، أعياد الاسم والميلاد، كلُّ ذلك لم يعد يعني شيئًا. آنذاك وقد صارت الحمّى الحمراء هي التي تقسِّم الوقت بالبقع والدمّل والقروح. فإذا كان لأحدهم ساعةٌ في معصمه فالأمر لا يتعدّى المباهاة. وفي سوق المقايضة صار ثمن الساعة يساوي الهاتف المحمول، أو الكمبيوتر أو البوينغ 747. أقلّ من حبّة سمارتيز.

* * *

عندما ظهرت الشمس ما بين هضبتين مقابل الفندق، كانت الساعة السادسة والدقائق العشر صباحًا، لكنّ قلّةً استطاعوا التمتُّع بالمنظر.

كثُرٌ توقّفوا عن التألُّم خلال الليل. كان معظمهم نائمين وقد سحقتهم الكحول والأدوية ودموع البشردونة. آخرون، في الرمق الأخير، كانوا يتبصّرون الفراغ بأحداقهم المتجمّدة وشفاههم المنقبضة، كأنّهم متصوّفون في حضرة التجلّيات، أو ينقلبون على ظهورهم وقد زعزعهم السعال، وأحرقتهم الحمّى، وخنقهم البلغم. وآخرون ما زالوا يتجوّلون متدثّرين بالأغطية، محدودبين، وسيقانهم هزيلة كاللقالق، يبحثون عن فضلاتٍ يأكلونها.

ذابت النقطة الشمسيّة كالزبدة في مقلاة سوداء، وتمدّدت في قبّةٍ برتقاليّة، وتركت الهضابَ بعد أن دمغت السماءَ برغوةٍ أرجوانيّة ودفعت أشعَّتَها نحو الفندق. وعند الثامنة وعشر دقائق تسلّلت تحت الكوخ.

تحسّست آنّا الشمسَ على عنقها وعبْر جفنيها المغمضين، وهي التي كانت تتأرجح ما بين اليقظة والنوم. شعرت بوجعٍ يعتصر رأسها، ومعدتها تؤلمها، لكنّ مفعول المخدِّر قد تبدّد. شدّت أصابعها ومرّرت لسانها على أسنانها. لم تعد تتذكر كيف انتهى بها المطاف إلى هناك ولا حتّى ما وقع لها في المسبح، لكنّها كانت لا تزال تشعر بالملمس الشرس لأيدي أولئك الفتية. ارتعشت برجفة حياء. فتحت عينيها وحدّدت دعامات بلاط الكوخ زاخرةً بشباك العناكب، على بُعد سنتمترات عن أنفها.

ينبغي أن تغادر هذا المكان.

تسلّلت من تحت الكوخ مسبق الصنع، وضيَّقت عينيها اللتين أعشاهما الضوء. كان الحشد يتزايد ولم يعد هناك أيّ مجالٍ فارغ. يخيّم الجميع حول نيران مطفأة، ويقاومون البرد بأقمشة

بلاستيكيّة وأغطية وكراتين. وهنالك تدفُّقٌ بشريٌّ يسير ويتشابك بكلا الاتّجاهين في الدرب المؤدّي إلى المخرج.

اتّجهت آنّا نحو البوّابات مرورًا فوق المدرج. كانت أشعّة الشمس تتلألأ على شظايا القوارير والعبوات وأوراق القصدير الملوّنة التي تُستَخدم لتناول الوجبات السريعة. وكانت المصاطب عبارة عن أفقٍ يغصّ بالمرضى الذين يصدرون الأنين والسعال والحشرجات. والحرّاسُ يسحلون كلَّ الذين لم يستطيعوا تجاوز الليلة ويكدّسونهم تحت الأعمدة. ثمّة فتاةٌ صهباء طويلة الشعر تغنّي بجانب جسدٍ أسلم الروح.

انطلقت في الممرّ المسقوف المؤدّي إلى البوّابات، لكنّ مجابهة التيّار البشريّ كان عسيرًا. وجدت نفسها تُطحَن بالجدران. لم يعد هناك مَن يراقب المداخل.

تساءلت إلى أين كانت تمضي.

لقد انتُهِكَت أرضُ التُّوت، ولا معنى للذهاب إلى كالابريا من دون أستور. لا معنى لشيءٍ من دون أستور. لقد نشأت حول أخيها مثلما تنمو الشجرة حول السلك الشائك، وقد انصهر أحدهما بالآخر حتّى باتا كتلةً واحدة.

حدَّقت إلى تلك الوجوه المعذَّبة، والأعين المطفأة لأولئك الفتية الذين يتدافعون للدخول.

هي واحدةٌ منهم، فتاةٌ حائرةٌ تنتمي إلى ذلك الحشد من اليائسين، سردينةٌ ضمن سربٍ من السرادين التي سوف تلتهمهم الحمراء، مثل سمكة تونة جائعة لن تهدر وقتها على الاختيار.

سلَّمت نفسها للجموع تجرُّها إلى الخلف من جديد.

هنـاك فتيـةٌ مـا بيـن حفّارتيـن صدئتيـن، كلُّهـم ذكـور، كانـوا قـد لاذوا فـي زاويـةٍ آمنـة، وهـا هـم يشـعلون نـارًا بقطـع الخشـب والكرتون. وكانـوا يمـرّرون مـا بينهـم التنـكَ وعلـبَ البسـكويت.

تحـرَّت فيهـم آنّـا مـن علـى مسـافة أمتـار، واللعـاب يسـيل فـي فمهـا، تشـجَّعت واقتربـت منهـم:

– هـلّا أعطيتموني شيئًا ما؟

نظر كلٌّ منهم إلى الآخر.

ضمَّت آنّا يديها كمَن يقيم صلاةً صامتة.

ومَـن يـدري، لعلّهـم رأوا فيهـا جمـالًا متخفّيًـا تحـت خصـل شـعرها القـذر وتحـت الوسـاخة التـي تغطّـي وجههـا، أو ربّمـا ببسـاطة أشـفقوا علـى حالهـا. بـكلّ الأحـوال، أشـاروا لهـا للجلـوس وأعطوهـا وعـاءً صغيـرًا.

أخرجـت آنّـا خيـارةً مخلّلـةً هشّـةً ولزجـةً بـدت لهـا لذيـذة. أنهـت الوعـاء فـي غضـون ثـوانٍ وبحثـت بأصابعهـا عـن البقايـا فـي قعـره.

وحيـن رأوهـا تتضـوّر جوعًـا، أقبـل أحدهـم وكان حليقًـا ذا ملامـح أنثويّـة، قلـب حقيبتـه التـي كانـت بيـن سـاقيه وناولهـا علبـة.

ومـن فـرط الجـوع لـم تقـرأ آنّـا مـا كُتِـب عليهـا، فكّـت الغطـاء وعبَّـت مـن المسـحوق. كان عديـم الطعـم. فلـم تأخـذ إذنًـا مـن أحـد وتناولـت مـن الأرض قنّينـة سـبرايت واجترعتهـا. راقبـتِ الفتيـةَ. كانـوا جميعًـا يرتـدون قميصًـا أحمـر ضيّقًـا، مـزوَّدًا برقـمٍ مـن الخلـف، وهنـاك كـرةٌ برتقاليّـةٌ بيـن أغراضهـم.

اكتشـفت أنّهـم الناجـون مـن فريـق كـرة سـلّة للأشـبال فـي أغريجنتـو. اجتمعـوا بعـد تفشّـي الوبـاء فـي صالتهـم الرياضيّـة،

وعاشـوا معًـا طـوال السـنوات الأربـع الأخيـرة، ونظّمـوا مجموعـاتٍ مصغّـرة للبحـث عمّـا يؤكل فـي الخـارج. وكان أكبرهـم سنًّا قـد ماتـوا. واسـتغرق هـؤلاء مـدّةً طويلـة للوصـول إلـى الفنـدق، وقـد حلّـت بهـم خـلال الرحلـة مصائـب جمّـة. تعرّضـوا لهجـومٍ مـن الـكلاب، ثـمّ مـن عصابةٍ مـن الفتيـة الذيـن سـرقوهم فـي الليـل وضربوهـم مـن دون أيّ سـبب. وأصيـب صانـع الألعـاب بطعنـة سـكّين، فيمـا أصيـب الظهيرُ بلدغـة أفعـى وهـم يجتـازون أحـد الحقـول.

– هـل تعلميـن متـى تبـدأ الحفلـة؟ – سـألها صبـيٌّ أشـقر وهـو يبعـد غرّتـه عـن عينيـه.

– لا أعلم شيئًا. – تفرّسـت آنّـا مرطبـان البسـتو المجـاور لموقـد النـار. كانـت تعشـق تلك الصلصـة الخضـراء.

– يقولـون إنّ البشـردونة طويلـةٌ بشـكلٍ عجيـب. أطـول مـن متريـن.

– تدخّـلَ أحدهـم وكان طويـلًا ونحيفًـا مثـل الحشـرة العصويّـة، ولا بـدّ أنّـه كابتـن الفريـق.

– كلّا. – لـم يوافقـه الحليـق – يقولـون إنّهـا جميلـة. يُغلِقـون عليهـا فـي الغرفـة رقـم 237 فـي الفنـدق.

لكلٍّ منهم فرضيّته.

ارتشـفت آنّـا مـرّة أخـرى مـن السـبرايت. وقالـت: – هـل تعلمـون لمـاذا لا يُظهِرونهـا؟

حدّق إليها الجميع بصمت.

– لأنّـه لا وجـود للبشـردونة أساسًـا. إنّهـا أكذوبـة. لقـد مـات الكبـار جميعًـا.

اعترض النحيف: - لكنّها مميّزة. استطاعت الصمود. إنّها... كيف توصف؟

- منيعة. - ختم رفيقه ذو القبّعة الصوفيّة المرسلة على جبينه. - دماؤها تحتوي على المادّة التي تقضي على الفيروس.

افتعلت آنّا قهقهةً لئيمة وردَّت: - الكبار ماتوا جميعًا، الا تذكرون؟ - أشارت بإصبعها نحو الفندق. - كلُّ هذا الهرج والمرج لا يجدي نفعًا إلّا لأولئك الذين يعلّقون قلادةً على أعناقهم كي يأخذوا منك الأشياء عندما تدخل. أراهن أنّه لن تقام أيّ حفلة، إنّهم يحتالون عليكم.

خرس الفتية وأعينهم مركّزة على ألسنة اللهب.

تحدّث أحدهم وكان قد بقي على انفراد، وشفتاه ممتلئتان بالبثور والقشب، تحدّث بصوتٍ منهك: - أنتِ تخطئين. البشردونة موجودة، وكيف لا. - وسعل كأنّه يوشك على بصق رئتيه. - سيحرقونها، وسنأكل رمادها فتزول عنّا الحمّى الحمراء.

- - إن شئتم أن تصدّقوهم فافعلوا! - تناولت وعاء البستو وغلَّت فيه سبّابتها ولعقتها.

تبدَّلت الأجواء. باتوا ينظرون إليها بأعينٍ ناقمة.

مرّرت آنّا لسانها على شفتيها: - كنت آكل البستو مع الباستا دومًا.

فحَّ المريضُ بصوتٍ خافت: - ولماذا أنتِ هنا؟ - لا بدّ أنّه كان قبل الوباء مكتنز البنية، وقد استحال آنذاك جلدًا على هيكلٍ عظميّ مثل لباسٍ معلّقٍ على مشجب.

- آتيتُ بحثًا عن فتىً... لكنّه ليس هنا. سأغادر بعد قليل.

- غادري على الفور. - قال لها الكابتن. - فنحن واثقون من أنّنا سننجو لأنّنا الأقوى... - نظر إلى رفاقه ووضع يده على أذنه. - مَن نحن؟

- فريق القدّيس جوزيبي! - صاحوا معًا رافعين أذرعهم.

نهضت آنّا وبحثت عن دكّة شاغرة لتجلس عليها.

على بُعد أمتارٍ عنها، هناك نفرٌ من الفتية ينبشون في القمامة ويتشاجرون على لحاف.

أمضت بقيّة النهار تبحث عن غذاء وتغفو. جرّبت أن تدخل إلى الفندق، لكنّها بلا قلادة فطردوها.

شاع خبرٌ أنّ حفلة النار ستقام في تلك الليلة. رأى أحدهم مجموعات من الحرّاس يبنون متاريس في أسفل المقلع، وقيل إنّ هناك شاحنةً تتحرّك أيضًا.

حتّى آنّا كادت تصدّق أنّ شيئًا ما سيحدث. فالجموع هائلة والانتظار صار مشوّقًا، ما قد يضع المنظّمين عرضةً لتمرُّدٍ ما.

كانت تطوف بين الحشود بلا غاية. ولّاعات، شموع، مشاعل إلكترونيّة تتلألأ في سواد الليل، وأغطيةٌ تنتفخ كالأشرعة المضيئة على الأجساد المستلقية. وكانت المواقد تنثر الوميض وتلتهم العجلات والخشب والبلاستيك وكلَّ ما هو قابلٌ للاشتعال. الطبول تقرع إيقاعًا سريعًا ومتكرّرًا. وقد صادفت بييترو مرّتين. كان يحوم حولها من دون أن يتملّك الشجاعة للاقتراب منها.

أثقل التعب أفكارها التي صارت تجري ببطء وبلا أهميّة.

- المعذرة. - وكزها أحدهم من كتفها.

التفتت فوجدت نفسها قبالة ما يشبه القرد الكبير. رأسه بيضويّ الشكل كأنّه صُنِع من البلاستيسين، وأنفه مستكلبٌ وعيناه سوداوان وغائرتان. كتفاه منحنيتان إلى الأسفل مثل ثنايا السقف. وقد طلى وجهه بالأحمر والأبيض وفمه بالأخضر كما لو أنّه ذاهبٌ إلى مباراة المنتخب الإيطاليّ. كان عاريًا إلّا من سروالٍ كبيرٍ محمولٍ بلاصقٍ أسود وكُتِبَ عليه «السيكسي بوي». أشار إليها.

- هذه الكنزة لي. أخذتِها منّي في المسبح.

أمسكت آنّا الكنزة المهترئة بيديها: - هل تتحدّث عن هذه؟

- أجل. هلّا أعدتِها إليّ؟ - كان لديه مشكلات في نطق العين واللام.

رفعت كتفيها.

- الكنزة كانت لجدّي باولو. - فسّر أبو سروال. وكان لهب المواقد يشعّ على ابتسامةٍ ناصعةٍ ومتكاملةٍ تتحرّك من تلقاء نفسها بالمقارنة مع الشفتين.

نما إليها صوتٌ عاقلٌ يحثّها على السكوت لكنّها تجاهلته وقالت: - وهل طقم أسنانك لجدّك باولو أيضًا؟

غيّر الفتى نبرته وأخذ يصىق: - أعطيني إيّاها وإلّا...

- - وإلّا ماذا؟ - شعرت أنّ الخمول الذي لازمها طوال اليوم كان قد اختفى. تأجّج الأدرينالين في جسمها فأحسّت بالحيويّة والميول إلى العراك. - حسنًا، خذها! - زعقت وانقضّت عليه مركّزةً رأسها في بطنه المنفوخ. باءت الهجمة بالفشل: كانت أشبهَ بضرب باب الثلّاجة. انفكّت عنه فوجدت نفسها على

الأرض وسط جمهرةٍ من المتفرّجين الذين سلّطوا عليها مشاعلهم ليستمتعوا بالمشهد.

كان أبو سروال ينظر إليها حائرًا، ويداه على خاصرتيه: - ماذا تفعلين؟

نهضت آنّا ثانيةً، خضّت رأسها وتحفّزت من جديد، لكنَّ يدًا أعرضَ من مسحاة البيتزا كانت بانتظارها لتطبع على وجهها صفعةً مدويّة.

فتلت على قدمٍ واحدة مثل راقصةٍ خرقاء وسقطت فارتطمت الترقوة بحافّة الدكّة التي تحدّد الطريق. وأحسّت بصعقةٍ تخترق كتفها.

كان الفتية ما حولهم يشجّعون أبا سروال الذي بسط ساعديه وشدَّ قبضتيه: - ستعيدين إليّ الكنزة أم لا؟

رمقت آنّا السماء. لكأنَّ النجومَ ثقوبٌ متألّقةٌ يتغلغل من خلالها نورُ شمسٍ هائلةٍ تتوارى خلف ستارة الليل. أحسّت بمذاق الدماء المعدنيّ على أسنانها.

هذا سيقضي عليكِ. أعيدي إليه الكنزة وضعي حدًّا لما يجري. - أسدى إليها الصوتُ العاقلُ نصيحة.

لكنَّ الجمهور كان يدفعها للقتال ويعزّ عليها أن تخذله. فهذا مجرّد قرد، من أقارب القرد الآخر الذي اختطف منها شقيقها.

بصقت بقعة دم وقالت: - فهمتُ مَن أنت. أنت البشردون.

لم يضحك أبو سروال بل ضمَّ بكلتا يديه ذراعَها وساقها ورفعها في الهواء مثل دمية قماشيّة. أحكمت آنّا قبضتها المشدودة وضربته على أنفه المسطّح. انفجرت عينا الحيوان، وبصق طقم الأسنان ورماها ليحمل يديه إلى وجهه.

وما كان من الجمهور الخائن إلّا أن غيَّرَ الراية وبات يشجِّعها هي. تنازع متفرّجان على طقم الأسنان كما لو أنّه كرةُ تنس سقطت على مصاطب المشجّعين في بطولة رولاند غاروس المفتوحة.

نهضت آنّا، ووثبت مرّتين وأرسلت إليه رفسةً تهدف إلى سحق خصيتيه، لكنّها استقرّت على فخذه.

انثنى أبو سروال على نفسه متأوّهًا. رفعت آنّا ذراعها عاليًا لتنشِّط الجمهور، فنسيت أهم قاعدة في الملاكمة: لا تغفلْ عينك عن خصمك أبدًا.

انقضّ عليها الفتى بذراعين مبسوطتين وضربها على وركها، فسقطت على ظهرها وسط القمامة والجصّ. فرَّغتِ الضربةُ الهواءَ من رئتيها. اعتلى الغولُ الدكّةَ وانهال عليها بقبضةٍ ضخمةٍ على إحدى كتفيها.

تقوّس ظهرها، وانتفض رأسُها. أصدرت صرخةً مخنوقةً وهوت من جديد صمّاءَ من دويّ أنينها. وجوهٌ، أذرعٌ، ألسنةُ لهبٍ تتشمشع وتتكاثف في رشقات ضوءٍ مصفرٍّ. كانت ترى خصمها، جبّارًا كالجبل، يمسك عصا بيديه، فيما يتمايل الجمهور بالعرض البطيء مثل كراتٍ تتهادى وسط أمواج البحر.

هذا أغبى شكل من بين كلّ أشكال الموت: أن تُقتَلَ على يدي فتىً يريد استعادة كنزة جدّه باولو.

غطّت آنّا رأسها بذراعيها وعصرت جفنيها.

عصف انفجارٌ بالهضبة.

فتحت عينيها.

فـي قبّـة السـماء الزاخـرة بالنجـوم، ارتسـمت وردة الهدرنجـة القرمزيّـة وسـلّطت سيقانها الصفـراء المتحـوّرة التـي انطفـأت مـا وراء أسـوار الفنـدق. تبعتهـا كـرةٌ خضـراء انبثقـت منهـا ريشـاتٌ بيضـاء وانفجـاراتٌ أقـلّ ضيـاءً لكنّهـا أشـدّ دويًـا تتواثـب نحـو الـوادي.

سـقطت العصـا مـن يـد أبـي سـروال، وكانـت عينـاه تتألّقـان بأضـواء ملوّنـة، وراح يصفّـق بكفّيـه الغليظتيـن. الجميـع ينظـرون إلـى أعلـى ويفغـرون أفواههـم متعجّبيـن.

صاح أحدهم: - بدأت حفلة النار!

* * *

ومثـل جسـم متعـدّد الخلايـا، مـدّد الحشـدُ فروعـه البشـريّة علـى سـفوح الهضبـةً، بعـد أن كان يخيّـم حـول الفنـدق، وسـدّ الـدروب والطرقـات، واجتـاز آفـاق القمامـة، وعبـر الأحـراج، وتسـلّق الـركام الصخـريّ واتّجـه صاخبًـا نحـو المقلـع.

أزيلت الشـباك التـي تغلـق الطريـق. وانصـبَّ نهـرٌ مـن الفتيـة علـى الأرض مسـحوبة التربـة مسترشـدًا بالنيـران الموقـدة في قـاع الوادي. كان بعضهـم يتدحرجـون علـى الصخـور بسـبب الظـلام، وينزلقـون فـي الـركام الحجـريّ، وآخرون يُهرَسـون هرسًـا.

توافـدت مـن المـدرج نحـو الفسـحة مجموعـاتٌ مـن المعطوبيـن والمحمومين والمتقرّحيـن. ثمّـة مَـن يجرّ نفسـه متّكئًا علـى العكّازات، ومَـن يسـتند إلـى رفيـق ومَـن يستسـلم ويتـرك أمـره للتيّـار يجرفـه.

كانـت آنّـا شـبه عميـاء، تصـارع مئـاتٍ مـن الأذرع والأكتـاف والوجوه الفزعـة والأجسـاد المتكدّسـة بعضهـا فـوق بعـض. موجـةٌ تعصرهـا وتدفعهـا إلـى الأمـام.

التفتت فرأت جَمَلًا ذا رأسٍ كبيرٍ يتمايل يمينًا وشِمالًا. وعلى سنمه ثلاثة صغار يحملون المشاعل بأيديهم. وكان الجمل يرغي يائسًا ويدوس أيّ أحدٍ يعترض طريقه. لسانه يتدلّى من فمه مثل حلزونة لزجة عملاقة. تنحّت آنّا جانبًا وارتمت على الأرض مفسحةً له المجال. وعندما نهضت وعادت إلى الركض رأت المؤخّرة المنتوفة للحيوان ذي الأطراف الأربعة تبتعد كثيرًا، وتغوص بين جناحين من الحشود. وهناك صبيّان يائسان تمسّكا بذيله ليجرّهما وهما يحاولان البقاء على قدميهما.

* * *

وصلت آنّا إلى آخر الطريق فوجدت نفسها قبالة امتدادٍ قاتم من رؤوسٍ تتماوج وتملأ الفسحة، وتتدافع حتّى على التلال الرمليّة والتراكمات الحجريّة. قُسّمَ الوادي إلى قسمين بخطٍّ طويل من القمامة المحترقة التي تتصاعد منها ألسنة النار. وكان الجمهور محتشدًا على جانب، وفي الجانب الآخر هناك الرافعة والهيكل العظميّ الكبير محجوبين بستارةٍ من دخانٍ كثيف، ناهيك بأكداس العظام، والصهريج الذي اختبأت فيه مع بييترو في اليوم السابق. حاولت أن تتسلّل بين الجموع، لكنّها عدلت عن ذلك بعد أمتارٍ قليلة. وكانت واجهة المستودع تبرز وسط الزحام مثل جزيرةٍ من صفيح. وتحت الومضات الحمراء تتبدّى شخوصٌ صغيرة كالنمل يتسلّقون الأبراج التي تسند المبنى.

تحاشت الحشدَ وتقدّمت بين أولئك الذين يحاولون التسلّق. تشكّلت على الدعائم أعمدةٌ بشريّة، وكان بعضهم يتساقط على مَن تحته حين لا يجد شيئًا يستند إليه.

تشبّثت آنّا بالعوارض الصدئة، وأسندت قدميها على أكتافٍ وأذرعٍ ورؤوسٍ حتّى بلغت السطح المموّج. وكان الصفيح يلتوي تحت ثقل مئات الفتية. استطاعت أن تجد حيّزًا هناك وجلست.

وكان حاجز النار يلتهم الإطارات والبلاستيك ويفرقع ويحجب النجوم والقمر. هيمن صمتٌ غريبٌ آنذاك، لا يتخلّله سوى دويّ محرّك الاحتراق الداخليّ الذي يَصِرُّ في مكانٍ ما تحت الظلام.

- ما الذي يحدث الآن؟ - سألتها صبيّةٌ كانت بجانبها. كانت ذراعها مضمّدة بشاشٍ متّسخ، ويدها بثلاث أصابع فقط.

- لا أدري. - أجابت آنّا.

مرّ بعض الوقت وعادت الجموع تغمغم.

وفجأةً انبثق صوتُ موسيقى صاخبة وصوتُ امرأةٍ مضخَّمٌ وناشزٌ يغنّي. «إن أردتَ الرحيل فأنا أتفهّمك...أجل... مرّةً أخرى... أعدني إليك مرّةً أخرى... فقلبي شهوانيّ... لأنّي ما زلتُ أحبّك...»

زمجر الدويُّ.

أحدهم صاح من فوق السطح أنّ البشردونة هي التي كانت تغنّي.

أضيئت ثلاث منارات إلكترونيّة واحدةً تلو أخرى فتحوّل الدخان إلى عباءةٍ قزحيّة تنعكس على آلاف الوجوه المذهولة.

شهق الجمهور شهقةً واحدة وأجاب بـ«أووه» متعجّبة.

- ما الذي هناك؟ - أشارت الصبيّة ذات الأصابع الثلاث إلى شيءٍ ما يعتلي ستارة النار. - انظري.

طيفٌ داكنٌ هائلٌ يتلبّد في الظلام. هبّت الريح في الوادي فظهر الهيكل الكبير عائمًا في الهواء ومعلّقًا من رأسه.

كان يتحرّك ببطء وطلاقة. يرفع ذراعًا ويخفض أخرى، يثني ساقًا ويبسط أخرى، كأنّه رائد فضاء وفي الفضاء يسبح. فِرَقٌ من شياطين صغارٍ زرق اللون، معلّقين بحبالٍ مربوطةٍ بمعصمي الدمية العملاقة ومرفقيها وركبتيها وكاحليها، يرتفعون في الهواء ويهبطون لتعديل ثقل أطرافها المتحرّكة.

وكان العملاق يبدو على وشك تجاوز ستارة الدخان. وكانت عظامه ترتعش تحت الأضواء مثل معطف الفرو.

تدافع الجمهور المهتاج، وهرس بعضه بعضًا إزاء ألسنة اللهب، لكنّ اللظى أرغمهم على التراجع.

ثمّ صدح صوتٌ ذكريّ: «سيسمع الأمريكيّون أغنيتي وقد رحلوا في الأمس، بعد أن لوّنوا دروبنا وأيّامنا الربيعيّة بقمصانهم المزوّقة بالأزهار... وعيناكِ الجميلتان...».

نهض أولئك الذين كانوا على السطح واقفين وتعانقوا بأعينٍ دامعة إزاء هذا المشهد المفعم بالموسيقى والأضواء الإلكترونيّة.

الكبار وحدَهم قادرون على صنع شيءٍ كهذا. فكّرت آنًا، بينما كانت مجاورتُها تشبك يدها وتردّد متأثّرةً: - غير معقول... غير معقول.

انخفض ضوءٌ كشّاف وانزلق على آلاف الرؤوس ليغمرها بالنور ويجعلها تقفز باهتياج. وتوجّه ليعشي أبصار المتجمّعين على السطح الذين بدؤوا ينقرون بأقدامهم ليحوّلوا المستودع إلى طبلٍ كبير.

اشتغل محرّكٌ في داخل المبنى وأطلق صفيرًا.

تشبّثت آنّا بالسطح وقد أعشاها الضوء. وكان مئات الفتية في الأسفل يلكمون جوانب المستودع بقبضاتهم.

ازدادت سرعة المحرّك فانفرجت الأبواب ودفعتهم إلى الخلف. وأطلّت الشاحنة بمقدّمتها الخضراء.

رأتها آنّا تتعشّق في الحشد مثل سفينة كاسحة الجليد، تتّجه نحو الهيكل العظميّ مباشرة. انفتح الجمع ليسمح لها بالمرور وسرعان ما انغلق على نفسه. وكانت جوانب مقطورة الشحن منخفضة؛ وعليها عشرات الأطفال الزرق يحملون المشاعل والعصيّ كما لو أنّهم راكبون على عربة كرنفال.

وفي الوسط، في عقدة الدخان الأسود، على مداسة، بين روزاريو وأنجيلكا اللذين يهيّجان الحشد، ثمّة كائنٌ غريبٌ طويلٌ وهزيلٌ ومكبّلٌ بالأغلال. جلده ناصع كأنّه لم يتعرّض للشمس يومًا. وذراعاه طويلتان تتدلّيان مستقيمتين. وعلى ظهره صفٌّ من سنامٍ مسنّنة. رأسه الأصلع والمطاول كبير بما لا يتناسب مع أذنيه الصغيرتين والرخوتين. لحيته طفيفة، معرّقةٌ بحزوزٍ رماديّة، مرسلة إلى أسفل كالصُدرة لتحطّ على صدرٍ أنثويّ يترنّح مترهّلًا على الأضلاع المجوّفة.

– البشردونة! – صاح الذين على السطح، وتمدّدوا إلى الأمام لكي يروها جيّدًا.

تدافعوا فتساقط خمسةٌ أو ستّة على الجموع التي ابتلعتهم.

كانت آنّا تجاهد للحفاظ على توازنها لكنّها لم تكفّ عن النظر إلى ذلك الكائن الغريب.

جبينه خفيض، ومكوّرٌ بلا حاجبين. ابتسامته البليدة تستوطن فمه الخالي من الأسنان ويسيل منه خيط لعاب على لحيته التي وخطها الشيب. عيناه الغامقتان كالعقيق تبدوان مذعورتين. ورأسه الكبير يهتزّ كأنّه يبعد عنه سربًا من البعوض.

عرفت آنّا البلاهةَ في تلك النظرة.

وعاد إلى ذهنها إنياتزو، ابن المرأة التي كانت تأتي مرّة في الأسبوع إلى أرض التوت لتقوم بالتنظيفات. المسكين عندما ولد نقصه الهواءُ، فظلّ أبله. كان يتدحرج على الأرض ويزيد لعابه، ورأسه منقبض على إحدى كتفيه، ويأكل كلّ الأشياء التي تقع في متناوله، بما فيها الفضلات.

تساءلت آنّا لماذا كانت البشردونة مستثناةً من الحمّى الحمراء. ربّما لأنّها نصف رجلٍ ونصف امرأة. ولكن بلا شكّ ليست بالغةً حقًّا.

لن تنقذ أحدًا. حتّى نفسها.

وبينما ارتسمت ابتسامةٌ مريرة على شفاه الفتاة كان الجميع قد فقدوا صوابهم يلقون بأنفسهم على العربة ويحاولون أن يتمسّحوا بذلك الكائن المشوّه، لكنّ الأطفال الزرق يبعدونهم بالعصي.

كان شقيقها في آخر الشاحنة، مثل الآخرين يصارع ضدّ زمرة من الأيدي التي تحاول إنزاله.

نادته آنّا بما تبقّى لديها من أنفاس لكنّ صوتها ضاع ما بين الصيحات والصفّارة وفرقعة النيران.

نظرت إلى الأسفل. راودتها فكرة القفز، ثمّ اتّجهت على أربع نحو البرج الذي صعدت منه. كان السطح في منتصفه قد انهار، وهناك عدّة أجساد ترتعش في داخل المستودع.

صارعت الآخرين للنزول ممسكةً شعرهم وثيابهم. وحين عجزت عن الصمود ألقت بنفسها وسط الحشد. وركضت خلف الشاحنة مع مئات من الفتية.

اعترضتها تيّاراتٌ بشريّة تتصايح وتتدافع.

كانت الشاحنة في البعيد تزمّر متّجهةً نحو الهيكل العظميّ، وبينما يتشبّث بأطرافها وجوانبها فتيةٌ عصابيّون، دخلت الشاحنةُ في النار بما تجرّه خلفها.

لم تر آنّا ما حدث بعدئذ، كانت بعيدة جدًا: شبّت النار فأحرقت الدمية الكبيرة، وأضرمتها حتى رأسها في غضون ثوانٍ لتحوّلها إلى مشعلٍ عملاق أضاء المقلع كالنهار. انفصلت ذراعٌ محترقة عن الجسد، واتّسعت المحرقة لتشمل الصهريج.

صارت الفسحة قريةَ نملٍ مجنون، الجميع يتراكضون هاربين في كلّ اتّجاه، وآنّا متسمّرة في مكانها تحدّق إلى الجحيم الذي اتّجه إليه شقيقها.

انفجر العالم.

استحال الصهريج إلى كرةٍ حمراء، بدويٍّ مزلزل. ارتفع وانتفخ في الظلام، وقذف بالشهب المذنّبة التي تتساقط مزمجرةً على الحشد والتلال الرمليّة وتحرق أشجار الصنوبر على السفوح. طارت آنّا إلى الخلف بفعل موجة الهزّة الآتية كالصفعة الحامية على وجهها وعنقها ورموشها، وتغلغلت في فمها حتّى رئتيها.

انفجرت الكرة فرشقت عباءةً سوداء وثخينة سقطت على الوادي. وفي ذلك الضباب اللؤلؤيّ تصاعدت دوّاماتُ النار فظهرت أطيافٌ قاتمةٌ وما اختفت إلّا حين امتصّتها الأدخنة.

نهضت آنّا وراحت تتقدّم. كانت تعصر جفنيها محاولةً تنظيف عينيها من الدموع. وراحت تسعل، مخنوقةً بأبخرة البنزين الحادّة. اصطدمت بطفلةٍ صغيرة بعنفٍ فوقعت أرضًا. وقفت على قدميها من جديد وسارت ثانيةً نحو الحريق. كان أخوها هناك. الحرارة تغلي ساقيها، تساءلت إن كان شعرها يشتعل.

أمسكها أحدهم من الخلف.

- آنّا.

هزّت رأسها ولم تلتفت.

- آنّا.

أمسك معصمها هذه المرّة.

كان بييترو متفحّمًا برواسب الدخان، ممزّق الكنزة، يحتضن بين ذراعيه طفلًا يسند رأسه على كتفه.

اقتربت الفتاة وهي تحمل يديها إلى وجهها.

رفع الصغير رأسه بمشقّة، نظر إليها ومدّ ذراعًا نحوها، وقال: - آنّا.



الفصل الثالث

المضيق

8.

كانت الرمال دافئة من الخارج، لكنّك إن غرستَ قدميك فيها شعرتَ بأنّها باردة ورطبة. وآنّا مستلقيةٌ على منشفة شاطئيّة، والشمس تدفئ جبينها وأطرافها. يجذب الموجُ المردودُ الرملَ الخشنَ ببطء، والنوارسُ تنعق في عرض البحر.

أحسّت آنّا بالنعاس واللامبالاة.

التفتت وفتحت عينيها قليلًا فرأت ذنب كوكولوني وردفيه المكتنزين، يقعي بجانبها. وكانت وسائد أرجله السوداء والقشريّة ترتجف تحت مخالبه كأنّه يحلم أنّه يركض. أمّا أستور فكان يتمشّى عند الشاطئ عاريًا، يقفز بين الأمواج ويركلها. ذراعاه تبرزان كالعيدان من بين منفاخي التعويم الأخضرين. وكان برؤوس أصابع قدميه يرسم خطوطًا على الرمل فتمحوها الأمواج.

– ماذا تفعل؟ – صاحت إليه.

نظر إليها الصبيّ قليلًا، أمسك عصا طويلة ومعقّدة وركض نحوها ليرشّها بالرمال.

– تمهّلْ... – أنّبته آنّا، ونظّفت فمها.

– انظري ما أجملها! – حرّك أستور العصا في الهواء.

– العصا؟

– ليست عصا. – أشار إلى ثقبٍ غامقٍ في الخشب المتقع. – إنّها أفعى. ألا ترين رأسها؟ لها فمٌ أيضًا.

- هل أنت جائع؟

- بعض الشيء.

- هلّا ذهبنا؟

- قلتِ إنّنا سنسبح قليلًا.

- متى؟ لا أذكر ذلك.

- البارحة. - أمسك أخوها إصبعها وحاول إنهاضها.

- هل أنت متأكّد؟ - قعدت آنّا ومطّت ظهرها. ارتفعت غيومٌ مثل نفث البخار الأبيض في مدى البحر. وفي آخر الخليج، هناك حيث تقحم مدينة شيفالو أنفَها الحجريّ العتيق في الماء، ثمّة سربٌ من النوارس ينقضّ على مأدبة سمك.

- هيّا... - تباكى الصغير.

- حسنًا.

تبدّت ملامح السعادة على أستور إذ استعرض مجموعة أسنانه المنخورة، وألقى بنفسه في الرمل وتبرَّمَ فيه مثل كرات اللحم في الصلصة. انتفض واقفًا، وثب إلى كوكولوني وشدّه من ذنبه.

- فلنحمِّمه بالماء!

- دعه وشأنه. - تأفّفت آنّا.

لكنّ الطفل أبى أن يتركه، بل راح يشخر محاولًا أن يجذبه إليه.

هذا الكلب قدّيس. وجدوه خارج الفندق، وسرعان ما نشأت الصداقة بينه وبين أستور. كان يركب عليه، ويشدّ أذنيه، ويستكشف منخاريه كأنّه مروِّض أُسُود. لا يتركه ينام. ورغم ذلك كان الماريميُّ رقيقًا حين يلاعبه كأنّه يخشى إيذاءه. يتظاهر بأنّه يعضّه، لكنّه لا يشدِّد العضّة. ولم تغفل عينه عليه خلال الرحلة

الطويلة حتّى شيفالو. وكلّما أبطأ أستور، أخذ كوكولوني يتراوح كالمكّوك المجهَد بين الصغير وشقيقته.

– لماذا لا يريد أن يسبح؟

رفعت آنّا كتفيها: – لا يحبّ السباحة.

– لماذا؟

– لا أدري. هل أنت تحبّ الدرّاق المعلّب؟

كشَّرَ أستور: – تلك الأشياء الرخوة في السائل الشفّاف؟ كلّا، أنا أشمئزّ منها.

– وهو بالمقابل يشمئزّ من البحر. لذا لا تزعجه، فهذا إذا غضب يومًا ما قد يعضّك، وإنّه لَيُحسِن صنعًا.

سار الشقيقان، يدًا بيد، نحو الشاطئ. هناك لوح تزلُّج من البوليسترول المبقَّع بالقطران بجانب قوارب مقلوبة. تنقصه الرأس المدبّبة، كأنّ سمك قرش قد التهمها.

نزعت آنّا بنطلون الجينز وظلّت في لباس السباحة، المكوّن من قطعتين خضراوين مطرّزتين بكريّات بيضاء، وكانت تبدو بحمّالة الصدر المحشوّة أكبر من سنّها. أخرجت من حقيبتها المنفسَ ونظّارة الغطس، أمسكت اللوح وولجت الماء، بينما كان أستور يتجاوزها ويرتمي على بطنه ويصيح فرحًا.

المياه باردة على الرغم من اعتدال مناخ ذلك الشتاء. كانت الفتاة تمشي متشنّجة كأنّها تعبر على سجّادةٍ من شظايا الزجاج. أمّا شقيقها، الذي لا يكترث لدرجة الحرارة، فكان يحاول الغوص، يسدّ أنفه بأصابعه، لكنّ منفاخي التعويم يرغمانه على الطفو.

دفعت آنّا اللوح إلى أن وصل مستوى المياه عند فخذيها واستلقت عليه.

- انطلق أيّها المحرّك! - أمرته وهي تعدّل النظّارة.

تشبّث أستور بمؤخّرة اللوح وراح يصفر.

- تقدَّم. أبطئ. ابقَ مستقيمًا. - غمرت الفتاة رأسها وهي تعضّ على المنفس. رأت تحتها امتدادًا من الحصى الرماديّة والخطوط الرمليّة التي يسرِّحها التيّار. مشهدٌ صامتٌ ليس لديه كثيرٌ ممّا يعرضه، لكنّ آنّا لا تملّ من تأمُّله. وكلّما نفخت في الأنبوب، بالماء الذي يرتجُّ في أذنيها، شعرت بسلام.

- اللعنة! - صاحت في المنفس وهي تلوي ظهرها كأنّها تلقّت لسعة سوط. رأت أستور من خلال الزجاج الأغبش يرفس بقدميه كالأرعن. - مهلًا! بلّلتَني كليًّا. ألستَ المحرّك؟

- بلى. - أجاب شقيقها بجدّيّة.

هجّأت آنّا الكلمات: - فإذن، أيّها المحرّك، أصغِ إليّ جيّدًا: اشتغِلْ ببطء وإيّاك أن ترفّس وإلّا ثقبتُ المنفاخين لتموت غرقًا.

- حسنًا.

عادت آنّا إلى استكشافاتها. رأت أسماك البوري تتلاحق في أسراب، بينما تحفّ أسماك التريليا ذقونها في القاع. تشكّلت الأفكار في رأس آنّا المغمورة ببطء، وتضخّمت وانفجرت بفقاعاتٍ مجرّدة. كم من الجميل أن تفقد عظامها، ويتحوّل لحمُها إلى جيلاتين شفّاف لتنساب في التيّار مثل قناديل البحر! كم من الجميل أن تغوص على مَهَلٍ حتّى قرار الهاوية السحيقة! هناك ستجد بين الكائنات المضيئة نيكولا السمكة، الفتى الذي يسند صقلّية على كتفيه.

ونحو عرض البحر، اغمقّ لون الأعماق المتأثّر بآجام الأعشاب، وفجأةً تمظهر مكعّبٌ أسمنتيٌّ ضخم مكسوٌّ بالأخضر والبنيّ، تعلوه عناقيد الصدف، وتحيط به كثيرٌ من صغار السمك ذات الرؤوس الملوّنة. كوكبٌ صغير يفرّخ الحياة وسط صحراء من الرمال.

- توقّف أيّها المحرّك.

رأت كثيرًا من تلك الأشياء ولم تفهم ما الحاجة إليها. ربّما لربط القوارب. لاحظت هناك تمامًا وجود حجرين أصفرين لكلٍّ منهما خطٌّ أسود في وسطه. نظرت إليهما من كلّ الجوانب واستطاعت رويدًا رويدًا أن تميّز فيها شكلًا متقنّعًا. كان لونه من لون الرمل، مع أنّه مختلفٌ قليلًا. وحول تينك الحجرين، اللذين بمثابة عينين، هناك إكليلٌ من مجسّاتٍ رخوة.

- أخطبوط! يوجد أخطبوط! - قالت مبتهجةً، وشعرت بأصابع شقيقها تشدّ على كاحلها.

- حقًّا؟ وكيف هو؟ - كان أستور متهيّجًا كما لو قالوا له إنّ في الأسفل سلّةً مليئة بلحوم السالامي. لم يكن قد رأى في حياته كلّها أخطبوطًا حقيقيًا، ولكن كان لديه دميةٌ على شكل أخطبوط.

- مختبئٌ في الرمل. - مرّرت إليه النظّارة. بدأ أستور يشهق ويعبّ من الماء فخشيت آنًا أن يتأذّى.

- أرجوكِ، أرجوكِ، هلّا أتيتِني به؟ - جحظ أستور بعينيه الكبيرتين متّخذًا تعابير طفلٍ وديع. ذكّرها بنفسه عندما كانت تطالب أمّها بدمية الباربي الصينيّة ذات الربطة والفستان الأحمر كلّما وقفت وإيّاها أمام واجهة محلّ الألعاب في شارع غاريبالدي.

- لا أستطيع الوصول إليه. إنّه في العمق.

- لكنّكِ تجيدين السباحة.

- فرقٌ كبيرٌ بين السباحة والغوص تحت الماء. ثمّ كيف لي أن أمسكه؟

- باليدين. إنّه طيّب. لا يعضّ أبدًا.

ذات مرّة، اصطاد والدها أخطبوطًا من محميّة زنغارو الطبيعيّة. وعاد إلى الشاطئ معتزًا بنفسه يحمل ذلك الكائن الصغير الذي ينكمش وينبسط على أسنان الرمح، وصفعه على الصخور كما لو أنّه قماشةٌ ينبغي غسلها. لتليينه - برّر لها فعلته. لكنّه بعدما طهوه صار وردةً هشّة وبائسة.

- أريد أن ألعب به. - قال أستور.

- سأحاول. - انزلقت آنّا إلى الماء. وخزت جلدَها مليونُ إبرةٍ متجمّدة. نظرت إلى الأسفل. لم تكن واثقةً كلَّ الثقة من أنّه أخطبوط، ولم تكن تعلم كم مترًا ستغوص للوصول إلى القاع. ومن المؤكّد أنّه يلزم إيجاد ثلاث نسخ أو أربع من آنّا، تقف واحدةً فوق الأخرى. ناهيك بأنّها بعد الهبوط يجب أن تصعد من جديد.

بدأت بالشهيق والزفير وملأت رئتيها. كانت سعادتها تكمن في الوصول إلى القاع وإمساك حفنة رمل. عدَّت حتى ثلاثة، أغلقت فمها وغاصت. وبعد ذراعين، ألصق الضغطُ النظّارة على وجهها. ثمّ بدأت تشعر بإزعاجٍ في الأذنين، حاولت أن تتجاهله، لكنّها أحسّت بمخرزين يثقبان طبلة أذنيها. عادت إلى أعلى وتمسّكت باللوح وهي تنازع لاهثةً.

- هل أمسكتِه؟ أرني إيّاه.

يراود آنّا في بعض الأحيان أنّ أخاها غبيّ.

- هل أنت تراه؟ هل يوجد أخطبوطٌ بين يديّ؟

فكّر أستور في الأمر: - حسنًا، قد تكونين قد خبّأتِه في ثيابكِ لتصنعي لي مفاجأة.

- هيّا أيّها المحرّك، اشتغل وأعدني إلى الشاطئ بدلًا من أن تفكّر.

- لا، حاولي ثانيةً.

- إنّي أموت بردًا.

خاب رجاء الصغير فشغّلَ نفسه وغمغم مستاءً.

* * *

- آنّا، كم مجسًا لدى الأخطبوط؟

- لا أدري.

- عشرة؟

- ربّما.

- لماذا عشرة وليس تسعة؟ وكم ماصة لديه؟

- الكثير.

- ولماذا لديه ماصّاتٌ كثيرة؟

- هذا شأنه.

لقد تغيّر أستور منذ أن عاشر الأطفال الزرق، انفكّت عقدة لسانه ولم يعد يكفّ عن الكلام. وقد خرج من التقائه بالعالم أقلّ انطوائيّةً وأشدّ سفاهة.

- إذا دَبِقَ عليكِ أخطبوط، فهل يستطيع انتزاع جلدكِ بماصّاته؟
- لا أدري.
ركض بجوارها وأمسك معصمها.
- المعذرة، هل للأخطبوط عصفور؟ ولماذا لا يعيش في الجوّ بدلًا من تحت الماء؟
توقّفت آنّا: - وبعد؟ هذا يكفي! ليست لديّ أدنى فكرة عن الأخطبوط.
مرّ سؤالٌ في عينيه الشبيهتين بأعين العفاريت.
وضعت آنّا إصبعها على شفتيه: - إيّاك أن تصدّع رأسي بمزيدٍ من الأسئلة. كفّ عن الثرثرة ريثما نصل إلى البيت. وفي حال لديك تساؤلات، احتفظ بها، واختر منها أربعة واطرحها عليّ في الغد.
نظر إليها أستور مرتبكًا: - لماذا أربعة؟
- ششش...

* * *

وها هم الثلاثة أولاء على كورنيش شيفالو: الكلب في الأمام، وآنّا في الوسط، وأستور في الخلف يخفي في فمه مئات الأسئلة.
كان الرمل يطمس الطريق والأرصفة والمقاعد الحديديّة، لا شيء ينتأ من الرمل سوى بعض الدكّات الأسمنتيّة وأعمدة الإنارة التي اعتراها الصدأ. وعلى جانب الطريق المؤدّي إلى الداخل كانت صفوف المطاعم تشكّل تجمّعًا واحدًا. وما زالت بعض اللافتات صامدة: «النورس»، «نينو الطبّاخ»، «عرين القرصان»؛ إلّا أنّ الواجهات تلاشت والنوافذ تشقّقت خلال أربعة أعوامٍ من

الإهمال. كثيرٌ من المحلّات ينقصها الزجاج، كما أنّ البحر دفع البلاستيك والأخشاب ومقاعد الشاطئ إلى داخل الصالات. ثمّة زورقٌ مقلوبٌ في إحداها أيضًا.

- هل سنعود إلى الأخطبوط غدًا؟

- اخرس.

وكان الخليج يمتدّ أمام الشقيقين لينتهي عند المرفأ الصغير الذي تستند إليه البلدة. البيوت الحجريّة، المتكدّسة بعضها فوق بعض، تطلّ على البحر بما يشبه العقدة العشوائيّة من الأقواس والنوافذ والشرفات. وخلف أسطح القرميد المركّب يحلّق برجا الكاتدرائيّة المربّعان والسفوح الوعرة للروكا، الجبل الدائريّ الذي يشبه قالب الحلوى.

قطع الشقيقان وكلبهما موقفًا مكتظًا بالسيّارات المتّسخة بالملوحة والطين الأبيض. وتابعا من هناك عبر زقاقٍ غارقٍ بين الأبنية التي تنتأ منها الشرفات وأعمدة الإنارة والأسلاك الكهربائيّة والحبال التي كانت تُستخدم في الماضي لنشر الغسيل. مغاليق المحلّات مخفضة، ومعظم دفّاتها مخلوعة. ما زال هناك لوحاتٌ ترشد إلى الكاتدرائيّة، والحانات، والفنادق.

انتشرت أعمال النهب والتخريب في كلّ مكانٍ من صقلّية، مثلما استعرت الحرائق في كلّ شبرٍ منها، في حين بدت شيفالو في معزلٍ عن كلّ هذا. نادرًا ما وجدت آنّا هياكل عظميّة في البيوت، كما لو أنّ السكّان هجروا البلدة قبل أن يفتك بهم الوباء. وآنذاك باتت ملاذًا للفئران والبطّ ومستوطناتٍ للنوارس. أمّا القطط فقد تكفّلَ كوكولوني بإخفائها جميعًا.

توقّفت آنّا قبالة مكتبة «البوصلة». حاولت رفع المفلاق، لكنّه كان مقفلًا. ثمّة بابٌ أخضر على أحد الجانبين، وكانت شباكه العلويّة مخلوعة.

جعلت من يديها موطئًا اتّكأ عليه أستور ونفذ إلى الجانب الآخر بمرونة السنجاب. وبعد لحظات، انفتح الباب على فِناءٍ داخليّ مبلَّطٍ بالحجر. أحراشٌ خضراءُ تنبت من أوانٍ بمحاذاة الجدران. وفي إحدى الزوايا ما زالت حانة «المذنَّب» صامدةً بطاولاتها الحديديّة المجاورة لمنصّة خشبيّة صغيرة. هناك منشورٌ يفيد بأنّ ثلاثيَّ الجاز بقيادة ماريانو فيليبي سيعزف هناك يوم الخميس.

اتّجهت آنّا نحو إحدى الكوى. أمسكت بكرسيٍّ وحطَّمت به الزجاج. امتطت السياجَ متبوعةً بشقيقها وأضاءت المشعل.

كانت المكتبة ممتلئة بخزائن البطاقات البريديّة، والأطباق المرسومة، والأواني على شاكلة الرؤوس، والشموس الرخاميّة ذات الوجه المبتسم. وعلى الطاولات تكدّست أكوام القرميد الملوّن والعلب المملوءة بالتحف التذكاريّة. إن كان لشيفالو عيوب، فهو أنّها مستودعٌ كبيرٌ ومتفرّد للترّهات الرخاميّة.

واصلت آنّا استكشافها، وراحت تنبش في رفوف الكتب في إحدى الزوايا. مراجع عن المطبخ الصقليّ، دلائل سياحيّة وكتّيبٌ ذو غلافٍ ملدن.

– ها هو هنا. – أظهرته على مرأى أستور.

– ما هذا؟

– اقرأ. – سلّطت الضوء على العنوان.

حكَّ أستور أنفه: - الصـ... الصيـ... الصيد... بـ... بالفو... بالغوص. الصيد بالغوص.

خلال تلك الأشهر التي أمضياها بالسفر لم تتفرّغ آنّا لتمرينه على القراءة. عليهما أن يستأنفا ذلك.

- ماذا يعني؟ - سأل أستور - أهو الصيد بالقوس؟

- يعني اصطياد الأسماك تحت الماء.

توقّدت عينا أستور: - بما فيها الأخطبوط؟

- سنرى.

عادا إلى الفِناء وجلست آنّا إلى إحدى الطاولات.

اقترب منها أخوها منتفخ الصدر.

- بمَ ترغبين يا سيّدتي؟

قرر أستور، بعد أن سمع الأحاديث عن الحانات والمطاعم، أنّه سيعمل نادلًا عندما يكبر، لأنّ عمل النادل مرتبطٌ بالمأكولات طوال النهار.

حارت آنّا: - ما ألذّ وجبة لديكم؟

- اللحم بالطماطم، وحليب اللوز.

- آتني بحليب اللوز.

ركض الصغير إلى زاوية، وراح يمزج الفراغ بكؤوسٍ وهميّة.

- ها هو ذا.

- ممم، إنّه لذيذٌ جدًا. - تذوّقت آنّا العدم.

كان الكتاب يكرّس ثلاث صفحات للأخطبوط، ملك اللافقاريّات. اكتشفا أنّ لديه ثمانية مجسّات وأنّه في منتهى الذكاء، قادرٌ حتّى على حلّ المسائل الهندسيّة. لا سيّما أنّه وحدانيّ: يختار جُحرًا

ويبقى فيه. أظهرت آنّا الصور لشقيقها الذي هزّ رأسه مذهولاً. لم ير في حياته حيوانًا إلى هذا الحدّ من الغرابة.

- أكثر غرابةً من السحالي ذات الشعر الطويل.

* * *

- ها أنتما هنا! كم استغرقتما من وقت؟ - قفز بييترو من مرأبٍ يشرف على دربٍ صغير. كان غاطسًا بالغبار الأبيض مثل الخبّاز الذي انتهى من العجن التوّة. - لا تتخيّلان ماذا وجدتُ...

لم يدعه أستور يكمل كلامه، فتحدّث إليه بسرعةٍ تبتلع كلّ الكلمات ليروي له عن مغامرتهما في البحر. ثمّ أمسك يده وأجبره على الجلوس على إحدى العتبات لينظر في صور الكتاب.

استندت آنّا إلى حائط وبسطت ذراعيها. رفع بييترو عينيه وأطال النظر إليها.

وسرعان ما طأطأت رأسها من الخجل. انتظرت بعض الوقت، لكنّها عندما رفعت رأسها مجدّدًا كان بييترو ما يزال ينظر إليها بتلك الابتسامة التي تشبه... لم تعد حتّى هي تعرف ماذا. ثنت عنقها وهجّأت بصمت: - هل أنت أحمق؟

.9

لم يفترق الثلاثة منذ أن غادروا ذلك الفندق.

وبعد أن استعادوا الدفتر وعظمة الفخذ من مطعم «أذواق أفروديت»، قرّروا أن يناموا في أحد المنازل في توزّي نورمانّا. وخلال الليل هبّت الريحُ فصفقت شبابيك البيوت وخضخضت الميازيب. لم تكتفِ الفتاة بوجود بييترو الملفوف في الغطاء، وأنفاس كوكولوني الثقيلة لكي تطمئنّ. إذ كانت مضطجعة بجانب شقيقها على أريكةٍ مهترئة، تعوم في نومٍ قلقٍ بفعل الأحلام والهواجس. تحملق إلى السقف المعتم وتسمع نداء الغابة وبيت التوت.

آنّا، ابقي معنا يا آنّا. فأنتِ ملكة العظام.

ثمّ تهيّأ لها أنّها تسمع خطوات أمّها في الطابق الأعلى، بوقعٍ منتظمٍ على البلاط.

هلْ هاجرتِ يا آنّا؟

أجل يا ماما.

خذي حذركِ.

أعدكِ.

كم وعدًا أطلقتْه على فراش الموت ووفت به؟ لا وعد تقريبًا، إلّا أنّ شقيقها كان معها. استطاعت أن تستردّه. وما عليها آنذاك إلّا أن تفي بوعدها: أن تصحبه إلى القارّة.

حين استيقظ بييترو وأستور وجداها واقفةً على قدميها تنظر إليهما.

- علينا أن نبرم اتّفاقًا.

تثاءب الفتيان وكانت أعينهما مثقلةً بالنعاس.

- أيُّ اتّفاق؟ - سألها أستور.

- أن نذهب نحن الثلاثة معًا إلى القارّة.

- وفي الأثناء نبحث عن الحذاء. - أضاف بييترو وهو يفرك إحدى عينيه.

دسَّ أستور إصبعًا في أنفه: - هلّا مررنا بالبيت؟ عليَّ أن آخذ دماي.

- سنعثر على دمىً أخرى. - أجابت آنّا.

وهكذا مضى الثلاثيّ في أصبوحةٍ غائمة نحو الشرق، متّبعين الأوتوستراد، ومصحوبين بكوكولوني، يحمل كلٌّ منهم حقيبته على ظهره.

كانوا يسيرون بسرعةٍ ملحوظة، وكلّما صادفهم نفقٌ قطعوه يدًا بيد وهم يغنّون. وغالبًا ما حادوا عن الطريق للبحث عن محلّ أحذية ومراكز تجاريّة. خلعوا أبوابًا، وهشّموا زجاجًا، وفتحوا مئات العلب، دون أن يجدوا أثرًا للأديداس الذي يتوق إليه بييترو. ومع مرور الأيّام تيقّنت آنّا أنّ ذلك الحذاء إمّا أنّه لا وجود له أو أنّه لم يصل إلى صقلّية إطلاقًا. لكنّ الفتى لم ييأس.

- ألا تدركين؟ هذا دليلٌ على أنّ الحذاء سحريّ. سنعثر عليه في باليرمو، سترين.

وكانت آنًا تعضّ لسانها. تريد بلوغ كالابريا بأقرب وقتٍ ممكن، ويجنّ جنونها حين تضيّع الوقت بتلك الطريقة. لكنّها أبرمت اتّفاقًا ولا بدّ أن تحترمه.

تغيَّر المنظر عليهم حين سلكوا المنحنى آ 29.

اقترب الأوتوستراد إلى الساحل بعد المنعطف الواسع. وكان السهل جهة اليمين، ينهض فيه سورٌ ضخمٌ من حجارةٍ صلدةٍ يكابر فوقها النباتُ المتهالك. وكانت السفوح إبّان الغروب تتوهّج باللون البرتقاليّ فيما تتلوّن العروق الصخريّة باللون الأزرق. والسلسلة تتبع الشريط الساحليّ الذي يتشقّق بخُلجانٍ صغيرةٍ وكبيرة. وبين الجبال والبحر يمتدّ مجالٌ من الأرض مثقلٌ بأسطح المباني وشرفاتها الناتئة مثل القطع البلاستيكيّة التركيبيّة المرميّة على سجّادٍ أخضر. تنتهي البلدات واحدةً في الأخرى، ولولا لافتات الأوتوستراد لما عُرِفَ أنّ هذه تيرّازيني، وتلك تشينيزي، وتلك كاباتشي، وتلك سفيراكافالّو.

وكلّما صادفهم مسافرون فرادى تلافوهم ما إن يرون الكلب الشرس الذي يصحبهم. أمّا إذا التقوا بعصابةٍ ما، فكان عليهم أن يبادروا لحفظ مسافة الأمان، وأن يكبّلوا رقبة كوكولوني المتذمّر. الكلب يتبعهم خطوةً بخطوة، لكنّه في بعض الأحيان يختفي ولا يعود إلّا مع حلول الظلام، وفي الليل يقعي بجانب الثلاثة وأذنه مشدودة، متأهّبًا للنباح على أتفه نأمة.

استغرقوا أسبوعين للوصول إلى باليرمو.

كان الأوتوستراد يمضي مباشرةً داخل المدينة المحتلّة من طوابير الشاحنات والدبّابات والعربات ذات النوافذ المتّسخة. وجدوا أنفسهم

قبالة ما كان يبدو أنّه نقطة سيطرة. حواجز أسمنتيّة وعوارض وأسلاك شائكة تمنع المرور، وتمتدّ ما بين الريف والبيوت. وفي كلّ مكان ثمّة لافتاتٌ مثقّبةٌ بالرصاص تهيب المواطنين أن يتوقّفوا لإجراء الفحوصات الطبيّة: «منطقة موبوءة. عقوبة اجتياز الحواجز تتراوح ما بين السجن ثلاثين عامًا والإعدام».

نسقٌ طويلٌ من الأكواخ التي كانت تستضيف الوحدات الصحيّة، مكتظّة بأجهزة الكمبيوتر والبزّات الصفراء والبدلات المرميّة عشوائيًا ويعتليها روث الفئران.

ساروا في المدينة الهامدة. لم ينجُ أيٌّ شيء من الدمار الغاضب. لا دكّانًا، لا بنايةً، لا شقّةً. كلّ الأبواب مخلوعة. كلّ المطابخ مفرّغة. كلّ الخزائن مشرعة. اللوحات مرميّةٌ أرضًا، الزجاج مهشّم، الأطباق استحالت إلى ألف قطعة. وبدت بعض الأحياء مدكوكةً بالقذائف. أجزاءٌ من الجدران صامدةٌ كصخور الشواطئ ما بين أنقاض الحطام التي تغزو الطرقات وتدفن السيّارات. صادفوا أشلاء متفحّمة لمروحيّتين ساقطتين.

وحين وصلوا قرب البحر اضطرّوا إلى تسلّق حواجز من الأثاث والأدراج والقمامة التي ترفرف فوقها أعلامٌ سوداء كالأسمال البالية. لا يبدو أنّ أحدًا قد نجا. وإن نجا لم يعد له وجودٌ آنذاك. حتّى القطط والكلاب كانت غائبة. لا وجود لكائنات حيّة ما عدا البقّ الأخضر الذي يشكّل كراتٍ هائجةً تنقضّ على وجهك وتتسلّل إلى شعرك.

كان بييترو يمشي ممسكًا يد أستور الذي فقد النطق وهو يمتصّ إصبعه الكبيرة بين أسنانه، وينظر بعينين مذهولتين إلى

عقد الجثث المحترقة. وكان لدى آنّا انطباعٌ أنّ المدينة لا ترحّب بمجيئهم. لا تزال آلامُ سكّانها ماثلة، ولا رغبة لديها إلّا أن يطويها النسيان. لكنّ الطبيعة تجد صعوبةً في دفنها. الأعشاب تنمو ذابلةً بين صدوع الأسفلت، وحشيشة الريح تتخلّل القرميد حائرةً، والشجيرات واهنات وبائسات لكأنّها ترسّخ جذورها في تربةٍ حبلى بالسموم. حتّى اللبلاب الذي يتكاثر عادةً في كلّ مكانٍ ويحيك أنسجته الحزينة الخضراء على أطلال عالم الكبار، كان في تلك المدينة يمدّد سيقانه الأفقيّة الهزيلة بأوراقها المصفرّة والمتيبّسة.

تحوّل كورنيش البحر إلى ما يشبه مخيّم اللاجئين، إذ تكوّنت فيه خلال تلك الأعوام الأربعة طبقاتٌ من البلاستيك والأقمشة والكرتون المقوّى. لم يعد شأنه يهمُّ حتّى النوارس والقوارض. الأجساد مكدّسة في الساحات، والحفر الجماعيّة تغصّ بالجثث التي نُثِرَ عليها الجير. تردّى الميناءُ جرّاء حريقٍ شرهٍ لم يدّخر حتّى حدائد البوّابات، وأحال الأرصفة إلى أفنيةٍ متفحّمة. ما زالت الرافعات شامخة، ومعها أكوام الحاويات الصدئة. ثمّة سفينتان راقدتان كلٌّ على جانبها مثل الحيتان التي يجرفها التيّار إلى الشاطئ.

حين توقّفوا أمام محلّ الرياضة، المستودع الهائل والقاتم مثل ردهة الجحيم، لم تتمالك آنّا لسانها.

– لن نجد حذاءك هنا. – قالت.

ظلّ بييترو صامتًا برهة ثمّ قال: – فلنذهب.

قضوا الليلة في مسرح بوليتياما. كان البهو ممتلئًا بالبراميل، وعلب الأدوية، وحمّالات المحاقن والأسرّة الطبيّة. وقد رسم أحدهم فوق شبّاك التذاكر جمجمةً بعينين بنفسجيّتين.

أزاحوا الستار المخمليّ السميك فانزلقت حزمة ضوء المشعل على المقاعد الحمراء، ولمعت على أعمدة الشرفات المذهّبة، وعلى الثريّات التي استوطنها الغبار، وعلى الإفريسك الذي يستعرض خيولًا جامحةً تبرز من بين الظلمات. هبّ سربٌ من الحمام في العتمة ورفرفت أجنحتها واصطدمت بالقبّة الكبيرة الزرقاء. فتساقطت ميْتةً بين صفوف المقاعد.

كان أستور متشبّثًا بذراع شقيقته. سأل: – ما الذي كانوا يفعلونه في هذا المكان؟

لم تكن آنّا واثقة، لكنّها أجابت: – كان الأشخاص الأفاضل يرتادون المسارح. ماما أيضًا كانت ترتاد المسرح، بتنوّرتها الجميلة وحذائها ذي الكعبين. – نقلت الضوء إلى الخشبة حيث كانت تقام العروض – وهناك، كان بعض الناس يصعدون الخشبة ويرقصون ويروون الحكايات.

ناموا في إحدى الشرفات جائعين.

استيقظت آنّا قبلهما. كان بييترو وأستور ممدّدين على المقاعد مثل صغار الوطاويط. تركت لهما بطاقةً تقول فيها أن ينتظراها في الخارج.

الشمسُ في مكانٍ ما خلف جداريّة الأبنية. وفي ساحة كاستلنوفو الكبرى تحوم زوابعُ من أكياس البلاستيك الملوّن والأوراق وتهيم ما بين العربات والدبّابات المتجمّعة حول الصرح الرخاميّ. لم يبق من التمثال سوى قدميه.

اتّخذت طريقًا طويلًا ومستقيمًا على جانبيه كنائسُ ومحلّاتٌ منهوبة وأبنيةٌ من القرن التاسع عشر ترفرف من نوافذها خِرقٌ

وراياتٌ مهترئة. وفي المدى يتراءى جانبٌ أسود من جبل في زرقة الصباح.

عرفت آنّا بقايا محلّ المثلّجات «سحر»، حيث كان جدّها يصحبها، ومحلّ الأحذية حيث اشترى لها والدها جزمةً وبريّة. دلفت إلى طريقٍ فرعيّ وتقدّمت فيه على غير هدىً تارةً ووفق ذاكرتها تارةً أخرى حتّى وجدت شارع أوتافيو داراغونا.

تلك هي البناية التي عاش فيها أبوها، رماديّة وورديّة، شرفاتها تطلّ على مرأبٍ تحت الأرض ومبنىً عصريٍّ محترق. دفعت البوّابة الضخمة، المصنوعة من خشبٍ داكن، ودخلت إلى البهو. ثمّة شجرة عيد ميلاد مقلوبة على باب المصعد ما بين شظايا الزجاج الحمراء. أضاءت المشعل ومشت نحو السلالم.

في الطابق الثاني، كان الباب الزجاجيّ لشركة تأمين مقتلعًا من مكانه، وتتراءى في الداخل مكاتبُ مقلوبة وسجّادٌ تبعثرت فوقه الأوراق ولوحات المفاتيح وشاشات الكمبيوتر. تعرّضت آلة المشروبات الغازيّة للنهب والتخريب. وعلى الحائط لافتةٌ لامرأةٍ شقراء تقول: «أمِّنْ على مستقبلٍ زاهرٍ معنا!»

ظلّت آنّا تحدّق إلى العتبة التي تحملها إلى الطابق الثالث. باب البيت موارب، وإناء الصبّارة ما زال بجانب البساط. فركت عينها وواجهت السلالم. وكما لو أنّها تتأرجح في حلم، قطعت الممرّ الطويل ذا البلاط الرخاميّ والجدران المطليّة. الضوء يتسرّب من نوافذ الغرف ليرسم خطوطًا منيرة على الحيطان. الخزانة البيضاء مفتوحة وكلّ المعاطف على الأرض، والأحذية والقبّعات والقفّازات. عرفت السترة السوداء ذات الحزام التي كان

أبوها يرتديها عندما يقود المرسيدس في أثناء عمله. توقّفت عند باب غرفتها. اللوحات لا تزال معلّقة على الجدار. إحداها تُظهِرُ سفينةً يركب فيها ثلاثة أشخاص وفوق كلٍّ منهم اسم: أنا، ماما، بابا. رأس جدّها وجدّتها ينتآن من البحر. تبادرت إلى شفتيها ابتسامة. لماذا وضعتهما في الماء؟ لا تزال محفظة فرشاتها وألوانها المائيّة على طاولة إيكيا الحمراء، إضافةً إلى كأسٍ مرصّعةٍ بالجير.

كلُّ غرضٍ في الغرفة يُزهِرُ في بالها ذكرى. تنهض قطعُ الذاكرة من النسيان مثل شظايا مسنّنة وتتكوّن من جديد في موشور الصور. عادت آنا طفلةً صغيرةً، آنينا التي تأتي إلى ذلك البيت مرّتين في الشهر.

وعندما رأت غرفتها حينذاك، أدركت أنّها لم تكن مشتاقةً إليها. لم تشعر بأنّ الغرفة لها يومًا. كانت مملوءة بالأشياء الجميلة، لكنّها بدت موضوعةً لمجرّد الزينة ليس إلّا، مثل النخلة البلاستيكيّة في حوض السلاحف. كما أنّها لم تلهُ كثيرًا بتلك الدمى والألعاب. فهذه أغراضها التي في باليرمو، لا يمكن أخذها إلى كاستيلّاماري. ليست بثمرة الدلال، ولا بمكافأة على حسن السلوك. إنّما غنائم غزوةٍ قام بها والدها على مركزٍ تجاريٍّ بعد أن انفصل عن أمّها.

أطلّت برأسها إلى الشارع. لم يكن لذلك الصمت المهيب وجودٌ من قبل؛ إذ كان الزحام خانقًا طوال اليوم، وفي الصيف يفتح الأهالي نوافذهم فيسمعون ما يتفوّه به المارّة. ذهبت إلى المطبخ. كانت الثلّاجة الفارغة مخلوعة، وأواني الطعام المغبرّة

تملأ المجلى. القهوة متناثرة على الأرض، والجدار فوق المغسلة ملطّخٌ ببقع العفن الأخضر. وجدت في أحد الدروج علبة من السيريلاك على شكل أحرفٍ كانت تغمّسها بالحليب. فتحتها فانبثقت منها فراشاتٌ صغيرة. غرفت حفنةً ونثرتها على الطاولة المشمّعة. رتّبتها أفقيًا فاستطاعت أن تكوّن «أتور»، كان ينقصها حرف السين. ابتلعتها واحدةً تلو الأخرى، ومضغتها بصمت.

لا بدّ أنّ أحدًا خيَّم في غرفة أبيها؛ إذ كانت طافحةً بالخرق وقوارير الكحول الفارغة. أخذت الستائرُ والسجّادةُ نصيبَها من النار، وكان الجدار حول النافذة مؤطَّرًا بالصدأ. فتحت دفّة الدرج المجاور للسرير. بخّاخ الجيوب الأنفيّة. ساعة. صورة: آنّا صغيرةً بالسيّارة برفقة والدها. ووالدتها تحمل بين ذراعيها أستور المولود التوّ. أمّها وأبوها إلى جانب رومانيٍّ بالزيّ القديم قبالة الكولوسيوم.

ثمّة ظرفٌ مفتوح ومجعَّد.

حبيبي،

كيف حالك؟ أنا بخير هنا والطقس باردٌ جدًا. لقد أثلجت ثلاثة أيّام، حتّى صارت السيّارة هذا الصباح أشبهَ بكرةٍ بيضاء، إلّا أنّ الشمس كانت رائعة. ذهبتُ للتزلّج مع أدريانا التي ما انفكّت تسألني عنك. أعتقد أنّها تخشى البقاء عزباء. تخيَّلْ أنّني أنا التي كنتُ سأبقى وحيدةً في نظر العائلة. التزلّج ممتعٌ دائمًا، لاسيّما اليوم بكلّ هذا الثلج الطازج، يؤسفني أنّك لستَ هنا. أعلم أنّك صقليّ، تخجل من ارتداء الجوارب الطويلة، لكنّك ستأتي مرّةً على

الأقلّ، عدني بذلك، وسأعلّمك على سياقة كاسحة الثلج. أدريانا تقول إنّني بتُّ أتكلّم باللكنة الصقليّة، وهذا يسعدني. لم أعد أطيق لهجة البندقيّة. أفكّر فيك وأودّ أن تكون معي في السرير لتدفئ قدميّ الباردتين.

كثيرًا ما تساءلتُ هذه الأيّام لماذا أحبّك، واستوعبتُ أنّك تبذل جهدًا فظيعًا لتتقبّلني على ما أنا عليه. لتتكيّف معي. يؤسفني أنّنا نتشاجر. انت رجلٌ مميّز وأريد أن أجرّب النظر إلى الأشياء بعينيك. هل ستسمح لي بذلك؟ ينبغي ألّا يتخلّى أحدنا عن الآخر. سأتعلّم كيف أجعلك سعيدًا. هل رأيتَ أنّني اكتب إليك رسالةً بالورقة والقلم؟ أنا واثقة من أنّك حين تجدها في الدُّرج ستسعدك أكثر من أيّ إيميل.

آنينا بخير. ووالدتي تحبّ تأدية دور الجدّة، وها هي تحشوها بالمأكولات. قلتُ لها إن لم تأتِ للتعرّف عليك في باليرمو فلتنسَ أنّ لديها حفيدة. ألستُ لطيفة؟

قبلاتي إلى كلّ جزءٍ منك.

ماريّا غراتزيا

أخذت الرسالة والصور، وضعتها في الحقيبة وخرجت.

غادروا باليرمو في ذلك الصباح نفسه.

وحين وصلوا إلى شيفالو قرّروا أنّهم يحتاجون إلى استراحةٍ بضعة أيّام.

.10

انتزعت آنّا الكتابَ من يدي شقيقها: - دع عنك هذا الأخطبوط الآن، فلنرَ ما الذي عثر عليه بيترو.

صحبهما الفتى إلى داخل مرأبٍ، جدرانُهُ مطليّةٌ بالجير، وفيه سيّارة بي إم دبليو رصاصيّة ومغطّاة بستارة ضخمة تشغل حيّزًا كبيرًا من المكان. وبين عبواتٍ وعلبٍ ومعدّاتٍ رُكِنت درّاجةٌ ناريّةٌ من طراز فيسبا سايدكار، سماويّة اللون وسرجُها أبيض، ومقابضُها مزركشة، ومقعد العربة الجانبيّة فيها من قشٍّ مغشوشٍ ومنسوج.

ركبها بيترو وشدَّ قبضتيه على المقود: - أشعر من صميم قلبي أنّها تعمل. حتّى إنّ عجلاتها منفوخة. تسعنا جميعًا.

أمّا آنّا، وقد كانت تنتظر علبة نوتيلا على أقلّ تقدير، لم تتمكّن من إخفاء خيبتها وحاولت أن تعالج الوضع بقولها: - جميلةٌ جدًّا.

- ألا تفهمين؟ - أراها بيترو المحرّك. - يمكننا أن نتحرّك بسرعةٍ أكبر.

التزمت صمتها.

حنى الفتى رأسه ونظر إليها وهو يسعل: - ما بكِ؟

- لا شيء. إلى أين سنذهب؟

- ماذا تقصدين؟ إلى ميسّينا طبعًا.

- أجل. ولكن... - انقطعت عن الكلام وأكملت الجملة في سرّها: ألسنا بخيرٍ هنا؟

- ولكن، ماذا؟

- لا شيء. - انتبهت أنّ صوتها يقسو. - وكيف نتدبّر أمر كوكولوني؟

لطم بييترو جبينه بكفّه: - لم أفكّر في أمره... سنضعه في العربة مع أستور!

- لن تتسّع لكليهما. - أمسكت آنّا مفكًا وتأفّفت. - سأذهب إلى البيت.

- أمّا أنا فسأبقى بعض الوقت. عليَّ أن أنظّف الدرّاجة.

تعلّق أستور بذراع شقيقته: - إنّني جائع.

- هيّا بنا. - قالت، وخرجا من المرآب.

* * *

كانت آنّا ساخطة.

يا له من وغد...

لم يعد يريد البقاء في شيفالو. يريد الذهاب بعيدًا لأنّه ضجر منها.

كان أستور يهرول بجانبها مقطوع الأنفاس: - تمهّلي. لماذا أنتِ غاضبة؟

- لستُ غاضبة. تحرّكْ!

كانت تُذعَر بمجرّد التفكير أنّ بييترو يريد أن يهجرها. لم تعد تستطيع أن تتصوّر نفسها وحيدةً من جديد. ما الذي يحدث لها؟ لم تشعر إطلاقًا بأيّ حاجةٍ إلى أحد، وها هي حينذاك متعلّقة

بذاك الدجّال. وبات مزاجها يتوافق مع مزاجه. فإذا كان سعيدًا صارت سعيدة، وإذا التزم الصمت تجهّمت. ويكفي أن يناديها آنّينا لكي تتحوّل إلى طفلةٍ غبيّة. وكلّما وجدت مرآةً تسمّرت أمامها، لم يعد شكل أنفها يعجبها، وأصبحت تكره الشامة الصغيرة التي على خدّها. وغدت تضحك من دون أن تفتح شفتيها لكي تخفي نابها المكسور، وباتت تمضي ساعاتٍ وهي تجرّب الملابس. كانت مرهقةً من ذاتها لدرجة أنّها تفرّج عن روحها بالعراك مع بييترو وسرعان ما يعتريها الندمُ. أو أن تحاول الهرب، لكنّ لاصقًا خفيًا يجذبها إلى الخلف.

عذابٌ، لا تودّ استبدال أيّ شيء في الدنيا به. تفكّكت الحياة إلى دقائق، وكلّ دقيقة تمضي بجانب بييترو كانت لها بمثابة الهديّة. توارى الملل. هذا الأخرق يُضحِكها، ويريها العالم من منظورٍ أقلّ جدّيّةً وريبةً من منظورها. كما أنّه وسيمٌ جدًا، آنّا تقرّ بذلك. ففي تلك الأشهر وجد أنفُه وعيناه وفمُه وذقنُه مقياسه الصحيح، وأصبح متكاملًا.

إلّا أنّ هناك أمرًا يبعث فيها الجنون أكثر من أيّ شيء آخر: لم تفهم بعد إن كانت حبيبته أم لا. كم ودّت أن تدفعه إلى الحائط وتسأله: «هل نحن مرتبطان؟»

سوى أنّها كانت تخشى الإجابة.

* * *

في أثناء تجوّل الرباعيّ في البلدة، عثروا على شقّة في قمّة بناية قديمة تطلّ على المرفأ. كانت السلالم التي لا يهتدي إليها كثيرٌ من الضوء تنتهي ببابٍ صغير ينفتح على صالة جلوسٍ مبلّطة

بالصلصال النضيج. ثلاث أرائك بيضاء مرتّبة على شكل حدوة الحصان حول طاولة من الكريستال وباب زجاجيّ طويل يؤدّي إلى شرفة ملأى بالنباتات. ذبل كثيرٌ منها، ونما بعضها كالليمون والسيكاد في الأحواض. وفي الوسط طاولةٌ من الحديد المطروق، سطحها من الخزف وجوانبها من أضلاع الأسِرّة المصفوفة. تشرف الجهة اليسرى على البلدة الجديدة الممتدّة إلى الخليج. وتحت البناية، ثمّة شاطئٌ رمليٌّ صغير، محدَّدٌ برصيفٍ أسمنتيّ، رسا فيه قاربان. وكان البحر شفيفًا حتّى إنّه بدا ليس موجودًا أساسًا. المطبخ مفصولٌ عن الصالة بقوس، والأثاث فيه مصبوغٌ بالأحمر. أدوات المائدة مرتّبة في الأدراج، والأطباق والكؤوس على الرفوف. والبياضات مطبّقةٌ في الخزانة التي في الممرّ.

وعلى الرغم من كلّ هذا لا شيء يضاهي الرفاه المكرَّس في غرفة النوم بالسرير السرادق المحتجب بستائر ناعمة كالشاش. وعلى البلاط الرخاميّ اللامع تنبسط سجّادةٌ مطرَّزٌ عليها شكلُ نمرٍ يتربّص بين الأعشاب. وهناك دقَّ كوكولوني أوتاد مرقده. وإذا استلقيتَ على الفراش رأيتَ السقف المقبّب المطليّ بالأزرق تدور في فلكه مئاتُ النجوم الذهبيّة. وقد حفظت دعائمُ النوافذ مُحكَمَةُ الإغلاق الشقّةَ نظيفةً، فلم يتسرّب إليها الغبار أو الحشرات أو بقع الرطوبة. من المؤكّد أنّ أصحابها لم يسكنوها خلال الوباء. كلّ شيء في أفضل حال، باستثناء الكهرباء والماء والغاز، وقد عزمت آنّا على الإبقاء عليها مثلما وجدتها، إلّا أنّ المهمّة كانت مستحيلة بوجود أولئك الخنازير الثلاثة.

فالكلب المقرف لم يكن قد تعلّم التبوّل في الخارج، وكلّما

أراد قضاء حاجة رفع رجله وتبوّل على الأريكة. وقد تغوّط على الطاولة ذات مرّة. أمّا أستور، فكان مولعًا بالتبوّل في الكنيف «مثل الكبار»، ولسوء حظّه انعدامُ الماء في الخزّان، ما أدّى إلى اعتبار المرحاض منطقةً محظورة. بييترو كان أفضل منهما بقليل، إذ كان يقضي حاجته في الشقّة السفلى على الأقلّ، وكان ينزع حذاءه قبل الخلود للنوم.

عاد بييترو إلى البيت فوجد آنّا وأستور جالسين على الأرائك.

- ماذا تفعلان؟ - سألهما.

انتفض الولد على قدميه: - كنّا ننتظرك. - ركض إلى ركن المشاريب واستلّ قنّينة الخمر بنبتة الآس. - علينا أن نشربها كلّها، فلقد رأينا الأخطبوط.

- بالضبط! - لم يكن بييترو يرفض أيَّ مشروب إطلاقًا. وقد حدث أنّه ثَمِلَ لدرجة أنّه لم يعد قادرًا على الوقوف على قدميه، فغطّته آنّا بلحافٍ وتركته ينام على الصوفا.

تناولوا القنّينة من يدٍ إلى يد، وسكروا جميعًا في أقلّ من عشر دقائق. صارت المحادثة بينهم تجرى بمشقّة، يقطعها التثاؤب بينما كانت الريح تصفق الزجاج.

لاحظت آنّا أنّ بييترو يمدّ ساقيه على الطاولة وهو غارقٌ بين الوسائد. كان يرتدي السترة الواقية من الرياح والقميص والبنطلون الطويل والجوارب.

لم يكن ينزع ثيابه قط، ولا يأتي إلى الشاطئ أبدًا. ولديه دومًا ما يشغله. ارتابت آنّا من إذا ما كان يخفي عنها البقع الحمراء، لكنّها فضّلت عدم التفكير في الأمر. لأنّهما منذ الخروج من

الفندق تلافيا الحديث بموضوع الفيروس. وقد اتّفقا ضمنيًا على التظاهر بأنّه غير موجود. ومع مرور الأيّام صارت الحمّى الحمراء كالضوضاء الخلفيّة، كصوت البحر المتسرّب من النوافذ المغلقة والذي لا تسمعه إلّا إذا ركّزتَ فيه. ولكنْ يكفي القليل لكي يعاود الغرابُ رفرفة جناحيه المنحوسين لتبديد السعادة برمّتها.

قفز بييترو فجأة وصفّق: - ألا نتعشّى؟ سيهبط الظلام بعد قليل. - نكز أستور الذي غفا.

فركت آنّا المذهولة عينيها وذهبت إلى المطبخ. أخرجت عدّة المائدة والأطباق ورتّبتها على الطاولة. ووضعت في منتصفها الشمعدانَ المكتسي بالشمع الذائب.

أظهر بييترو ثلاثة معلّبات: - لا حمّص هذا المساء!

دوّرت آنّا العلب بين يديها تكاد لا تصدّق ما ترى: - حساء دجاج... أين عثرتَ عليه؟

رفع الفتى يده وتمايل رأسه مع ابتسامة سنّوريّة وأظهر قنّينة داكنة اللون، ذات فلّينة مغلّفة بالقصدير المذهّب: - شامبانيا، الأفضل. كتلك التي كان والدي يشربها عندما يفوز بالسباقات.

ألقى أستور بنفسه إلى الحساء، لكنّ بييترو اعترض سبيله: - انتظر. عليكما أن تجيباني عن سؤال أوّلًا.

سقط جبين أستور على الطاولة: - لكنّي جائع...

- ما اليوم؟

رفعت آنّا كتفيها: - أيُّ سؤالٍ هذا!

- 8 يونيو. - بالنسبة إلى أستور كلُّ الأيام 8 يونيو.

هزّ الفتى رأسه: - اليوم، بينما كنتما مضطجعين على

الشاطئ، قمتُ بجولة ووجدتُ محلّ مجوهرات كامّاراتا. رأيتُ في الواجهة ساعةً كبيرةً بملصقٍ يقول إنّها سولار كوانتوس، ساعة المستكشفين الشمسيّة. الأرقام تتحرّك وتؤشّر إلى التاريخ أيضًا.

– نظر إلى الشقيقين كما لو أنّه ينوّمهما مغناطيسيًا.

– وبعد؟ – قال أستور نافد الصبر.

أخرج بييترو من جيبه ساعةً ذات حزام مطاطيّ أسود: – متى ولدتِ يا آنّا؟

بدأت الفتاة تدرك الأمر، فتلعثمت: – الثاني عشر من مارس.

صفّق بييترو: – مباركٌ يا آنّا. – وراح يصارع سدّادة الشمبانيا.

قفز أستور عن كرسيّه: – إنّه يوم ميلادكِ. إنّه يوم ميلادكِ. يوم ميلاد شقيقتي.

بدأ كوكولوني يولول ما إن سمع تلك الجلبة. انفجرت السدّادة مدوّيةً وانهمرت الرغوة على الطاولة.

آنّا ويداها على فمها، أرادت أن تشكره، لكنّ حنجرتها أُغلِقَت بغُصّة. غمغمت بشيء ما، ثمّ حنت رأسها وراحت تبتلع ريقها.

مرّر بييترو القنّينة إليها: – اشربي. هذه حفلتكِ.

شهقت الفتاة ونظرت إليه: – كيف عرفت؟

– أنتِ مَن أخبرني. في باليرمو.

– وما زلتَ تذكر؟

– طبعًا. ولكن، كم عمركِ الآن؟

نظرت إليه مشتّتة الذهن: – ثلاثة عشر عامًا، على ما أعتقد. وربّما أربعة عشر. لا أدري...

- حسنًا، لا بأس. - أدخل بييترو يدًا في جيبه. - ما يهمّ هو أنّ اليوم حفلتكِ. - أخرج من جيبه طوقًا ذهبيًا يحمل نجمة بحر مزوّقة باللون الأزرق. - عيد ميلاد سعيدًا. - وألبسها الطوق على عنقها.

غطّت آنّا عينيها، فإذا هي تتمايل عبْر الممرّ حتّى وصلت الحمّام وأغلقت على نفسها. أسندت جبينها على الباب وحرّرتْ بكاءها.

كان بييترو خلف الباب يناديها: - آنّا! آنّا! ما بكِ؟ افتحي.

- افتحي، هل غضبتِ؟ - أستور يردّد وراءه وينظر من ثقب القفل. - قد تموتين اختناقًا في الداخل. تغوّطتُ قبل قليل.

- سأخرج على الفور. باشرا الطعام. - استطاعت أن تقول.

- كلّا، سننتظركِ. - قال بييترو.

- ولكن ليس طويلًا. - أضاف أستور.

* * *

تمالكت آنّا نفسها من جديد عندما عادت إلى الطاولة، لكنّ عينيها لا تزالان منتفختين. وكانت النجمة تتأرجح على صدرها.

وبينما تناولت الطعام وهي تشهق بأنفها كان الذكران يأكلان بشراهة ويجترعان الشمبانيا ويخوضان منافسة بالتجشّؤ.

رفع بييترو كأسه: - اليوم، آنّا هي الملكة ولها أن تفعل ما تشاء. ونحن الاثنان خدمٌ عندها.

- ومنذ متى لم نكن خدمًا عندها! - قال أستور.

- هو هكذا، لا تصدّع رأسي. - أخرسه الفتى. - هذه القواعد وضعتها عمّتي شيليستي ليوم الميلاد.

- وماذا علينا أن نفعل؟ - سأل الطفل.

لم يكن لدى آنّا أيُّ فكرة. نظرت حولها وهبطت عيناها على كوكولوني الذين كان بجوار المائدة يلعق علبة حُمّص.

- فلنلعب لعبة الحيوانات. – قالت.

* * *

قفز أستور في كلّ أرجاء الصالة كالقرد. وقلّد بييترو الدبّورَ بما يشبه الدرّاجة الناريّة الصغيرة كثيرًا.

وعندما حان دورها، تمدّدت آنّا على البلاط وحرّكت ذراعيها وساقيها واختبأت تحت الطاولة.

لم يفهم شقيقها: - ما هو؟

- عنكبوت؟ - ارتجل بييترو.

هزّت رأسها نفيًا.

- أفعى بذراعين؟ - قال أستور.

- نعجةٌ سكرانة؟ - جرّب بييترو.

وما زالت آنّا تتلوّى وتفتح فمها وتغلقه.

انفجر أستور ضاحكًا: - ضفدعٌ التهم نعجةً سكرانة؟

- لا. أفعى بذراعين التهمت ضفدعًا التهم نعجةً سكرانة. – تابع بييترو.

أستور لم يقاوم، ارتخى على الديوان وهو يتفتّق ضحكًا.

- ما الذي تحاول آنّا تقليده؟ - اختتم بييترو واضطجع بجانبه، والدمع في عينيه.

استاءت الفتاة ووضعت يديها على جانبيها: - إنّه أخطبوط.

ضحك أستور وأشار إليها بإصبعه: أخطبوط، أجل. أخطبوطٌ سكران.

كان الفتيان يلطم كلٌّ منهما وجهه كالمعتوهين.

- لحسن الحظّ أنّني الملكة. - قالت.

تدحرج أستور على الأرض، كان قد ضحك حتّى تألّم بطنه.

أرسلتهما آنّا إلى الجحيم وذهبت إلى المطبخ لترتّبه وأخذت تصفق الأطباق. سمعتهما يغمغمان في الغرفة الأخرى.

- هل غضبت؟ - قال أستور.

- أعتقد ذلك. - لم يتمكّن بييترو من العودة إلى صوابه.

- لماذا؟

- النساء هكذا. ستنسى بعد قليل.

- هكذا كيف؟

- مزاجيّات.

- ماذا يعني مزاجيّات؟

- يعني أنّهنّ يغضبن بسهولة إذا مازحتَهنّ. والدي كان «بلاي بوي» وكان يقول إنّه ما من أسوأ من امرأة غاضبة.

- ماذا يعني «بلاي بوي»؟

- هو الرجل الذي لديه كثيرٌ من النساء. كان يقول إنّك إذا أردتَ الحصول على كثيرٍ من النساء فينبغي لك أن تقدّم كثيرًا من الهدايا.

- ألهذا أتيتَ بالطوق لشقيقتي؟

- بالتأكيد.

رمت آنّا علبةً على الأرض وعادت إلى الصالة ساخطةً كاللبوة:

- آه، هـذا يعنـي أنّـك أهديتنـي الطـوق لأنّـك تريـد الحصـول علـى كثيـرٍ مـن النسـاء؟

ابتلـع بييتـرو ريقـه ولـم يسـتطيع أن يـردّ. وكان أسـتور بجانبـه يمـضّ قبضتـه.

أشارت آنّا إلى الفتى بذقنها: - والآن؟ تكلَّمْ!

- لا، لا. لسُت أنا. والـدي كان كذلك، أنـا لا أريدهـنّ. أنـا أكتفـي بكِ. ولقـد أهديتُكِ الطـوق لأنّ اليـوم عيـد ميـلادكِ.

رمقته عابسةً كأنّها تحاول أن تفهم إنْ كان ينطق بالحقيقة.

- اعترف بأنّك تريد أن تصبح «بلاي بوي».

- كلّا. – وضع بييترو يده على قلبه. – أقسم لك.

- ولا أنا. – أكّد أستور.

أشـارت آنّـا إلـى المطبـخ: - حسـنًا، بمـا أنّنـي الملكـة، فهيّـا أيّهـا الخادمـان، اركعـا واطلبـا السـماح ثـمّ نظّفـا كلَّ شـيء.

* * *

انطفـأت الشـمعةُ بنفخـةٍ واحـدة وفـاض فـي الغرفـة ظـلامٌ أسـود كالعرقسـوس. لا نجمـةً فـي السـماء، لا حـزَّ قمـر، لا ضـوءًا في البعيد، لا شـيء سـوى صـوت الأمـواج ترتطـم برصيـف الشـاطئ.

عدّلـت آنّـا الوسـادة ودفعـت أسـتور عنهـا بمؤخّرتهـا إذ كان نائمًـا عليهـا. بييتـرو متحجّـرٌ علـى يمناهـا، مستلقيًا علـى ظهـره، وكوكولوني يشـخر تحـت السـرير.

كانـت مجهـدة، لكنّهـا لـم تتمكّـن مـن النـوم. لا تـزال تمسـك نجمـة البحـر. اسـتدارت إلـى جانـب، فضـمّ الفـراشُ ردفهـا العظمـيّ. شـعرت بأنفـاس بييتـرو، يشـهق ويزفـر.

- أأنت مستيقظ؟ - همست في أذنه.

- أجل.

- ألا تستطيع أن تنام؟

- لا. وأنتِ؟

- لا.

دنت آنّا من كتفه: - فيم تفكّر؟

- في الكلاب. يعيشون أربعة عشر عامًا حدًّا أقصى. - صمت قليلًا. - مثلنا.

نعرته آنّا على عضلة ساقه: - هذا صحيح...

- وخلال الأعوام الأربعة عشر يفعلون كلّ شيء. يولدون، يكبرون ويموتون. - أحسّت به يجهش - في نهاية المطاف لا يهمّ كم تستمرّ الحياة، بل كيف نعيشها. إن عشتِها جيّدًا، كلّها، فإنّ الحياة القصيرة تعادل الطويلة. ألا تعتقدين ذلك؟

انزلقت يد آنّا تحت الغطاء وبحثت عن يد بييترو. ضمّتها، وداعبت بإبهامها أصابعَه.

* * *

فتحت آنّا عينيها على بئرٍ من الضوء. كان بييترو وأستور نائمين، واحدًا رأسُهُ تحت الوسادة، والآخرَ ملفوفًا بالغطاء على حافّة السرير.

نهضت عن السرير، مطّت فقراتها وجرجرت نفسها إلى الصالة. أخذت كتاب الصيد تحت الماء وخرجت إلى الشرفة وهي تتثاءب.

هو نهارٌ آخر بلا ريح، والشمس تنبض في سماء زرقاء ملطّخة هنا وهناك ببقعٍ بيضاء قليلة. البحر هادئ، بل كان أكثر شفافيّةً

من اليوم السابق. بلغها كوكولوني يتأوّد برأسه، ويهزّ ذنبه على مضض، ويتمسّح بها.

تصفّحت آنّا الكتاب مستلقية على المقعد. ثمّة فصلٌ يبيّن تقنيّة التعويض، التي تفيد بتوازن ضغط الماء على الأذن كي لا يشعر الغوّاص بالألم عندما يغوص. الحيلة بسيطة: يكفي أن تسدّ أنفك وتنفخ بقوّة.

- هلّا ذهبنا؟ - قالت للكلب فإذا هو يهزّ ذنبه بسعادة.

سارت على طريق الشاطئ برفقة الماريميّ الذي وجد نفسه أمام قطّ أسود وجهًا لوجه خلف إحدى السيّارات. وخلافًا لكلّ قوانين الفيزياء قفز السنوريُّ إلى واجهة أحد البيوت ولاذ بالشرفة. فيما كان الكلب ينبح غاضبًا وهو يسند أرجله إلى الجدار.

مشت آنّا على الكورنيش وهي تترنّم بأغنيةٍ كانت تسمعها في السيّارة حينما كانت أمّها توصلها إلى المدرسة: - تعال إلى بيتي متى أردت، في الليالي أكثر من أيّ وقتٍ آخر، نم هنا، وارحل، هذا شأنك. فأنت في النهاية تعلم أنّك بأسوأ الأحوال ستحظى بي هنا في أعلى إذا طاب لك، ذات ليلة... - راحت تقفز. - نا نانا نانانا...

كان قلبها هانئًا، حتّى إنّها شعرت بجاهزيّتها لاصطياد حوت. وقد عبرتْها سعادةٌ فائرة تجعل كلَّ ما يظهر أمام عينيها جميلًا: القوارب المحطّمة، بقايا المطاعم الآيلة إلى الانهيار، السيّارات التي اعتلاها الرمل، أسراب النوارس المتسمّرة عند الضفّة. أغمضت عينيها وحاولت أن تتخيّل كيف كانت شيفالو قبل بضعة

أعوام. السيّاح ينزلون من الحافلات ويلتقطون الصور بكاميراتهم، الطاولات المجهّزة بالمناديل البيضاء، النُّدُل المزوّدون بمنشفة على أذرعهم يحملون اللحوم والسلطة بأيديهم، الفرق التي تعزف على الكورنيش بجانب السود الذين يبسطون بضائعهم على الأرصفة. الزوارق الدوّاسة عند الشطّ. الشبّان وهم يلعبون الكرة الطائرة على الرمال.

بسطت ذراعيها كما لو أنّها أرادت احتواء المدينة كلّها. هي الآن أجمل. شيفالو الآن كلُّها لي. مَن كان لينافسها مِن أولئك السيّاح والنُّدُل والشبّان؟ مَن كان ليتخيّل ذلك حتّى؟ التفتت نحو البلدة القديمة. كانت الشمس تقبّل شرفة بيتها، فتتلألأ نافذة الغرفة حيث ينام أستور وبييترو.

- والآن، هلّا سبحتَ معي؟ - سألت كوكولوني، لكنّ الكلب ما إن فهم مرادها حتّى انكفأ إلى أوّل الشاطئ وأقعى رزينًا ينظر إليها.

نزعت آنّا كنزتها وبنطلونها القصير، وضعت النظّارة على جبينها وتمدّدت على لوح التزلّج. وأخذت تجدّف بالذراعين متّجهةً نحو المكعّب الأسمنتيّ. استغرقت وقتًا لتعثر عليه. تراءى لها في النهاية خلف سحابة من أسماكٍ صغيرة. لم تجد الأخطبوط، لكنّها وصلت إلى هناك لتجرّب التقنيّة المبيّنة في الكتاب. كشَّرت وألقت بنفسها في المياه المتجمّدة. نفخت رئتيها وغطست. وما إن أحسّت بألمٍ في أذنيها سدّت أنفها بأصابعها ونفخت. بدا لها أنّ الهواء يخرج من عينيها، ثمّ شعرت بانفجارٍ طفيف في طبلة الأذنين خلّصها من الألم. واصلت الغوص في زرقة البحر

بينما تنتزع البرودةُ الدفءَ من جسمها. وكانت الشمس تشكّل أحزمةً من الضوء حولها فتوحّد السطحَ بالقاع. وما لبثت أن تحرّرت من قوّة الجاذبيّة فأخذت تحلّق. وصلت إلى العمق بحركاتٍ بطيئة، حتّى إنّها لم تشعر بذلك تقريبًا. وكلّما دنت من أسفل انخفضت الحرارة أكثر فأكثر. نظرت إلى أعلى فأحسّت بما يشبه الدوار. غدا سطح البحر مرآةً فضيّةً يعوم عليها لوح التزلُّج. لسوء الحظّ أنّ أستور لم يكن معها، لعلّه كان ليفتخر بها. التصقت النظّارة بوجهها من شدّة الضغط، وعاودها الألم في الأذنين. أنفاسها ستنقطع. كرّرت التعويض وأسرعت إلى إمساك حجرة صغيرة مكسوّة بالطحالب على سبيل الذكرى. انكمشت على نفسها وكادت تندفع إلى أعلى بساقيها فإذا هي تلمح عيني الأخطبوط الصفراوين يتلصّصان إليها من تحت صخرةٍ تسند المكعّب الأسمنتيّ. حارت للوهلة الأولى، وفكّرت في أخيها. مدّت يدها تحت الصخرة. فتراجع الحيوان إلى مخبئه إذ كان أسرع منها. أدخلت آنًا في الفجوة نصف ذراعها، واستشعرت ببنانها لحمَه اللزج والبارد، وحاولت إمساكه، لكنّه بدا ملتصقًا بالصخرة.

لقد حاولتِ على الأقلّ. عودي إلى الأعلى.

وبينما كانت تسحب ذراعها، التفّ حول معصمها مجسٌّ قاتم اللون وسميكٌ كالحبل. لم تكن تتصوّر أنّ كائنًا رخوًا، لا عظام له، يتشجّع ليتحدّى إنسانًا. الكتاب يقول إنّه ذكيّ، لكنّه يبقى من عائلة الصدفيّات والحلزونيّات. ولا وجود لأيّ دليل علميّ على أنّه كائنٌ خطير. راودتها تلك الأفكار كالومضات حتّى انبثقت منها بصرخة. هبّت زوبعةٌ من فقاعات على زجاج النظّارة. وكادت تفقد

أنفاسها. ومن هول الفزع أمسكت المجسّ بيدها الحرّة وحاولت انتزاعه لكنّ الأخطبوط سرعان ما أضاف مجسًّا آخر. بصقت ما تبقّى من هواء ببقبقةٍ يائسة. صعد ضغط الصدر إلى الحنجرة. إنّها تختنق. بدأت تتخبّط، وتلتفّ على نفسها، فصارت من دون نظّارة في كونٍ دامسٍ لا يظهر فيه شيءٌ أو يختفي إلّا بومضاتٍ قرمزيّة، ودوّامات الفقاعات ودويّ صرخاتها. تسرّب بعض الماء إلى حلقها ثمّ إلى الشعب الهوائيّة، فبدأ نظامها الحيويّ الذي افتقد الأوكسجين يضطّرب على وقْع الرجفان. لكنّ شيئًا جلديًّا كان يمنعها من الاستسلام، إذ استولت إرادتُها الجامحةُ على جوارحها وجعلتها تسند قدميها إلى الصخرة وظهرَها إلى المكعّب الأسمنتيّ. ووجدت نفسها تسحب وتشدّ بقوّةٍ لم تجرّبها من قبل. نهضت غيمةُ رملٍ من القاع وأحاطت بها، وأشار إليها صوتٌ مخنوقٌ يمتزج بقعقعة الحصى بأنّ شيئًا ما يتحرّك ويتساقط. فانقلبت الصخرة التي كان الأخطبوط يختبئ تحتها. وجد الحيوان نفسه مكشوفًا، وما بين الحجر وذراعها اختار ذراعها.

بدأت آنّا تصعد محرّكةً ساقيها، تنساب مثل الأنقليس، مع ذلك الكائن الذي ينبسط ليلتفّ حول عنقها وكتفيها. وبدا السطح يبتعد بدلًا من أن يقترب. كاد انعدام الهواء يبتلع الفتاة. بذلت جهدًا حتّى خرجت إلى السطح بشهقةٍ رهيبة، تلتهم الحياة التي تضخّ الأكسجين في دمها. بصقت ماءً وسعلت. نظرت حولها وهي تثبّت الحيوان الذي أراد الهرب حينذاك.

جرف التيّارُ اللوحَ. وصار الساحل بعيدًا. كما أنّ إبقاء ذلك الرأس اللزج بين أصابعها ينهك قواها.

اتركيه.

غير أنّها استلقت على ظهرها وراحت تسبح عكسيًا وتتنفّس من فمها، وتبصق، وترفع رشقاتٍ من الماء بقدميها، وتبقي عينيها مغمضتين وتردّد: - واحد، اثنان، ثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة.

أدركت أنّها وصلت عندما ارتطمت كتفاها بالقاع. سارت بضع خطى، تلهث وتترنّح كالغريق، وهوت بصدرها على الشاطئ خائرةً. كان الحيوان يحاول التحرّر بآخر ما تبقّى له من طاقة، لكنّها لم تتركه وشأنه، بل خنقته في الرمال. وظلّ قلبها يخفق بشدّة، ورئتاها منتفختان، مذهولةً من أنّها ما زالت على قيد الحياة.

- أنا كبيرة. - حدّثت نفسها مرارًا، وأسنانها تصطكّ من البرد. - أنا صيّادة.

كانت متلهّفةً للركض إلى البيت وإظهار فريستها على مرأى الذكرين.

اقترب منها كوكولوني بمشيته الخاملة، رمقها وأخذ يلعق وجهها بلسانه العريض مثل جلدة الحذاء.

وعندما فهمت أنّ الأخطبوط لم يعد يتحرّك رفعته من رأسه بإصبعين. أرداه الموت إلى شيءٍ بائس، قذر، شبيهٍ برأس فرشاة غارقة في سائل جيلاتينيّ. أخرجت من حقيبتها كيسًا بلاستيكيًا وأسقطته فيه.

كانت قد فقدت الجزء الأعلى من ثياب السباحة، ولكن لحسن الحظّ أنّ نجمتها ما تزال تتأرجح على صدرها. تحزّز بطنها باللعاب والحبر. نزعت سروالها وتقدّمت ثلاث خطوات نحو الضفّة ثمّ توقّفت. رأت على الجانب الداخليّ من فخذها الأيمن خيطَ دمٍ طويلًا يسيل قاتمَ اللون حتّى عضلة ساقها.

لقد أُصيبت.

لا بدّ أنّها جُرِحت بإحدى الصخور تحت الماء حين كانت تصارع لكي تتحرّر، لكنّها لم تكن تشعر بأيّ ألم.

وربّما هذا دم الأخطبوط.

رفعت عينيها. سربٌ من النوارس يحوم فوق أسطح البلدة. لم تره، إذ تركّزت نظرتها المخنوقة على الأسوار الحجريّة.

هل للأخطبوط دماء؟

أغرقت كاحليها تحت الرمال الدافئة ووسَّعت ساقيها. أغلقت يدها اليسرى، ما عدا إصبعين، على شكل المسدّس. أوغلت إحداهما في أحشائها الرطبة، وعيناها إلى السماء الصافية.

أخرجتها.

إصبعها منقّعةٌ بدمٍ بنّيّ.

* * *

كانت تسير مذعورةً، في زقاق سان بارتولوميو، تبتلع لعابها قبل أن يجفّ. حقيبتها تتدلّى من إحدى الكتفين، وتمسكت بقبضتها بالكيس الذي فيه الأخطبوط. وما زال سيل الدماء مستمرًّا من تحت بنطلون الجينز القصير.

عليها أن تعثر على الفوط التي كانت والدتها تحفظها في دُرج الحمّام مع ظروفٍ تحتوي على مناديل صغيرة، تصلح للدمى.

كانت قد وجدت آلافًا مثلها خلال سنوات الاستكشاف. في الحمّامات بجانب صناديق الأدوية أو أكياس الورق الصحيّ، في الصيدليّات والمتاجر الضخمة، حيث عثرت ذات مرّة على رفوفٍ كاملة مخصّصة لها. وقد استخدمتها كمشاعل إذ غطّستها

بالكحول، وكمعقّم للجروح أحيانًا، وكسيجارٍ زائف أحيانًا أخرى، وكشفّاطاتٍ بعد أن فرّغتها من القطن. استخدمتها بكلّ الطرائق، عدا الطريقة الصحيحة.

لا بدّ أنّ بييترو وأستور قد استيقظا، ومن الوارد أنّهما يتساءلان أين انتهى بها المطاف.

ينبغي ألّا تظهر عليهما بتلك الحالة.

التفّت عند أوّل منعطف مع كوكولوني الذي كان يتبعها خطوةً بخطوة. اتّجهت نحو صيدليّة موتزوليني، بجانب الكاتدرائيّة. الواجهة الزجاجيّة محطّمة إذ اصطدمت بها سيّارة رانج روفر سبورت. تسلّقت الصندوق الأماميّ ودخلت. كانت الجدران ملبّسةً بخشب الموغانو المزخرف، وعلى الرفوف أوانٍ فخاريّة قديمة زرقاء وبيضاء. وجدت آنّا على الأرض، ما بين صناديق التوزيع المقلوبة، علب الفوط. اختارت التامباكس، النوع الذي كانت والدتها تستخدمه. تنصح الإرشاداتُ النساءَ بالاسترخاء وعدم التوتّر عندما يضعنها للمرّة الأولى.

جلست على مقدّمة السيّارة ووضعت فوطة، وقد فوجئت بأنّ العمليّة في منتهى السهولة ولا يرافقها الألم. نظّفت نفسها في محلّ ألبسة بكنزة، وارتدت بنطلونًا قاتمًا وقميصًا مخطّطًا يصل حتّى ركبتيها. وعادت نحو البيت بارتياح كبير. إذ إنّها وضعت علبة الفوط في الحقيبة، ما جعلها مطمئنّةً.

كانت دهشتها تكمن في أنّ الحيض جاءها فجأةً، وبلا أيّ ألم. خلافًا لأمّها التي كانت تمرض حين تأتيها «الأشياء»، وتضطرّ إلى تناول الأدوية. ومن يدري، ربّما كان ذلك بسبب الغوص الذي

غيَّر التوازنات في جسمها فانفتق جرابٌ متوارٍ في أحشائها، مثل جراب الحبر في بطن الأخطبوط. ثمّ أليس من المستغرب أن يأتيها الحيض في عيد ميلادها بالضبط؟

حين كانت في الفندق رأت فتيةً من عمرها، وأصغر منها غالبًا، وكانوا مصابين بالحمراء أساسًا. وكان الجميع حين يرونها يُذهَلون من أنّ لها نهدًا وزغبًا ولم تظهر عليها الأعراض. حاولت في البداية ألّا تفكّر في الأمر، ومع ذلك فقد اشتدّ في خاطرها رويدًا رويدًا الوهمُ بأنّها مختلفة ومميّزة، وكانت تدرك أنّ أملها في ذلك يشبه مَن يسقط ويرجو أن ينبت له جناحان، فتمحو ذلك الوهم من ذهنها. ولكن كما هو معلوم، الأوهام تتفتّق كالأزهار المسمومة فيمن أجَلُهُ قريب.

وإذ تمعّنت في الموضوع آنذاك، في تلك الفوطة الملصقة في الأسفل، شعرت أنّها غبيّة. فهي مثلُ الآخرين جميعًا. تذكّرت ما كتبته أمُّها في آخر الفصل المكرّس للماء.

عندما تعطشين لا تنتظري أن تمطر. فكّري وابحثي عن حلّ. وتساءلي: أين لي الحصول على مياهٍ صالحة للشرب؟ من غير المجدي أن تأملي العثور على زجاجة ماء في الصحراء. دعي الآمال لليائسين. فهناك أسئلة وهناك أجوبة. والبشر قادرون على تحويل أيّ مشكلةٍ إلى حلّ.

غارقةً في هواجسها وجدت نفسها في ساحةٍ صغيرة تشرف على البحر. جلست على أحد المقاعد وراحت تداعب كوكولوني بشرود.

عليها أن تفكّر. سيلان الدماء لا يعني شيئًا. فقبل الوباء كان الحيض يشير إلى أنّ الجسد بات مستعدًا لإنجاب الأولاد، سوى

أنّه بعد تفشّي الفيروس صار مؤشّرًا على دنوّ الأجل. ينبغي لها ألا تخلط بين الدماء والحمّى الحمراء.

فإذن هناك إمكانيّةٌ لأن تكوني منيعة. كفّي عن هذا. إيّاكِ أن تعاودي فتح الموضوع.

الشيء المؤكّد هو مرور الوقت ما بين سيلان الدماء وبروز البقع. أحيانًا يكون قصيرًا، وطويلًا أحيانًا أخرى. وبكلّ الأحوال سيكون كافيًا للوصول إلى القارّة.

ميسّينا ليست بعيدة. أسبوعٌ من المسير. واليابسة من الطرف الآخر، وفقًا لما تعرضه الخرائط، لا تبدو قصيّةً جدًّا. صقلّية جزيرةٌ يسكنها قليلٌ من الناجين، وفي غضون خمس سنوات، أو ستٍّ حدًّا أقصى، لن يبقى فيها سوى الحيوانات والنباتات. ولعلَّ الإنسان في مكانٍ ما من الكوكب قد هزم الفيروس.

شيفالو مكانٌ جميل، لكنّهم قد يموتون فيه.

* * *

تفحّصت البنطلون ثانيةً إن كان مبقّعًا، سحبت نفسًا عميقًا ودخلت إلى المرأب.

كان الاثنان في الظلّ يسكبان البنزين في الدلاء.

– أعطني القُمع وإلّا تبعثر السائل خارجًا. – كان بييترو يقول.

نهض أستور ورأى طيف شقيقته في انعكاس الضوء.

– أين كنتِ؟ – لم يعطها الوقت لتردّ إذ ركض إلى طاولة العدّة ليحمل قُمعًا أزرق كبيرًا.

رفعت آنّا الكيس: – مفاجأة! – لم يلتفت أحدٌ منهما إليها. – أوه! هل تسمعانني؟ لديّ مفاجأة.

ألقى أستور نظرة داخل الكيس.

- الأخطبوط! أحسنتِ، لقد اصطدتِه. - أخرجه وسرعان ما أعاده. - سأنظر إليه لاحقًا. فنحن نحاول تشغيل المحرّك.

استندت آنّا إلى السيّارة.

كان بييترو مركّزًا في عمله، وشفتاه مكوّرتان كما لو أنّه يمتصّ من شفّاطة. غرّة شعره مرسلةٌ على جبينه. وشفرةُ ضوءٍ على عنقه. رقبته مسمرّة، لكنّ جلده تحت الكنزة كان أبيض كالحليب.

- كيف حال هذا المحرّك؟ - سألته آنّا، محاولةً أن تبدو مهتمّة.

- عليَّ أن أنظّف المفحّم وأغيّر الشمعة. - أمسك الفتى دلوًا وسكب بعض البنزين في خزّان الوقود عبر القُمع.

مرّرت آنّا بضع ثوان. ثمّ قالت: - بإمكاننا تناول الأخطبوط مع البازلاء. أو بالصلصة. لكن لم يعد لدينا في البيت أيٌّ منها. وينبغي إيقاد النار في الشرفة.

- حسنًا، اذهبي أنتِ. - قال بييترو وهو يُنزِل القُمع.

نظرت آنّا إلى خارج المرأب. كانت قد استيقظت منذ الفجر، وخرجت بصمتٍ لئلا توقظهما، وكادت تموت وهي تصارع ذلك الأخطبوط اللعين، ثمّ جاءها الحيض أيضًا.

التفت الفتى نحوها: - عليَّ أن أتفحّص المكابح. - كانت عيناه البنيّتان، الملوّنتان، تطرحان الجدّيّة من ملامح وجهه وتضفيان إليه الحيرة. كان كمن لا يصدّق ما يتفوّه به.

- أحسنتِ؟ - ردّت بابتسامةٍ ساخرة.

لم يلحظها بييترو، أو ربّما تجاهلها.

- أظنّ أنّ الشمعة متّسخة، وربّما لهذا لا يشتغل المحرّك... - كفَّ عن الكلام ونظر إليها وهو يحني رأسه.

تجهّمت آنّا وتفحّصت بنطلونها: - لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

- ترتدين قميصًا.

- ما به؟ أليس لائقًا، ألا يعجبك؟

- لم أرك بقميصٍ من قبل. - ثمّ راح يفتّش بين المعدّات التي على الطاولة وأخذ مطرقة. في حين كان أستور يلمّع عربة السيدكار بخرقة. هي المرّة الأولى التي ينظّف فيها شقيقُها شيئًا ما.

- سأذهب إلى البيت. - استدارت ومشت خطوتين، توقّفت عند المغلاق. - غدًا ننطلق.

فرك بييترو عينيه: - غدًا؟ لا أعرف إن كنتُ سأستطيع تشغيل المحرّك خلال الغد.

- هذا شأنك. إن استطعتَ جيّد. وإلّا ذهبنا على الأقدام. كما نفعل دائمًا.

- فهمتُ، أنتِ غاضبة اليوم...

أنهضت آنّا ذراعها: - غاضبة؟ إطلاقًا. سوى أنّنا سننطلق في الغد.

رمى الفتى المطرقة على الطاولة: - ولماذا تقرّرين أنتِ؟

- هكذا بلا سبب. - شدّت آنّا قبضتيها. - وإن لم يعجبك...

- لم تنهِ الجملة. داس أستور على قدميها وتعلّق على ذراعها.

- ولكن، يا آنّا... - قال - لماذا؟

- لأنّني هكذا قرّرت. - ردّت وأنزلته عنها.

انتابت الصغيرَ نوبةُ غضب فركل درّاجة صغيرة فسقطت على الأرض بقرقعةٍ حديديّة.

انفجرت آنّا. زعقت ورمت كيس الأخطبوط الذي ارتطم بكتف أخيها فوقع على ركبتيه وأجهش باكيًا.

صفرت آنّا لكوكولوني وخرجت من المرأب.

* * *

دخلت إلى البيت وصفقت الباب، ذهبت إلى الشرفة واستلقت بذراعين مكتوفتين على المقعد، وما زالت تغمغم في سرّها. ثمّ تأفّفت ونزعت عنها ذلك القميص الفظيع. أنزلت بنطلونها، أخرجت الفوطة الممتلئة بالدم ورمتها من السياج. كم مرّة يجب أن تغيّر تلك الفوطة الغبيّة؟ وضعت غيرها، وهي تدمع حنقًا.

كانت تريد أن تقتل بييترو. فهي تعبأ بأدنى تقلُّبات مزاجه وهو لا يكترث بها. بالكاد نظر إليها. ولم يتحمّس للأخطبوط.

- هذا يكفي. انتهى كلُّ شيء. - قالت لكوكولوني الذي كان نائمًا في طمأنينةٍ ولامبالاة.

جرجرت نفسها إلى السرير وخرَّت عليه وعانقت الوسادة. ركّزت على صوت البحر وحفيف الريح بين أوراق الليمون، وانتظرت نعاسًا لا يحين.

* * *

استيقظت فجأة. نادت بييترو وأستور، فلم يردها جواب. كوكولوني على السرير، ورأسه على الوسادة. أبعدته وهي تجعّد أنفها: - يا إلهي كم رائحتك مقرفة!

كانت النوافذ ترتجّ على وقع ريح الشمال. وهناك جبهةٌ من سُحُبٍ منخفضة وداكنة تقترب من الشاطئ وتحجب الشمس.

- لماذا لا يعودان؟ - سألت الكلب الذي حكَّ عنقه.

لقد تمادت في المرأب وشعرت بالذنب آنذاك. اتّجهت يدُها إلى نجمة البحر. ضمّتها بكفّها. أغمضت عينيها وعادت إلى الليلة السابقة، عندما ناما جنبًا إلى جنب.

تصاعدت لفحةُ سخونةٍ واهية في صدرها وخنقت أنفاسها.

* * *

عاد الذكران إلى البيت بعد أن غابت الشمس، محمّليَن بعلب الطماطم التي أسقطوها على الأريكة بكلّ سرور.

- أهذه تناسب وجبة الأخطبوط؟ - قال بييترو وهو يحمل كيس ذلك الكائن اللزج.

- أجل! بالتأكيد! ممتاز! - صفّقت آنّا كالغبيّة، كانت تريد أن تعتذر. - ولكن علينا أن نطهيه. فلنوقد النار في الشرفة.

كانت قزحيّة بييترو تهشّم الضوء، تبدو كحدقتي حيوانٍ وحشيّ، لكنّه لم يكن غاضبًا. ربّما بإمكانها أن تتظاهر معه وكأنّ شيئًا لم يكن، غير أنّ هناك شخصًا عليها أن تعتذر منه.

كان أستور يلعب مع كوكولوني في الشرفة. اقتربت من خلفه ووشوشته: - هل أنت غاضب؟

التفت إليها. افتقدت عيناه الزرقاوان ملامحهما الصبيانيّة واستبدلتا بها جدّيّةً ناضجة.

ارتبكت. أمسكت يده: - أنا آسفة.

ألقى الصغير نفسه بين ذراعيها. لم تكن النقمة من بين العيوب الكثيرة التي نقلتها إليه.

ومثل كلبةٍ وجروها، أحكمت العناقَ بذلك الطفل الهزيل جلدًا على عظم، وأنهكته بالقبلات على عنقه وجبينه حتّى ما عاد يطيق منها شيئًا.

- ما بك؟ ألا تحبّ القبلات؟ هل تفضّل العضّات؟ - وانقضّت عليه تعضّه من ذراعه. فأفرج أستور عن ابتسامته المعطوبة. وبينما كانت تدغدغه من جانبيه، كان يضربها على ظهرها ويقهقه. تحمّس كوكولوني لذلك الصراع المرتجل، فانهال على مؤخّرة آنّا وهزّزَ حوضها، فلكمته ولاذ الماريميُّ بين أواني الليمون، وذنبه ما بين رجليه.

ظلّ الشقيقان مستلقيين على البلاط الخزفيّ يرنوان إلى النجوم. كانت النجوم قريبة بحيث إذا مددتَ يدك استطعتَ أن تمسكها وتضعها في جيبك.

- إذن، هلّا أوقدنا هذه النار؟ - حجب رأس بييترو السماء. كانت في يده دلوٌ نصف ممتلئة. قرّبوا الكراسي والمقاعد، وأغرقوها بالوقود وأشعلوها. وسرعان ما نهضت ألسنةٌ حمراء وزرقاء، تتصاعد تدريجيًا وتفرقع بالوميض. استولى عليهم الحماس فجرّوا أثاث الصالة إلى الشرفة ورموه على اللهب. اسودّ زجاج العلّيّة بفعل الدخان الذي اقتحم الشقّة. وما لبث أن استحالت النارُ جمرات.

- فلنرمِ بها السرير! - اقترح أستور.

- كلا، إلّا السرير! - أجابه بييترو وآنّا بصوتٍ واحد.

فتحت الفتاة الكيس فتدفّقت رائحةٌ نتنةٌ إلى أنفها. كانت تحسَب نفسها خبيرةً بالروائح الكريهة على الدوام، وقد اعتادت

علـى عفونـة الجيـف حتّـى غـدت لا تحـسّ بانبعاثهـا، إلّا أنّهـا لـم تحتمـل رائحـة ذلـك الأخطبـوط.

- هل هو مقرف؟ - سألها بييترو.

رفعت آنّا كتفيها وقذفت الكيس خارج الشرفة. فطار الوحش ذو المجسّـات الـذي كاد يقتلهـا، طـار فـي الليـل وانسـحق علـى الشـاطئ غيـر بعيـد عـن الفوطـة.

سـخّنوا صلصـة الطماطـم بالبـازلاء فـي قـدرٍ كبيـرة، يتناوبـون علـى تقليبهـا فـي منافسـةٍ لمـن يصمـد بقـرب الحـرارة أكثـر مـن غيـره. وعندما جهـز الحسـاء صبّـوه فـي الأطبـاق واجترعـوا مـن ذلـك السـائل السـاخن، اللذيـذ رغـم خلـوّه مـن النكهـة.

لـم يقـل بييتـرو أو أسـتور أيّ شـيء بخصـوص الدرّاجـة، وكانـت آنّـا تمـوت مـن فضولهـا: - كيـف حـال الفسـبا؟ - ارتجلـت.

مـرّر بييتـرو إصبعًـا علـى حافّـة القـدر ليسـتحوذ علـى مـا تبقّـى فيهـا: - باختصـار، اشـتغل المحـرّك برهـةً، ثـمّ انطفـأ ولـم يعـد بالإمـكان تشـغيله ثانيـةً.

- حسنًا، حاوِلْ في الغد!

تحجّـرَ الفتـى وإصبعـه المتّسـخة بالصلصـة: - كيـف؟ ألا تريديـن أن نغـادر؟ أحدثـتِ كلَّ تلك المشكلة من أجل...

- مـاذا سـيحدث لـو أقمنـا يومًـا إضافيًـا؟ ثـمّ إنّـه صحيـحٌ أنّنـا سـنصل بالدرّاجـة إلـى ميسّـينا بوقـتٍ أقصـر.

غـزّ أسـتور سـبّابته بصدغـه وهـو ينظـر إلـى بييتـرو ويداعـب كوكولونـي الـذي فتـح فمـه وتثـاءب: - ومـاذا عنـه؟

شطح الثلاثة يفكّرون.

- المنوّم! - قالت آنّا فجأة - ماما كتبت في الدفتر إنّ بعض المنوّمات قد تخدّرك يومًا كاملًا. سنلقمه الدواء، وننتظر أن يغفو ونضعه على الدرّاجة. وعندما يستيقظ سنكون في ميسّينا.

لم يكن بييترو مقتنعًا.

- ستنجح، وسوف ترى. - طمأنته - سأذهب إلى الصيدليّة للبحث عن المنوّمات في الغد. وإلّا سرنا على الأقدام.

- على الأقدام... - ردّد أستور محبطًا.

لم يضف أيٌّ منهم كلمة، فظلّوا في صمتٍ متعبين، وأعينهم تحدّق إلى الجمر النابض.

.11

الغيومُ في المدى البعيد، كالمتفرّج على نهارٍ مشمسٍ أكثر دفئًا وصفاءً من سابقه. حتّى إنّ الحمائمَ قد هدلت للاحتفال به في غابة الصنوبر خلف المطاعم.

كانت آنّا على الشاطئ، وقد ارتدت حمّالة صدر جديدة ومكشوفة، زرقاء اللون، وفي منتصفها ربطةٌ فاتنةٌ بيضاء. كانت الحمّالة كبيرةً على مقاسها، بحيث بدا نهدها ككرة المثلّجات في كأسٍ كبيرة. أمّا القطعة السفليّة فكان البنطلون القصير إيّاه. الفوطة تؤدّي واجباتها، لكنّ الدماء لا تبدو أنّها تنوي التوقّف.

اصطدمت بجبينها ذبابةٌ ضخمة سوداء تحوم في غير موسمها، وسقطت بين الحياة والموت، وما زالت تهتزّ على الرمال. أخرجت آنّا الدفتر من الحقيبة، ووضعته على فخذيها وراحت تقلّبه بحثًا عن اسم المنوّم الذي تفكّر في إطعام الكلب منه.

هي المرّة الأولى التي تفتحه فيها منذ أن استعادته من توزّي نورمانّا.

لم تتملّكها الشجاعة لتصفّحه خلال الرحلة يومًا. كانت تحفظه عن ظهر قلب، بيد أنّ أمّها لم تكن لتتخيّل كثيرًا من أهوال هذه الدنيا.

وجدت صفحةً تتطرّق فيها إلى المنوّمات. هناك قائمةٌ بالأسماء: ميناس...

والأسماء الأخرى قد أُتلِفَتْ ببقعة ماء.

آمالُها بالعثور على المنوّم في الصيدليّة ضعيفة. فهذا كان أوّلَ نوعٍ من الأدوية يتعرّض للاختفاء، لكنّ المحاولة لن تكلّفها شيئًا. واصلت تصفُّح الدفتر ووصلت إلى الصفحات الأخيرة التي لا تزال فارغة. حدّقت إلى الأفق، فيما تعبث الريح بشعرها.

هل ينبغي لي أن أكتب شيئًا ما في هذا الدفتر؟

كانت لحظة إيحاء. فحتّى تلك الآونة لم تكن لتجرُؤ على تصوُّر شيءٍ من هذا القبيل. هذا دفتر الأشياء المهمّة التي أعطتها أمُّها إياه قبل أن ترحل.

وأنا بدوري سأعطي أستور إياه.

عدَّت الصفحات البيضاء. اثنان وثلاثون. هل كانت أمّها ستمتعض إن كتبت فيه آنّا؟ تبصَّرت في الفيوم، أمسكت قلم رصاص وباشرت.

الذرَة

إيّاك أن تأكل الذرة يا أستور، فتلك الكريّات الصفراء تؤلم بطنك وتجعلك تتغوّط طوال اليوم. وأنت تنسى الأمر دومًا. دع الذرة وشأنها أرجوك. أمّا ما تبقّى...

– آنّا!

التفتت البنت فرأت كوكولوني يعدو على الكورنيش يتبعه شقيقها. – آنّا! آنّا!

أرجعت الدفتر إلى الحقيبة وذهبت إليه، مشيًا في البداية ثمّ هرولةً.

توقّف أستور أمامها منحني الظهر من شدّة التعب.

- ماذا حدث؟ - سألته.

- بييترو... - وضع الطفل يده على صدره. - بييترو نجح في تشغيل المحرّك. الدرّاجة تعمل!

كان المحرّك يدوّي في مكانٍ ما من البلدة القديمة. بدا لها أنّه لم يمرّ إلّا يومٌ واحدٌ منذ أن كانت تسمع الدرّاجات تفحُّط بأقصى سرعة في الشارع خلف الغابة.

- تعالي. - قال أستور وعاد إلى الركض.

ركضت آنّا خلفه يتبعها الكلب.

ظهر بييترو من بين البيوت على متن درّاجة الفسبا. كانت تبدو كبيرةً بل ضخمةً بحجم سيّارة تقريبًا لأنّها مزوّدة بالعربة الجانبيّة.

والفتى يتقدّم ببطء، محاولًا تفادي الرمال التي تغطّي مساحاتٍ واسعةً من الطريق.

تلاقوا أمام مطعم «الصيد الليليّ»، ففرمل بييترو بجانب حطام قارب صيد. قفزت الفسبا وانطفأ المحرّك بحدّةٍ عنيفة.

- لستُ ماهرًا في استخدام الغيارات. - كان بييترو يتصبّب عرقًا، محمرّ الوجه، وقميصه عند إبطيه مبقّعٌ بهالتين داكنتين وكبيرتين.

- لا أكاد أصدّق... - غمغمت آنّا وهي تطوف حول الدرّاجة. في منتهى الروعة، زرقاء بمرآتين صغيرتين من معدن الكروم

تشمشـمان تحـت الشـمس. وعلـى العربـة مكتـوبٌ بالإنكليزيّـة: «مـن أجلهـا».

كان بييتـرو متحمّسًـا: - الأضـواء تعمـل، بإمكاننـا أن نسـافر فـي الليـل أيضًـا. – نـزل وضـرب علـى ذراع الإحـراق بقـوّة. فانصـاع لـه المحـرّك وعـاد يهـدر مـن جديـد. – أرأيتِ؟

- بارعٌ يا بييترو. – صفّقت آنّا.

وكان أستور يقفز سعيدًا.

ابتسـم بييتـرو ابتسـامةً ماكـرة: - قولـي الحقيقـة، لـم تكونـي واثقـة مـن أنّنـي سـأنجح.

- بلى، كنتُ واثقة. سوى أنّه...

- ماذا؟

- الأمر غريب. هذا ما يخطر على بالي. – تلمّست آنّا العربة.

- إنّهـا فسـپا 125، أربعـة غيـارات. والسـرعة تتبـدّل بوسـاطة المقبـض.

وثـب أسـتور علـى سـرجها وتمسّـك بالمقـود فائـر الحمـاس: – هـلّا انطلقنـا؟ هـلّا انطلقنـا؟

- أجل، ولكن ينبغي إخراجها من الرمل. ساعداني.

دفعهـا الشـقيقان مـن الخلـف بينما كان بييترو يقودها جالسًـا على رأس السـرج. كانت الدرّاجة تغرق في الرمل وتنطفئ باسـتمرار.

وصلـوا إلـى مدخـل طريـق يصعـد نحـو التـلال مباشـرة وقـد نـال منهـم التعـب. ومـا إن احتكّـت العجلـةُ الخلفيّـة بالأسـفلت حتّـى اشـتغل المحـرّك بقـوّة، واهتاجـت الحصـى، ولحـق بـه الكلـب وهـو ينبـح ويحـاول أن يعـضّ العجـلات.

- كوكولوني! - صاحت آنّا - تعال إلى هنا!
ابتسم بييترو وأسرع ليركض الماريميُّ وراءه.
باتت آنّا بلا أنفاس: - كوكولوني المعتوه لن يركب ذلك الشيء أبدًا.

تقدّمت الدرّاجة متردّدة، وكادت تتمسّح بالسيّارات المركونة على الجانبين، ثمّ استطاع بييترو أن يسيطر عليها بشكلٍ ما، وأعادها إلى منتصف الطريق، وخفّف السرعة لينعطف ويختفي عند الزاوية.

أصغى آنّا وأستور إلى هدير المحرّك ينخفض أكثر فأكثر، إلى أن ابتلعه الصمت.

- هل غادر؟ - سأل أستور.
- لا أدري. - رفعت آنّا كتفيها.
- وكوكولوني معه.
- لا، الكلب سيعود بالتأكيد.

بعد بضع دقائق، سُمِعَ صوتُ المحرّك من جديد وخلال ثلاثين ثانية ظهرت الدرّاجة وقد اتّخذت سرعةً إضافيّة بسبب المنحدر.

رفع أستور وآنّا ذراعيهما كأنّهما يحتفلان بوصول الفائز بالسباق.

كان بييترو ينساب نزولًا في منتصف الطريق، ويرنّ الجرس، لكنَّ شيئًا ما قد حدث. حادت المركبة إلى الجهة اليسرى كأنّها تلقّت نفخةً من ماردٍ خفيّ، واصطدمت بالرصيف دون إبطاءٍ أو فرملة وبلا أيّ سببٍ. اقتُلِعَت العربة الجانبيّة لتتحطّم بالسور الحجريّ المحاذي للطريق. وطارت الدرّاجة والفتى في الهواء، وتشقلبا حتّى اختفيا في المنحدر بقرقعةٍ معدنيّةٍ محتدّة.

دام المشهد كلّه أقلّ من ثلاث ثوان.

* * *

أطلّت آنّا وأستور من السور بأنفاسٍ منقطعة.

هاويةٌ من ثلاثة أمتار تعجّ بالصخر المتخفّي وراء الصبّار والقبّار والقمامة.

كان هيكل الدرّاجة بجوار الحافّة التي تشرف على الساحل.

- أين بييترو؟ - سأل الطفل.

- لا بدّ أنّه في الأسفل. - أحسّت آنّا بالنزيف على ساقيها وتولّاها الخوف من الإغماء. سقطت على ركبتيها واستفرغت الحمّص الذي تناولته على الفطور.

مدّ أستور جذعه: - يتهيّأ لي أنّي أراه.

مسحت آنّا فمها بيدها. كانت تشعر بدوخةٍ ثقيلة، لكنّها استطاعت أن تغمغم: - أين هو؟

- - تحت الدرّاجة.

حاولت الفتاة أن تنهض لكنّ ساقيها لا يحملانها.

- اذهب وانظر، ولكن توخَّ الحذر.

نزل الطفل متشبّثًا بالحجارة والآجام. ووصل إلى الصخور وتوغّل على أربع ما بين الصبّار حتّى دنا من الفسبا.

- إنّه هنا.

رفعت الفتاة رأسها ونهضت واقفةً.

السماء زرقاء. الغيوم الصغيرة بيضاء. البحر رماديّ. الشاطئ أصفر. الخلفيّة الهادئة والمحايدة لم تتغيّر منذ أن وصلوا. تيقّنت آنّا من أنّ مصيبةً تتربّص بهم.

- أهو حيّ؟

- لا أدري.

بينما كانت تتسلّق السور وتصارع الغثيان، رأت كوكولوني على يمينها. كان يئنّ ويتأوّد باحثًا عن الشجاعة للقفز إلى أسفل.

- أرجوك - توسّلت إليه - كن مطيعًا. وابق هناك.

أطاعها الكلب وأقعى وهو يرتجف.

اندسّت الفتاة بين أعواد النباتات الثخينة. كان أستور جالسًا بجانب الدرّاجة، يعضّ إبهامه ويحدّق إلى ذراع بييترو الناتئة من تحت الحدائد، ويده الجاثمة على دلوٍ متفحّمة من الكلور. هيكل الدرّاجة يخفي بقيّة جسمه. هدأت الريح، والصمت لا يقطعه سوى نواح الكلب.

- علينا أن نسحبه. - قالت لأخيها، لكنّها خشيت أن تهرسه بتحريك حدائد الدرّاجة. - هل فهمت؟ - التفتت نحو أستور الذي كان يرنو إلى الفراغ متبلّدًا. - استيقظ، اللعنة! ساعدني! أمسك يده واسحبه بينما أرفع الدرّاجة.

انصاع الولد كأنّه روبوت، أمسك معصم بييترو بكلتا يديه.

- إيّاك أن تتركه. أبدًا.

حملت آنّا مؤخّرة الدرّاجة واستندت على قوّة ساقيها. استطاعت أن ترفعها قرابة عشرة سنتمترات، وسرعان ما أخفضتها. ثقيلةٌ جدًّا. حاولت مرّة أخرى. عبثًا. كانت عالقةً من مكانٍ ما. جلست، حطّت جبينها على ركبتيها وهمست: - لا أستطيع.

لماذا سمحت له بتصليح الدرّاجة؟ هي التي قالت له: «حسنًا، حاوِلْ في الغد». كان يكفي أن تقول: «هذا يؤسفني، سنذهب على

الأقـدام». لـو أنّهـا قالـت ذلـك لكانـوا آنـذاك يسـيرون علـى طريـق ميسّـينا.

نظـرت إلـى برجـي الكاتدرائيّـة الأصفريـن: - علينـا أن نرفعهـا معًـا. أنـا مـن الخلـف وأنـت مـن الأمـام.

نجحـا بإزاحتها قليـلًا فـي المحاولـة الأولـى. ظهـرت كتـف بييتـرو وخاصرتـه، وقميصـه المخطّـط. لا دمـاء. وفـي المحاولـة الثانيـة بـدّل أسـتور موقعـه، وبذلـت آنّـا جهـدًا وهـي تطلـق صيحـةً يائسـة. انثنـت الدرّاجـة دون أن تنقلـب. تمـدّدت الفتـاة لتسـند المكبـح بذراعيهـا.

- أستور، من هنا، تعال إلى هنا. بسرعة.

ترك الطفل المقود ووقف بجانبها.

- عنـد الثالثـة ندفـع معًـا. نغمـض أعيننـا وندفـع. حتّـى لـو آذينـاه، لا بـأس. عليـك أن تدفـع فقـط. - نظـرت فـي عينيـه الزرقاويـن. - كمـا لـو كنـتَ الأقـوى فـي العالـم، موافـق؟

أومـأ أسـتور برأسـه.

- واحـد... اثنـان. ثلاثـة!

انقلبـت الدرّاجـة وأنهضـت غيمـةً مـن تـرابٍ وصبّـار، وتدحرجـت نحـو الشـاطئ محدثـةً فرقعـةً معدنيّـة.

عانقـت آنّـا أخاهـا فطريًّا وضمّته إلى صدرها.

كان بييتـرو جاثمًـا مبسـوط الذراعيـن. رأسـه محنـيّ إلـى الجانـب غـارق بيـن الخـرق والأكيـاس البلاسـتيكيّة. وكان بنطلونـه تحـت ركبتيـه يقطـر دمًـا. أحـد كاحليـه مهـروس، تحـوّل إلـى خلطـةٍ مـن جـوارب وعظـام ولحـم. ونتـأت مـن أحـد مرفقيـه حربـةٌ عظميّـة زهريّـة.

جثَت آنّا على ركبتيها وقرّبت أذنها إلى فمه.

- لا يزال حيًا.

مات بعد ثلاثة أيّام.

* * *

حاولت آنّا خلال تلك الأيّام أن تحمل بييترو إلى الطريق. جهّزت سلّمًا وحبالًا، لكنّه كلّما حرّكتْه رمى صرخةً يائسة وارتعش كما لو أنّه صُعِقَ بتيّارٍ كهربائيّ. الأمر الذي أخاف آنّا وجعلها تتراجع.

قطعا الصبّار، أوقدا نارًا وألقياه بعنايةٍ شديدة على فراشٍ قابل للنفخ. مزّقت آنّا قميصه وبنطلونه بالسكّين. ثمّة كدمة قاتمة اللون تبدأ من تحت السرّة، وتمتدّ على بطنه نزولًا إلى أحد جانبيه. وقد صدقت شكوكها، إذ وجدت بقعَ الفيروس الحمراء على مؤخّرته وإبطيه.

كان الفتى يرقد غائبًا عن الوعي، مشتعلًا بالحمّى. وحين حاولا تشريبه المياه، بصقها كما لو أنّها سمّ.

وفي الليل أخذ يصيح.

قطعت آنّا أزقّة شيفالو المعتمة، تحت جنح الظلام، يحميها كوكولوني، بحثًا عن أدوية. لم يبقَ منها إلّا القليل في أدراج الصيدليّات. دَهونٌ للجلد، بخّاخاتٌ وعلبٌ أكلتها الفئران. حضرت قارورة ميلاتونين، تاكيبيرين، مضادات حيويّة، ولكنْ لا شيء يكفي لتسكين الألم.

وفي اليوم التالي هام بييترو في غيبوبةٍ لاهثة لا يصحو منها إلّا وهو يزعق، كما لو أنّ موجات الألم تتكسّر عليه. وما زال يردّد إنّه يشعر بالبرد، ولا تنفع النار أو الأغطية في تدفئته.

وفي الصباح التالي صعدت شمسٌ شاحبةٌ وباردةٌ من البحر

الرماديّ كلون الصخور. كان الأخوان نائمين متقوقعين بجوار الفتى الذي فقد رشده. تخثّرت دماؤه بعجينةٍ سوداء وكثيفة كالقطران تجعله ملتصقًا بستارة الفراش. وصارت البقعة البنفسجيّة على بطنه أشدّ قتامةً وسخونة.

وفي منتصف النهار بدأ يهذي. كان متضايقًا من شخصٍ يدعى باتريزيو. ويطالبه بالتوقّف عن الكتابة، لأنّ ضوضاء النقر تثير جنونه.

- سأخبره على الفور. - طمأنته آنّا وهي ترفع له رأسه. - هل لاحظتَ؟ لم يعد يكتب.

كشّر بييترو متجهّمًا ومذعورًا، وحملقت عيناه المتجمّدتان إلى السماء المطفأة كما لو أنّ شيئًا مرعبًا يحوم فوقه.

هرعت آنّا إلى الصيدليّة مجدّدًا، فتحت كلّ العلب في المستودع فوجدت أقراصًا وقوارير للحقن، لكنّها لم تعثر على حقنة. سكبت له السائل ما بين شفتيه المتشقّقتين وحاولت أن توغل في فمه حفنة من الحبوب، لكنّه أوصد أسنانه، كأنّه يفعلها نكايةً بها. حاولت عدّة مرّات، ولم تنجح. رمت الأقراص في الهواء وأخذت تركل العلب والصبّار وتقتلع الآجام وهي تصرخ. تشبّث أستور بساقيها، وتوسّل إليها أن تكفّ عمّا هي فيه.

جمعا الأدوية وهما يزحفان على أربع، ودسّوها في فمه واحدةً في إثر واحدة حتّى هدأ. ارتخى وجهه وغطّ في نومٍ ثقيل.

وفي اليوم الثالث استيقظت آنّا على صوت بييترو يناديها: - آنّا... آنّا...

أزاحت عنها الأغطية وقرفصت بجانبه وأمسكت يده: - ها

أنا ذا. أنا هنا.

ضيّق الفتى حدقتيه كأنّه يمتلك في العينين منارة، أنهض رقبته قليلًا وحدّق إليها بنظرةٍ عمياء: – العجلة. لقد توقّفت فجأة. حاولتُ ولكن... – اجتاحته نوبة سعال صدّعت صدره فبصق كتلةً من دم قاتم. تلمّس أصابعها يبحث عنها تحت الظلام. – عليكِ أن تعثري على الحذاء.

مسحت آنّا دموعها وداعبت جبينه المتعرّق: – أجل، سأعثر عليه.

– عليكِ أن تعثري عليه، مفهوم؟ سينقذكِ.

– مفهوم. استرح الآن.

وكأنّ كلماتِ آنّا طمأنت قلبه، ولعلّه اجترح ابتسامةً بشفتيه وظلّ صامتًا بعض الوقت، ثمّ تحدّث بعينين مغمضتين:

– آنّا... اجلبي كيسين.

– لأيّ غرض؟

– كيسان. غير مثقوبين.

* * *

الكيسان

في قلب جزيرة صقلّية، تقع بلدة فيتا، وبالتحديد في شارع أليرامو، يوجد بيتٌ عصريٌّ محاطٌ بحديقة أشجارٍ مثمرة، من أملاك آل لوكابو. كانت السيّدة كوستانزا تسكن في الطابق الأرضيّ، وهي أرملة دومينكو لوكابو، متعهّد البناء الذي توفّي في الستّين عامًا جرّاء ذبحةٍ قلبيّةٍ فاتكة. وكانت لاورا، ابنته البكر،

ووالـدة بييتـرو تسـكن في الطابـق الأوّل، وهـي طليقـة مـاورو سـيرّا، الميكانيكيّ فـي فرقـة سيّارة السباق دوكاتـي. وكان الطابـق الثانـي مقسّـمًا إلـى شـقّتين تشـغلهما البنتـان الأخريـان أنّاريتـا وشيليسـتي.

وكانـت أنّاريتـا البنـت الصغـرى، تـدرس العمـارة. فـي حيـن أنّ شيليسـتي قـد تجـاوزت الثلاثيـن عامًـا منـذ مـدّة، عزبـاء ولديهـا متجـر لبيـع الخزفيّـات فـي وسـط البلـدة. وكان النـاس يقولـون إنّ شيليستي لا هـي لحـمٌ ولا هـي سـمك، إحـدى تلـك المخلوقـات التـي لا يهمّهـا الجنـس، بصـرف النظـر عـن النـوع. أمّـا أنّاريتـا فكانـوا ينعتونهـا بالسـحاقيّة، تسـتخدم الجامعـة ذريعـةً للذهـاب إلـى باليرمـو حيث تلتقي بخطيبتها التـي تعمل فـي البلديّـة. أقاويل أهـل الضيعـة!

علـى أيّ حـال، بعـد وفـاة دومينكو لـم يعـش فـي البيـت سـوى نسـاء مُحبّـاتٍ لبييتـرو، الملـك الصغيـر المدلّـل مـن قِبَلِ خالتيـه والمغنَّـج مـن قِبَلِ جدّتـه.

ولـم يكـن مسـموحًا لأيّ ذكـرٍ بالإقامـة فـي الحرملـك مـا عـدا واحـدًا: مـاورو، والـد الطفـل. الميكانيكـيُّ، الـذي يطـوف الأرض علـى الـدوام، كان يجـد نهايـة أسـبوع فـي الشـهر وأسـبوعين فـي الصيـف ليعـود إلـى ابنـه وزوجتـه السـابقة، التـي كانـت برفقـة أختيهـا تزيـد وزنـه وتعلفـه بأطبـاق الكابوناتـا الخاليـة مـن الخـلّ تقريبًـا، ووجبـة الخرشـوف بالفـول وحلـوى الكانولـي المحشـوّة بجبـن الغنـم. فـكان نجـم بييتـرو يخفـت فـي تلـك الأيّـام ويتألّـق نجـم أبيـه.

مـاورو سـيرّا طويـل القامـة، أصهـب الشـعر، أزرق العينيـن، ذو لحيـة كثيفـة تؤطّـر وجهـه. يرتـدي قمصـان الفلانيـلا، وينتعـل الجزمـات التكساسـيّة المدبّبة. تدّعي الشـقيقتان أنّ روبرت ريدفورد قد عطسـه.

وكان كالممثّل الأمريكيّ بالفعل: زير نساء من الطراز الفاخر.

فكلّما جلست ثلاثتهنّ في يوم الأحد لمشاهدة المسابقة الكبرى، كُنَّ ينكهنَّ؛ أيٌّ من الفتيات المرافقات قد سقطت ضحيّةً لإغواء ماورو.

- فتاةٌ في كلّ دورة. ◻ بالفت لاورا وهي توزّع البارميجانا في الصحون.

كانت لاورا لوكابو امرأةً جميلة، سمراء وعيناها من سوادٍ فاحم، لكنّ وزنها زاد بعد الطلاق وقد سمحت للنضج أن يبرز الشيبَ من جذور شعرها الطويل. وكانت تلقّب زوجها «بلاي بوي»، وبدلًا من أن تذبحها الغيرة من ذلك كانت تتفاخر به وتقول: «هل بإمكانك أن تمنع الليث من اصطياد الفرائس؟ عليك أن تحبسه في قفص. وهذا الحلّ لا يروقني. إنّها جريمة بحقّ الجنس الأنثويّ». كانت تعتزّ بكونها اللبوة الوحيدة التي أنجب منها ماورو ابنًا، وهذا يكفيها. بل وكانت ترتضي بألّا ينسى ابنَه بييترو وأن يأتيها من رحلاته بالتذكاريّات الممغنطة التي تُلصَقُ على باب الثلّاجة. وحتّى الشقيقتان الصغريان كانتا تخضعان لسحر صهرهما، وكلّما عاد تهندمتا وتبرّجتا ودخلتا في تحدٍّ لإغوائه أكثر من الأخرى. وكان الحلم بالسكن في جناحٍ للحريم واقتسام مزايا الميكانيكيّ يمنح الاثنتين صعقاتٍ من الشبق العارم.

- حسنًا، بما أنّه أعجِبَ بالحلوى التي أعددتُها بيديَّ المقدَّستين هاتين، سينام الـ «بلاي بوي» عندي هذه الليلة. ◻ كانت الصغرى تقول وتفقد حياءها.

- وما الذي سيفعله بهزيلةٍ مثلك؟ - تردّ عليها شيليستي. - أنا هي الـ... كيف تقال يا ماورو؟ أنا هي الـ «Milf». - تقول مشيرةً إلى ضخامة محاسنها.

- حسنًا... إن تشابكتما يسعكما السرير. فأنا أعرف يا عزيزي ماورو أنّك قادرٌ على فعل تلك الأشياء. - تصيح لاورا مهتاجةً وهي تغسل الأطباق.

وهكذا تتفجر تلك النساء بضحكات عصابيّة، مهتاجاتٍ كالمراهقات، ويشعرن بأنّهنّ حداثيّات وخارجات عن الأعراف. يحدث ذلك بينما يجد الميكانيكيُّ نفسه في إجازة، متنعّمًا بأفضال الله، تقوم على خدمته ثلاث نساء توقّرنه كما لو كان ملكًا بابليًا.

حتّى بييترو الصغير قد نشأ في ظلال أسطورة والده الوسيم والمتميّز الذي يأتيه بكنزات سيّارة الدوكاتي والأدوات الذكيّة. كان يظلّ ساعات في الكراج ينظر إليه بينما يصلّح درّاجة لافيردا يوتا قديمة. وكانا في الأيّام المشمسة يتّجهان إلى البحر، إذ يقعد الطفل على خزّان الوقود.

باختصار، كان كلّ شيءٍ يجري على قدم وساق، ولكنّ مثل المآسي المحترمة وقع حدثٌ شتّت الوئامَ في عائلة لوكابو: ظهور باتريزيو بيتروني في شارع اليرامو. الصفة: صاحب أناريتا الجديد. الأصل: من روما. الوزن: أكثر من مئة كيلوغرام. قصير القامة وعريض الجانبين، بحيث إنّك توفّر الوقتَ إذا قفزتَ فوقه على أن تدور حوله. خوذةٌ من شعرٍ مجعّدٍ أسود تكاد تندمج بحاجبيه المتّصلين. نظّارة طبيّة بإطارٍ ثقيل على الأنف المفلطح كحبّة البطاطس. بطنٌ منفوخٌ يطفح بسروال التزلّج الدبق على

الردفين القصيرين، وعضلات الساقين مكوّرة كأفخاذ الديك الروميّ فوق حذاء رياضيّ أسود.

تجنّبت أنّاريتا الحديث عن كيفيّة تعارفهما، لكنّ الأختين تنبّهتا من خلال بعض التفاصيل أنّ الفيسبوك هو الذي وضع حجر الأساس. أمّا باتريزيو، المنحدر من منطقة برينستينو أوضح لهما بلهجته المجرورة إنّه وأنّاريتا يحبّ بعضهما بعضًا منذ الأزل، منذ الانفجار العظيم فعليًا، وقد تمكّنا من لمّ شملهما في هذا الوجود أخيرًا بعد آلافٍ من الحيوات التي أمضياها في تعقّب كلّ منهما الآخر.

- هذان منسجمان كانسجام الخبزة اليابسة مع السكّين المثلومة.

– علّقت العجوز كوستانزا مستاءةً.

- باتريزيو سيبقى هنا بعض الوقت، عليه أن ينجز روايته.

– فسّرت أنّاريتا لشقيقتيها اللتين كانتا تصغيان إليها باستغرابٍ كبير.

حطَّ الكاتبُ رحاله في بيت خطيبته وحوّل صالة الجلوس إلى مكتبه الخاصّ. وفي أقلّ من أسبوعين استطاع بنقلاته النادرة والدقيقة أن يكسب كراهية الجميع.

لم يحبّه بييترو لأنّه كان يسرق منه شوكولاتة الكيندر بوينو، وكانت الجدّة تدّعي أنّه دخل ذليلًا وبات مستبدًا. أمّا لاورا فتكرهه لأنّه قذرٌ وقبيحٌ كالطاعون على حدّ وصفها. وشيليستي كذلك لأنّه خدع شقيقتها المسكينة وخفيفة العقل.

وكان باتريزيو حسّاسًا لنظرات آل لوكابو الحاقدة بقدر ما يتحسّس الجاموس من قرصة الفاصدة. كان يجلس إلى الطاولة ويأكل بشراهة، ثمّ يحطّ على الأريكة معانقًا خطيبته ويشاهد

مسابقات المشاوي في التلفاز. ويقضي بقيّة الوقت بالكتابة. فكان ضوضاء النقر على لوحة المفاتيح يدوّي عبْر سلالم البيت ليلًا ونهارًا. ونادرًا ما يخرج من الشقّة، إلّا للذهاب إلى محلّ الوجبات السريعة لشراء البطاطس المقليّة والكباب.

انعقد اجتماعٌ سريٌّ، في مكانٍ معزول، بين لاورا وشيليستي، على طبق الكاربونارا، لإعداد خطّةٍ تهدف إلى طرد المرحاض الأبديّ (هذا هو اللقب الذي اكتسبه) من دون أن تُجرَحَ شقيقتهما كثيرًا. واتّفقتا على أن يتكفّل ماورو بإقناعه. بالحسنى أم بالإكراه.

دعا الميكانيكيُّ الرجلَ على بيتزا، دعوة رجلٍ لرجل، وعند العودة وجد الشقيقتين في انتظاره بلباس النوم:

- بشِّرْ!

- تناولنا بطابيتزا، وشطيرة الجبن واللحم، وأربع زجاجات من البيرة.

سقطت لاورا على إحدى الأرائك مغمومةً: - وما البطابيتزا؟

- هي بيتزا عليها بطاطس مقليّة.

كانت شيليستي تطوف في الصالة تمتصّ سيجارة: - ولكن، هل سألته متى يرحل؟

- ليس قبل إنهاء الرواية.

اقتطعت لاورا جزءًا من فطيرة التفّاح وأعطت زوجها السابق إياه وهي تقول: - هل بوسعنا أن نعرف على الأقلّ عن أيّ ترّهةٍ تتحدّث هذه الرواية؟

- إنّه بصدد إعادة كتابة تاريخ العالم متخيّلًا البشرَ على أنّهم فئران الهمستر.

حملقت إليه الشقيقتان في انتظار مزيدٍ من التوضيحات.

بهش الميكانيكيُّ من الفطيرة: - وقد أنجز التوّة فصل ما قبل التاريخ.

لم يتغيّر شيء على امتداد الأشهر الثلاثة اللاحقة، إلى أن تحدّثت الأخبار عن داءٍ مجهول يفتك بضحاياه في مدينة لييج، ولسببٍ مبهم، ومرتبطٍ بانعدام هرمونات البلوغ، يبدو أنّ للأطفال مناعةً منه.

كان ماورو قد أمضى شهرًا في هولندا يجرّب السيّارة الجديدة، شعر بوعكةٍ في أثناء رحلته الجويّة التي أقلّته إلى باليرمو. سكّينان ينغرسان أسفل أنفه، وعضّةٌ فولاذيّةٌ تنشب أنيابها في صدغيه. تقيّأ في الحمّام، حيث انتبه أنّ لديه بقعًا حمراء على أحد جانبيه.

ذهبت لاورا إلى المطار لاستقباله. رأته خارجًا من بوّابة الواصلين متهالكًا وعيناه رطبتان. وبدأ الميكانيكيُّ يسعل في السيّارة على طريق البيت. وضعوه على السرير، وعلى الرغم من عصائر الليمون وحبوب الأسبرين اجتاحته حمّى ثقيلة الوطأة لا يتحمّلها حصان. زاره الطبيب بانونتزيو، طبيب العائلة، وطمأن الشقيقتين: - ليس فيه شيء. مجرّد إنفلونزا. عليه بالراحة لا أكثر.

لكنّ الأخبار الآتية من شمال أوروبا لم تكن مطمئنة، فقد تخطّى الفيروس الحدودَ واستشرى بلا هوادة في أرجاء القارّة. وكان هناك فريق من العلماء الألمان يعملون على إنتاج لقاحٍ فعّال. ومن حسن الحظّ في إيطاليا أنّهم نجحوا في عزل الحالات القليلة التي سُجِّلَت.

وبعد يومين عانى ماورو من انهيارٍ في جهازه التنفّسيّ فنقلته

لاورا بسيّارة الإسعاف إلى باليرمو. عادت المرأة مصابةً بالحمّى، وأنفها يسيل. روت أنّ المستشفى الجامعيّ كان في فوضى عارمة وأنّهم ألقوا ماورو في ممرٍّ مع مئات المرضى الذين ظهرت عليهم الأعراضُ ذاتها.

وبعد أسبوع، تجمّعت عائلة لوكابو قبالة التلفاز، باستثناء شيليستي التي ظلّت هاجعة في غرفتها إذ كاد السعال يفتك بها. كانوا جميعًا ينتظرون كلمة رئيس مجلس الوزراء المرتقبة، التي ستبثّها كلّ القنوات. إلّا أنّ الرجل الذي ظهر أمام الصحفيّين هو وزير الصحّة، اعتذر على تغيُّب رئيس الوزراء، وهو يسعل، وأهاب بالمواطنين أن يبقوا في منازلهم وألّا يبرحوها إلّا في حالات الضرورة القصوى. «على كلِّ مَن يعاني متلازمةَ ضيق التنفُّس الحادّ، المتزامن مع بقع جلديّة متورّمة، والحمّى وأعراض ذات الرئة أو أمراض تنفّسيةٍ أخرى، أن يُعزَل مباشرةً إذ من الوارد أنّه التقط الفيروس، ما يجعله ناقلًا للعدوى وخطرًا على مَن يحيطون به».

أنهكت الحمّى لاورا، واشتدّ قلقها إذ لم يردها خبرٌ عن زوجها السابق منذ أيّام، فطلبت من أنّاريتا الذهاب إلى باليرمو. كان الأوتوستراد مزدحمًا بأفواجٍ كبيرة من سيّاراتٍ محمّلةٍ بالحقائب تنوي مغادرة الجزيرة. قيل لأنّاريتا إنّ باليرمو باتت تحت حماية الجيش ولا يمكن دخولها أو الخروج منها. حتّى إنّهم أغلقوا المطار وأوقفت الرحلات البحريّة نحو كالابريا.

كانت الجدّة أوّلَ مَن توفّي في ذلك البيت في شارع أليرامو. استغرق الفيروس أقلّ من أسبوع للقضاء عليها. وكانت أنّاريتا هي

الابنـة الوحيـدةُ التـي حضـرت الجنّـاز، ولـم يكـن معهـا فـي الكنيسـة أحدٌ تقريبًا مـا عـدا باتريزيـو وبييتـرو. بل وحتّـى سـائق عربـة النعش لـم يـأتِ، فشـحن أحـد أقاربهـا التابـوت فـي سيّارته الصالونيّـة. كانـت البلـدة مقفـرة، ومعظـم المحـلّات مقفلـة. فمَـن لـم يكـن فـي سـريره كان قبالـة التلفـاز أو علـى الهاتـف يتواصـل مـع أقربائـه البعيديـن.

وكان باتريزيـو يقضـي أيّامـه علـى الكمبيوتـر بحثًـا عـن أنبـاء. أصيب الكوكب كلّه بالجائحة، من الهند إلى الولايات المتّحدة، حتّى أسـتراليا لـم تكـن بمأمـنٍ عنهـا. وبـات مـن الواضـح أنّ العـدوى قـد وقعت قبل تسجيل الحالات في بلجيكا بمدّة طويلة. وكان الفيـروس –بالنسبة إلى بعض البشر – عبقريًا بشكلٍ رهيب من حيث الطريقة التـي تفشّـى بهـا وسـباته الطويـل الـذي حوَّلـه إلـى قنبلـةٍ بيولوجيّـة. كمـا أنّ طفراتـه كانـت تحـدث بسـرعةٍ تجعـل مـن تصنيـع اللقـاح أمـرًا مستحيلًا، بل وحتّى الباحثون الذين يعملون عليه لا يصمدون أمامه، علـى الرغـم مـن الإجـراءات الوقائيّـة الصارمـة التـي اعتمدوهـا.

خسرت فيتا نصف سكّانها في أقلّ من شهر، وهي التي كانت تُقَـدَّرُ بألفيـن وخمسـمئة نسـمة قبـل الوبـاء. فمنهـم مَـن كان يمـوت وكلّـه أمـلٌ فـي انتظـار اللقـاح، ومَـن كان متشـكّكًا فيـه فيحجـر علـى نفسـه فـي البيـت ويوصـد بابـه، لكـنّ هـذا لا ينجيـه مـن الـداء. أمّـا الأطفـال فإنّهـم الوحيـدون الذيـن بقـوا فـي كامـل صحّتهـم، يتجوّلـون فـي البلـدة بحثًـا عـن طعـام ومـاء لآبائهـم وأجدادهـم.

علّـق التلفزيـون نشـراتِ الأخبـار واقتصـر علـى بـثّ الأفـلام القديمـة. توقّفـت شـبكات الهاتـف عـن العمـل واحـدةً تلـو أخـرى. وعندمـا انقطعـت الكهربـاء أيضًـا، بسـط طائـر يـوم القيامـة جناحيـه الظـلام والبـرد علـى فيتـا.

توفّيت شيليستي بعد السيّدة كوستانسا في ذلك البيت. رُميَت جثّتها في مقبرة جماعيّة من دون إقامة عزاء. وكانت لاورا وأنّاريتا ترقدان كلٌّ في سريرها، فاقدتي الوعي تتصبّبان عرقًا من الحمّى. وكان بييترو يجلس ساعات بجانب أمّه في صمتٍ خانق، يلعب بالجنود الصغار. وذات صباح، اعتذر منه باتريزيو وأمسك به من يده، واقتاده إلى غرفته الصغيرة، أقفل الباب وقال: «إنّهما تحتضران. لا يمكننا فعل شيء لهما، لأنّهما هالكتان لا محالة. علينا أن نبقى هنا وننتظر». وكان قد كدّس في الغرفة علبًا كبيرة من الطعام وقوارير البيرة.

لكنّ بييترو كان يبكي، يريد أمّه. فيخرج الشابّ البدين عن طوره، يرفس الخزانة، يمزّق أذرع الدمى، ويضع دلو المركّبات البلاستيكيّة في رأسه: «لم لا تستوعب؟ لم لا تتكيّف؟ انسَ العالم القديم. فحياتك كلُّها أمامك. لقد دخلنا في عصرٍ جديد».

وما إن تتسلّل أولى خيوط الضوء عبْر الستائر، كان يجلس إلى المنضدة ويملأ رزمًا من الأوراق بآلة كاتبة قديمة من طراز أوليفيتّي. كان متحمّسًا: «هذه رائعةٌ أدبيّة»، يقترب من الطفل ويحنو على رأسه. «وقائع مؤلمة وصارخة ليوم القيامة. لم أقتطع أيّ شيء».

لكنّ بييترو لا يعلم ما يوم القيامة.

– حين يموت الجميع ويقول الله كفى، لقد أعطيتكم لعبة وأنتم حطّمتموها. لقد أعطيتكم كوكبًا رائعًا وأنتم أفسدتموه.

كان الوباء، بالنسبة إلى باتريزيو، هو أروع شيء قد يقع للبشريّة. كان يجول في الغرفة كالقرد ويتحدّث، ويطرح

التساؤلات، ويقدّم الإجابات إلى أن يسقط على الكرسيّ ثملًا مفسوخ الساقين.

وكان بييترو يعرف أنّ باتريزيو يخبّئ مفتاح الباب في جيب بنطلونه. فنهض ذات ليلة وحاول أن يحصل عليه. لكنّ أصابعه بالكاد اندسّت في الجيب المختفي بفعل ثنايا بدنه المترهّل.

استيقظ الغول وهو يشخر: - كنتَ تريد المفتاح؟ - أخرجه من جيبه - جميلٌ أليس كذلك؟ - فتح فمه وابتلع المفتاح كما لو كان مصّاصة سايلا مينتا. - سحر، اختفى المفتاح. - شبك ذراعيه وعاود الشخير.

وفي مرّة أخرى بادر باتريزيو بنفسه لإيقاظ الطفل.

- بييترو... بييترو... - همس كأنّ في الغرفة مضخِّم صوت.

- هل تسمع؟

كان الصغير يعانق دميته، ولم يكن قد سمع أيَّ نأمة منذ أيّام. لا أنين خالته المكبوت ولا آهات أمّه. حتّى ضجيج السيّارات قد اختفى.

- ها، هل تسمعه؟

- الريح؟

- يشبهه، لكنّه ليس صوت الريح. إنّه حفيف ملايين الأرواح التي تغادر الكوكب، تدفُّقٌ متواصلٌ لا يتوقّف من الأشباح التي تتخطّى حدود عالمنا وتجتاز النظام الشمسيّ وتتّحد من جديد.

توجّس بييترو: - أنت بخير، أليس كذلك؟ لن تموت؟ لن تتركني وحيدًا هنا في الداخل؟

- اطمئنّ. أنا مختلف. انظر. - التفّ حول نفسه كالراقصة. - ليس لديّ أيّ بقعة ولم أشعر أنّي بخير مثل الآن في حياتي كلّها.

إنّني مفعمٌ بالنعمة. هناك قلّة قليلة ممّن يصطفيهم الله ويوفّرهم لأنّهم ملزمون بواجب إعادة تأسيس النوع البشريّ. أنا الشاعر، ومهمّتي هي أن أروي النهاية والبعث. وأنت ستكون مساعدي.

بدأ احتياطيّ الطعام ينفد وقرّر باتريزيو أن يقتصده. وكان الاثنان ما إن يحلّ الظلام، يستلقيان ما بين الدمى على سرير بييترو الأزرق. فيروي باتريزيو على مسامعه بأنفاسه الكحوليّة حكاياتٍ عن جحافل من فئران الهمستر يقاتلون آلهة المصريّين القدماء أو يدمدم له أغنية فرقة كوين «We Are The Champions».

استيقظ بييترو ذات صباح، ووجده جالسًا قبالته يطيل النظر إليه. كان قد بدّل كنزته وحلق لحيته. وكان باب الغرفة مفتوحًا.

– صباح الخير أيّها المساعد. آمل أنّك نمت جيّدًا. والآن سنعود إلى العالم. فالشاعر لا يستطيع مزاولة السرد وهو منغلقٌ على نفسه في غرفة.

ركض الطفل يقفز نحو أمّه. لم تكن في غرفتها، ولا في الصالة. خرج إلى السلالم فوجدها ملقاةً على المستراح. كانت منتفخة ويحيط بها الذباب. استند بييترو إلى الحائط وغطّى عينيه بيديه.

أمسكه باتريزيو من ذراعه: – أترى ما الذي يحدث للجسد حينما تُنتَزع منه الروح؟ يطلق رائحة كريهة، ويغدو طعامًا للدود والذباب. لا ينبغي لك البكاء. فهذا الشيء ليس أمّك. لقد تحرّرت أمُّك وهي الآن تطير ما وراء كوكبة القنطور.

– وأبي؟ أين أبي؟ – أجهش الطفل باكيًا.

- الأمـر ذاتـه. غـادر هـو أيضًـا. امتزجـت ذرّاتـه بـذرّات والدتـك فـي عالـم متكامـل.

وجـداً أنّاريتـا لا تـزال حيّـةً، ملقـاةً علـى سـريرٍ زوجـيّ. وكان الفيـروس قـد جفّفهـا وأحالهـا إلـى هيـكلٍ عظمـيّ لاهـث. دنـا منهـا بيتـرو وداعـب شـعرها. كانـت عينـا الفتاة محجوبتيـن بقشـرةٍ رماديّة، تفتـح فمهـا وتغلقـه كالسـمك.

قـرّب باتريزيـو أذنـه مـن شـفتيها: - تطلـب منّـا أن نسـاعدها. - حمـل الطفلَ إلـى الصالـة وأجلسـه علـى الأريكـة. - إنّ ذلـك الجسـد المريـض يسـجن روح أنّاريتـا. وعلينـا أن نحـرّرهـا. ستسـتطيع فعلهـا بمفردهـا فـي النهايـة، لكنّهـا سـتعاني كثيـرًا، ونحـن لا نريـد لهـا أن تعانـي، أليـس كذلـك؟

ظلّ الصبـيُّ صامتًـا مطـرق الـرأس، ثـمّ نظـر إلـى باتريزيـو وقـال لـه: - هـل تريـد أن تقتلهـا؟

جلـس باتريزيـو بجانبـه: - هـل رأيـتَ فيديوهـات عـن الحيوانـات المتوحّشـة حينمـا تسـتعيد حريّتهـا؟ يحـدث أحيانًـا أنّهـم يفتحـون لهـا الأقفـاص لكنّهـا لا تخـرج، مـا يرغـم خفـر الغابـات علـى دفعهـا إلـى الخـارج بالعصـا. وهـل تعلـم لـم لا تخـرج؟ لأنّهـا تخـاف مـن الحريّـة. والأمـر ذاتـه ينطبـق علـى الـروح. - حـرّك باتريزيـو أصابعـه الغليظـة كمـا لـو أنّـه ينقـر علـى لوحـة مفاتيـح. - الـروح، تلـك الجوهـرة الغامضـة، جُـزَيءٌ مـن اللّه الـذي أحيـا بـه لحـم خالتـك، مذعـورةٌ مـن فكـرة هجـران الجسـد. ولكنّهـا حالمـا سـتفعلها ستشـعر بفرحـةٍ لا تنتهـي. ونحـن خفـر الغابـات. هـل فهمـت؟ سـنحرّرها.

أومـأ الطفـل موافقًـا.

نظر باتريزيو حوله. كانت الشمس تشطر الصالة نصفين، ويتراقص الغبار في ذلك الهواء المخنوق ليسبغ كلّ الأشياء باللون الذهبيّ.

- أين تضعون الأكياس البلاستيكيّة؟

- في المطبخ. تحت المجلى.

- هيّا. اجلب كيسين. غير مثقوبين.

كان باتريزيو عند رأس السرير، وتحته جمجمة أنّاريتا المتقزّمة، يحمل بين يديه الكيسين المغلولين أحدهما في الآخر. كان ينظر إلى مساعده الصغير الذي وقف بجانب الفراش يضمّ يد خالته.

- سأضع الكيسين على رأسها. ستتخبّط. ألقِ بنفسك عليها وثبّتها، واستخدم كلّ قواك، يجب ألّا تفلت يديك عنها.

أومأ الطفل جادًا.

- عندما تخرج روح خالتك من جثّتها ستمرّ من خلالك، ستعيش في جسمك بضع لحظات. ستشعر بها تنزلق إلى داخلك كالنسمة. هذه طريقتها في توديعك. جاهز؟

تسلّق بييترو على السرير واستلقى على المحتضرة وعانقها:

- جاهز.

لم تستغرق الخالة كثيرًا لترحل.

التقط باتريزيو أنفاسه وهو يقطر عرقًا.

- هل شعرتَ بها؟

- أجل.

- ما رأيك؟

- جميل جدًا. - نزل بييترو عن السرير.

كانت أنّاريتا رقم واحد. ففي الأيّام اللاحقة تكفّل محرّرا الأرواح بكلّ المحتضرين في شارع أليرامو، ثمّ حرّروا أرواح سكّان فيتا كلّها. كانا يخرجان في الصباح الباكر ويعودان عند مغيب الشمس. وكانا يتّبعان الأرقام البريديّة. وغالبًا ما اضطرا إلى خلع الأبواب وتسلُّق واجهات الأبنية. فالمرضى منغلقون على أنفسهم في الداخل خشية أن تُسرَق بيوتهم. وكان من بينهم كثيرٌ ممّن ينازعون ما بين الحياة والموت. وكان بعض الكبار الذين لا يزالون قادرين على الوقوف على أقدامهم، يأتون بهما إلى ذويهم المحتضرين. وكان الثنائيّ يتنقّلان بسيّارة الفيرّاري 458 التي أخذاها من السيّد بوتّا كاتب العدل، يقودها باتريزيو بسرعةٍ تكسر صمت البلدة، وغالبًا ما تلحق بهما عصابات الأيتام.

وكانت طريقة الكيسين ناجحة، لكنّ المشكلة تكمن أحيانًا في المتحرّرين -كما كانا يسمّيانهم- حيث يتخبّطون تحت رحمة التشنّجات، فيسقط بييترو أرضًا. وهكذا طوّر الاثنان تقنيّات التثبيت وذلك بربط المريض بالسرير عبْر الشبكة اللاصقة قبل أن يصعد الطفل فوقه.

وذات يوم، قرّر باتريزيو توسيع نطاق مهمّتهما إلى بعض البيوت المجاورة للبلدة. ركن الفيرّاري قبالة حانة ونزلا مسلّحَين بالأكياس واللواصق. هناك صفّان من الأبنية بطابقين تطلّ على الشارع المستقيم. تتخلّل الصفّين حدائقُ صغيرة مسيّجة ينمو فيها النخيل وشجر الليمون. اختفى قطيعٌ من الكلاب الضالّة بين المساكن ما إن رأتهما.

- يجدر بنا قتل هذه الكلاب السافلة. لأنّها تدخل البيوت وتأكل الأموات. - عاد باتريزيو إلى الفيرّاري، أخذ بندقيّة صيد ولقّمها. - سأعلمك كيف تستخدمها عاجلًا أم آجلًا.

كان الفيروس قد جلا الحياة في تلك الشقق، فما وجدا فيها سوى الجثث. استرخى باتريزيو على إحدى الأرائك متضايقًا: - ستنتهي مهمّتنا عمّا قريب.

- وماذا سنفعل حينذاك؟ - سأله بييترو وهو يلهو بعقارب متوقّفة في ساعة رقّاص قديمة وكبيرة.

- سنذهب إلى باليرمو، ثمّ إلى باريس. - التفت ومدّد جذعه على المسند ليأخذ علبة شوكولاتة من فوق الطاولة. ارتفعت كنزته وانخفض بنطلونه من جهة ردفيه فكشف بقعةً حمراء. اضطرّ بييترو إلى الاستناد إلى الساعة كيلا يقع على الأرض. لطالما تشدّق باتريزيو بأنّه منيع، وأنّه لن يصاب بالمرض أبدًا.

- هل تريد؟ - مدّ إليه العلبة بعد أن التهم ثلاث قطع.

هزّ بييترو رأسه نافيًا.

- ما بك؟ هذه المرّة الأولى التي ترفض فيها شوكولاتة. - أزال غلاف حبّة نوغا بأسنانه الملطّخة بالشوكولاتة.

عضّ الطفل شفته وابتلع ريقه، وهمس بما تبقّى من أنفاسٍ في جسده: - لديك بقعة.

بدا باتريزيو أنّه لا يسمع أو ربّما لم يفهم.

- لديك بقعة. - ردّد بييترو متلعثمًا. وامتلأت عيناه بالدموع.

انتفض باتريزيو واقفًا، أمسكه من كنزته ورفعه في الهواء كما لو أنّه خرقة. - ماذا قلت؟ - كان فمه الصغير بالنسبة إلى وجهه

المـدوّر الكبيـر يرتعـش، واختبـأت عينـاه الصغيرتـان الممسوسـتان فـي جوفيهمـا الداكنيـن، وتشـعّث حاجبـاه. - أيّ هـراءٍ تقـول؟ - رفـع قبضتـه. كانـت هـي المـرّة الأولـى التـي يمـدّ يـده علـى الطفـل. - أيـن؟

أغمض بييترو عينيه: - على ظهرك.

أنزلـه واقتـرب مـن مـرآة كبيـرة مؤطّـرة بخشـب الموغانـو. نـزع الكنـزة. نظـر طويـلًا وهـو يتنفّـس مـن أنفـه. أخفـض بنطلونـه. حتّـى ردفـاه الأبيضـان والأزغبـان اكتسـيا بالبقـع الحمـراء.

اختبـأ الطفـل فـي إحـدى زوايا الصالـة. أطـال باتريزيـو النظـر فيـه، ثـمّ أشـار إلـى البـاب: - ارحـل.



- إلى أين؟

- بعيدًا. ارحل بعيدًا.

انفجر الصبيّ باكيًا ولم يتحرّك.

- عليك أن ترحل. على الفور. - جأر الشابّ. أمسك مصباحًا مـن فوق الطاولـة وهشّـمه أرضًـا.

انزلـق بييتـرو علـى الأرض متمسّـحًا بالحائـط وضـمّ سـاقيه بذراعيـه.

- افعـل مـا يحلـو لـك. - جلـس باتريزيـو علـى الأريكـة، أمسـك البندقيّـة، غـلّ الفوّهـة فـي فمـه، وضـع إبهامـه علـى الزنـاد ونظـر إليـه.

حجـب بييتـرو عينيـه بركبتيـه وسـدّ أذنيـه بيديـه. حـاول أن يفكّـر فـي شـيء جميـل. فـي الجـولات التـي كان يمضيهـا مـع والـده علـى متـن الدرّاجـة. فـي تلـك المـرّة التـي توقّفـا فيهـا بجانـب مسـتنقعٍ مسـطّح كالطاولـة تنتـأ مـن جوانبـه تـلالٌ مـن ملـحٍ أبيـض. وفـي البعيـد

طيور النحام الورديّ التي أعناقها كحرف S ومناقيرها كالموز وسيقانها الرفيعة مثل عصيّ البلياردو.

- انهض، هيّا. - أمسكته يدٌ قويّةٌ كالكمّاشة من ذراعه.

- إلى أين سنذهب؟

- سأرجعك إلى البيت.

لحق المساعد بمعلّمه الذي سار بساقين منفرجين والبندقيّة على كتفه.

لم يلفظا أيّ كلمة في السيّارة. كان باتريزيو يقود بسرعةٍ جنونيّة، وبييترو يغمض عينيه كلّما اعترضهما منعطف. توقّفَ بحدّة عند البيت في شارع أليرامو مخلّفًا نصف عجلة على قارعة الطريق.

فتح الشابّ الباب: - انزل.

- وأنت، إلى أين ذاهب؟

- انزل.

- هلّا أتيتُ معك؟

- قلتُ انزل.

انطلقت الفيرّاري ثانيةً بدويٍّ شديد أرعب كلّ الغربان فطارت بعيدًا عن الأشجار.

ولم يعد بعد.

انضمّ بييترو إلى أولاد البلدة الآخرين. كانوا يعيشون في المدرسة جميعًا. قرابة الثلاثين طفلًا، ذكورًا وإناثًا، تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والثالثة عشر عامًا. يلعبون الكرة في الباحة، وينامون على أفرشة الصالة الرياضيّة ويغزون البيوت بحثًا عن طعام.

وذات يوم قرّر بييترو واثنان من رفاقه أن يغامروا بالذهاب إلى متجرٍ على الطريق الدوليّ، حيث يبدو أنّ ما زال فيه كوكاكولا. المتجر عبارةٌ عن علبة أسمنتيّة في منتصف فسحةٍ خاوية وممهّدةٍ بالأسفلت.

أشار أحد الطفلين إلى شيء ما: - انظرا إلى هناك.

ثمّة سيّارة فيرّاري، وقد اصطدمت مقدّمتها بصفٍّ من حاويات القمامة وأحد أبوابها كان مخلوعًا.

- اذهبا، سأعود على الفور. - قال بييترو.

كان باتريزيو في السيّارة، جالسًا على مقعد القيادة، ما بين قوارير البيرة الفارغة، تنبعث منه رائحة براز نتنة. ذراعاه مكسوّتان بالبقع والكدمات، بطنه مترهّل كالكرة المثقوبة. وسمنة الذقن التي كانت منفوخة دومًا، باتت آنذاك هزيلة ومصفرّة تتدلّى على عنقه المتورّم. وعيناه القاتمتان كالكستناء كانتا تحدّقان إلى الزجاج الملطّخ بالقيء الناشف. وكان فمه المفتوح يصدر حشرجة كهفيّة.

فوجئ الطفلُ بأنّ باتريزيو لا يزال على قيد الحياة. تلمَّسَ كتفه: - باتريزيو. باتريزيو. هل تسمعني؟ أنا بييترو.

أغمض الشابّ جفنيه، لكنَّ شيئًا لم يتغيّر في وجهه الخالي من أيّ تعبير.

- كيف حالك أيّها المساعد؟

- بخير... - مضغ بييترو ريقه. - وأنت؟

عبر شيءٌ ما، لعلّه ابتسامة، على شفتيه المتيبّستين، والمعذَّبتين بالقشب والشقوق.

- هلّا أتيتَ بكيسين؟

.12

غادر الشقيقان من شيفالو منذ أربعة أيّام.

وقبل أن يرحلا، رفعا جثّة بييترو إلى الطريق بالحبال، ووضعاها في عربة التسوّق ودفعاها حتّى الشاطئ. حفرا حفرةً في الرمل، ودفناه وأغلقاها بقاربٍ مقلوب.

كانت آنّا بين الفينة والفينة تلتفت بحثًا عنه، لكنّها لا تجد خلفها سوى أستور الذي يجرجر قدميه ويتبعها، وكوكولوني الذي يتشمّم جانبي الطريق. فتمسك حينذاك بالطوق وتضمّه في كفّها بشدّة حتّى تكاد رؤوس النجمة تنغرس في لحمها.

كانت ذكرى بييترو تنفجر في صدرها، فتسري آلافٌ من الشظايا المؤلمة في عروقها وتمزّق أحشاءها.

أدركت آنذاك ما معنى الحبّ، ذلك الشيء الذي يُحكى عنه كثيرًا في كتب أمّها.

لا تعرف الحبّ إلّا عندما ينتزعونه من بين يديك.

الحبّ هو الفقدان.

منذ أن رحل بييترو، عاد العالم مثلما كان، مكانًا مخيفًا. وبات الصمت يصمّ أذنيها ويجتاحها بعد أن كان يسلوها. لقد مات بطريقة غبيّة جدًّا، ناهيك بالاحتضار الطويل الذي قاساه، لم تتمكّن آنّا من إيجاد معنىً لكلّ هذا.

كأنّ أحدًا يراقبها من أعلى ويكتب حكايتها ويبتكر أشكالًا من التعذيب تزداد قسوةً ودهاءً. يُدخِلها في اختبار ليقيس مدى

مقاومتها. وكان قد خطف منها أباها، ثمّ أمّها، وتركها وحيدةً برفقة طفلٍ يستوجب عناية دائمة. وقد تمتّع بأنّه عرّفها على بييترو، وجعل وجوده في حياتها ضروريًا ثمّ خطفه منها. الحقيقة هي أنّها كانت تتقدّم مثل فأر الهمستر ضمن مسارٍ إجباريّ. أمّا حريّة الاختيار ما بين الذهاب يمينًا أو شِمالًا فهي فكرةٌ واهمة.

تبادر إلى ذهنها ما قاله لها بييترو مرارًا: «هذا العالم ليس له وجود. إنّه كابوسٌ لا نستطيع الاستيقاظ منه».

* * *

بقي قرابة مئة كيلومتر للوصول إلى ميسّينا. ووفقًا لحساباتها، قد تستغرق الرحلة ثلاثة أو أربعة أيّام حدًّا أقصى. كان الأوتوستراد يتدحرج تحت قدميها رتيبًا، والمناظر على جانبيه متشابهة ومملّة وبطيئة، يتخلّلها صفٌّ طويلٌ من الأنفاق. لم يصادفا أيّ أحدٍ خلال الرحلة كلّها.

التفتت نحو أستور الذي كان يجرّ عصا مطأطئ الرأس. صار من الصعب التحدّث إليه، والكلمات تغدو أثقل من أن تُلفَظ.

– هل أنت بخير؟

نظر الصغير سارحًا نحو الساحل الأخضر الذي يقع في البحر خلال ضباب الصباح.

– عليك أن تجيب حين أكلّمك.

تأفّف أستور، وشبك ذراعيه وتجاوزها بخطىً ساخطة.

غدا انطوائيًا. وكلّما غضبت آنًا فرّ منها واختبأ في جُحرٍ ما.

كما لو أنّ الذنب ذنبي.

اقتربت منه وحطّت يدها على كتفه: – هل أنت جائع؟

هزّ الطفل رأسه نافيًا.

- أنا جائعة. - جلست على حافّة الطريق وأخرجت من الحقيبة علبتين من التونة، وعلبة طعام للكلاب وقنّينة ماء.

كان كوكولوني جالسًا برزانة، يهزّ ذيله. واللعاب يسيل من إحدى زوايا فمه. قلبت آنّا علبة اللحم على الأسفلت، فالتهمها الماريميُّ وهو يرتجف. فتحت التونة، سكبت زيتها، وشرعت تأكلها بالسكّين.

وما زال أستور ينهال بالعصا على المنصّف.

- هلّا كففتَ؟

شدَّ شعره على رقبته.

كانت آنّا قلقة عليه. إذ كان يمزّق شعره ويتحدّث بمفرده. كان يجري محادثات طويلة مع نفسه بلغةٍ لا يفهمها أحدٌ سواه، ملأى بصيغ التعجُّب والضحكات. لأنّه كان قد أصبح ثرثارًا واجتماعيًا مع بييترو، وتبدّدت السحالي ذات الشعر الطويل من ذهنه. إلّا أنّه آنذاك، بعد الحادث، عاد إلى عالمه المكوّن من أشياء صغيرة وحصى وحشرات وحيوانات ميّتة وعصيّ.

- بييترو كان مصابًا بالحمراء. كان سيموت بكلّ الأحوال. - رمت الفتاة العلبة في مجرى الصرف. - علينا أن نمضي قدمًا. فما زلنا نحن الاثنان على قيد الحياة، أنا وأنت.

أومأ الطفل برأسه ناكرًا: - نحن ثلاثة. - وأشار إلى الكلب.

أعطته آنّا العلبة الأخرى: - أواثقٌ من أنّك لا تريدها؟

- سأتناول القليل. - قال أستور.

كيف كان شقيقها سيتدبّر أمره عندما ترحل هي الأخرى؟ فالكتابة في الدفتر من أجله لا طائل منها، لن يقرأه أبدًا. إذا كان يرفض حتّى قراءة اللافتات الطرقيّة، فما بالك بالدفتر.

لم تكن متأكّدةً حتّى من قدرته على تأمين طعامه بمفرده.

* * *

هطل المطر في الظهيرة. كانت المياه تهبط باردةً من ستائر غيوم رماديّة لا يمكن صدُّها. وكان البحر الكبير، ذو لون السماء نفسه، يزيد على الصخور السوداء، هناك في أسفل الأوتوستراد الذي يتلوّى متّبعًا انحناءات الخطّ الساحليّ. خرجا من إحدى التحويلات مبلّلين بالمطر، ودخلا إلى بلدة محصّنة بهضبة تحت قناطر الأوتوستراد. وكان سفح الجبل قد تساقط على البيوت، واستباح الشوارع واقتلع الأشجار. وقد حفرت سيول الأمطار سريرها ما بين الأنقاض لتجري نحو الشاطئ إذ تتّحد في تيّارٍ يصبّ في البحر ليلوّثه بالتراب.

لا توجد أيُّ روحٍ حيّةٍ هناك أيضًا.

دخلا منزلًا أبيض، مطوّقًا بصبّار الأغاف الذي لا يزال منتصبًا. الحيطان متّسخة برواسب الدخان، وورق الجدران في غرف النوم متقشّر. تيّار الهواء البارد يكتسح المكان، إذ لا توجد حتّى نافذةٌ واحدة بقيت على حالها. أوقد الشقيقان الأثاثَ في المطبخ، ونشرا ثيابهما لتنشيفها، واضطجعا حول ألسنة اللهب ليستدفئا. لم يعد لديهما ما يؤكل، وكانا منهكين لدرجة أنّهما ناما سريعًا، بينما يُحَمِّرُ الجمرُ طيفَهما في الظلمات.

* * *

استأنفا المشي عند الفجر. انقطعت الأمطار، لكنّ الغيوم لا تزال هناك تتوعّد. وبعد أقلّ من عشرة كيلومترات وجدا قنطرةً مهدومة. لم يبق منها سوى دعامتين. تحتها مجرىً مائيٌّ أغدقه المطر. وثمّة شاحنةٌ مقلوبة تنتأ بعجلاتها المزدوجة من المياه الموحلة.

نزلا عبر حرشٍ كثيف وشائك ينمو عند أسفل التلّ. كان المجرى هائجًا بحيث يصعب عبوره، ما اضطرّ الأخوين إلى الاقتراب من المنحنى حيث ثمّة شجرة حور ضخمة وساقطة تشكّل ما يشبه الجسر. سارت آنّا على الجذع بحذر أوّلًا، ثمّ تبعها أستور وكوكولوني على أربع.

انتظرت الأمطارُ عودتهما إلى الأوتوستراد وهطلت من جديد. فلاذا في سيّارة فولفو مركونة في فسحة موقف، وكان مثلّث الطوارئ لا يزال بجانبها. تمدّد الكلب على المقعد الخلفيّ، وجلس أستور على مقعد القيادة. كانت المركبة تهتزّ من وقع المطر الذي يطرق سقفها ويسيل على زجاجها كالشلّال. فتّشت آنّا بين الحقائب بحثًا عمّا يؤكل، لكنّ الشيء الوحيد الذي وجدته مقترنًا بالطعام هو كتابٌ عن الطبخ بقِدر الضغط. رمته خارجًا. وعندما انتهى الطوفان كان الظلام متقدّمًا بحيث لا يستحسن السير فيه. فناما هناك، متقوقعين على المقاعد.

استيقظت آنّا في أثناء الليل. كانت تريد أن تتبوّل. خرجت فرأت ضوءًا يلمع في البعيد. لعلّها نار. عادت إلى السيّارة فكان أستور صاحيًا.

– أنا جائع. – قال الطفل لها.

- لا تفكّر في الأمر، سنبحث عن شيء ما غدًا. نم.
- لم لا نعود إلى البيت؟
شبكت آنّا ذراعيها: - علينا أن نذهب إلى القارّة.
- كنت أحبّ البقاء في البيت.
- وأنا أيضًا. لكنّك سترى أنّه من الأفضل الذهاب إلى الطرف الآخر.
- وكيف تعرفين ذلك؟
- أعرف وكفى. نم الآن.

* * *

فتحت الشمس منفذًا بين الغيوم البنفسجيّة لكنّ الريح تهبّ باردةً على الثياب الرطبة.

بدأت الشكوك تخامر آنّا حول عبور المضيق. لم يكن لديها أيّ فكرة عن مدى اتّساعه. أهو كالنهر؟ أهو كالبحر؟ وكيف نجتازه؟ على متن قارب؟

وصلا إلى تحويلة باتي. هضابٌ منخفضة وقاحلة تنهض في الجهة اليمنى، بينما يُلمَحُ البحرُ في اليسرى ما وراء خطٍّ من أرضٍ خضراء مكتظّة بالأسطح. اجتازا أطلال كشك متفحّم وفوجٍ من السيّارات المهجورة وسط الطريق وسلكا الشارع المؤدّي إلى المدينة.

وبعد قرابة المئة متر توقّفت آنّا واستدارت.
ثمّة ضجيجٌ خفيض، يشبه الدويّ، تتصاعد قوّته.
- هل تسمع؟ - سألت أستور.
أومأ الصغير ونظر إلى قدميه.

كان الأسفلت يرتجّ كأنّه الزلزال. حلّق سربٌ من الغدفان من فوق شجرة أرز.

نبح كوكولوني، وقد زمّ شفتيه وشنّف أذنيه.

انبثق قطيعٌ من الأبقار من أحد المنعطفات ليملأ الطريق بنهرٍ حيٍّ يتقدّم مسرعًا نحو الثلاثة.

سحبت آنّا أخاها إلى وراء المنصّف.

انزلق قطار الوبر والقرون بجانبهما مضغوطًا على نفسه ما بين العوارض الحديديّة. دام المشهد دقيقةً تقريبًا، ثمّ ظهر عشرات الصغار المسلّحين بالعصيّ من سحابة الغبار، يركضون خلف الحيوانات يتصايحون ويصفّرون.

حدّق أستور إلى أخته فاغر الفم مذهولًا، ثمّ قفز وعاد إلى الطريق لينضمّ إلى الجماعة الصارخة متبوعًا بالكلب.

- أين تذهب أيّها المعتوه؟ - قالت آنّا وركضت خلفه.

عبر القطيعُ الطريقَ الدوليّ بطوله ودخل إلى موقفٍ حيث كان في انتظاره مئة طفل أيضًا، وجّهوا القطيع بصياحهم نحو مركزٍ تجاريّ، الملك أرتو، ذلك المبنى الأحمر الهائل الشبيه بقلعة، متعدّد الشرفات، وله أربعة أبراج مخروطيّة على زواياه.

كانت الأبقار تعدو مذعورةً ما بين جناحي الحشد الذي يطاردها بالعصيّ. اجتازت حاجز الأبواب المفتوحة دون أن تتوقّف، ودلفت إلى رواقٍ مظلمٍ يفضي إلى قلب المتجر الكبير. حطّمت البهائم أكواخ الفاست ويب، والسكاي، والمكنسة السحريّة سوبر موب، على وقْع حوافرها وخوارها. وكانت الأبقار الجانبيّة تنتهي داخل محلّات الألبسة، وتتدحرج إلى الخزن الفارغة، وتهشّم الواجهات

الزجاجيّة لمطاعم الوجبات السريعة، وتقتحم مطعم البوسفور للشاورما، وتقلب المصاطب والشوّايات والطاولات. وتتعثّر أبقارٌ أخرى فتنزلق فتدوسها الأخريات. وخلفها ثمّة أذرعٌ هزيلة ترفع المشاعل لترسم بقع الضوء على لافتات البرغر الكبير والمحلات الأخرى. وجد القطيع نفسه فزعًا ومتخبّطًا وجريحًا في نهاية الرواق عند شرفةٍ دائريّة رحبة، سياجها مفقود من الأمام، وعلى الجانبين متراسان متوقّدان يغلقان أيَّ منفذ للهرب.

ألقت الأبقار بنفسها في الفراغ، واحدة تلو الأخرى، تمامًا مثلما كان يفعل الماموث حين يدفعه الإنسان البدائيّ من فوق المنحدرات. إلّا أنّها بعد قفزةٍ من علوّ خمسة عشر مترًا، لا تنتهي ما بين الأحراش المتجمّدة في العصر الجليديّ، إنّما فوق طاولات مطعم الزورق، فتنفجر كالقنابل الحيّة على الحوض الزجاجيّ الكبير الذي كان في الماضي يحتوي على زوجٍ من أسماك القرش، ومجسّم القارب الذي يُستَخدم لعرض السمك الطازج.

وصلت آنّا إلى نهاية الرواق تكاد تختنق من الأدخنة والغبار. أطلّت برأسها لاهثة.

كان يُحتضر تحتها جبلٌ من الأبقار ذات الأضلاع المقطّعة والرؤوس المكسورة. كثيرٌ منها نَفَقَ على إثر السقطة، وأخرى تتلوّى على رفيقاتها. تصاعدت من تلك الكومة روائحُ برازٍ ودماء ووقود. ثمّة جيشٌ من الأطفال المتدثّرين بخرقٍ مقرفة يهبّون من الشرفات والسلالم المتحرّكة. لوّن بعضهم وجهه بخطوط سوداء، وكان لجميعهم شعرٌ طويل مرسل إلى وسط الظهر ذكورًا إناثًا.

معطوبون، عميّ، مشوَّهون بالندوب. يصرخون، يلطمون صدورهم، يقعقعون بأقدامهم، أقوى فأقوى، حتّى طغت ضوضاؤهم على صياح البهائم. وعندما هيمن على الصالة صخبٌ موحّد، راح الأطفال الذين في الأسفل يتسلّقون جبل اللحم ويضربون الحيوانات التي لا تزال حيّة بالعصيّ بتحريضٍ من المتفرّجين.

جميعهم صغار...

انتفض قلب آنّا في صدرها.

أستور!

كانت الوجوه التي لا يمكن تمييزها تبرز وتمتزج ما بينها تحت الدخان الذي اكتسح الرواق. وآنّا تبحث عن أخيها وتفتح طريقًا لنفسها ما بين الأجساد، وتصعد على المصاطب الرخاميّة. لكنّهم في الظلام كانوا متشابهين جميعًا.

دارت حول أعمدة المصعد وفتحت لنفسها منفذًا وهي تهرول.

كان أستور يطلّ بجذعه نحو الأسفل ويدلّك فمه.

انتشلته من ذراعه: – عليك أن تبقى معي. أفهمت؟ كفَّ عن الهرب. – وشدَّته بقوّة.

كان أستور يرتعش من هول الحماسة: – هل رأيتِ ماذا فعلوا؟ رموا الأبقار إلى الأسفل.

– لم تفهم ما أقول إذن...

انفجر نباح كوكولوني في الرواق. كان الكلب محاصرًا أمام الواجهة الزجاجيّة لمحلّ الهواتف المحمولة، وبره منتصب، يُبرِز أنيابه. وثمّة نفرٌ من الأولاد يوجّهون إليه عصيّهم المدبّبة.

ركضت آنّا إليه: - إنّه طيّب. لا تؤذوه! - أشارت لهم بالهدوء، لكنّ أحدهم وكان أوقح من رفاقه حاول أن يضرب الحيوان، فانقضّ عليه الأخيرُ ورماه أرضًا ونشب أنيابه في ذراعه.

أمسكته آنّا من رقبته وجرّته إلى الخلف.

كان الأولاد حولهم يصيحون مذعورين ومتهيّجين، ويكشّرون بأسنانهم كقردة المكاك، ويهدّدونهم بالرماح، بينما كان الطفل المسكين ينهض ممسكًا مرفقه.

- أستور!، أستور، أين أنت؟ - صاحت آنّا وهي متشبّثة بالكلب.

خرج أستور من كوخ الكلاب ووصل إليها.

- ضعه في الكوخ، بسرعة.

دفع مؤخّرةَ كوكولوني وعانقه.

- داعبه. فهؤلاء سيقتلوننا. - رفعت آنّا يديها. - انظروا، إنّه ليس شرّيرًا.

انفتح الجمع لإفساح المجال لفتاة شقراء هزيلة جدًا، حدّقت إلى الثلاثة الذين أمامها ومدّت ذراعيها كأنّها واعظة. سكت الآخرون وتراجعوا خطوة إلى الخلف. كان معظم وجهها محجوبًا بنظّارة شمسيّة ذات إطار أخضر اللون. تنتعل جزمة بالية تصعد منها ساقاها الهزيلتان، وترتدي تنوّرة إسكتلنديّة وفروة قذرة.

افتعلت آنّا ابتسامة وداعبت رأس كوكولوني: - إنّه طيّب.

- طيّب؟ - قالت تلك الطفلة على غير اقتناع، وأشارت إلى الطفل جريح الذراع. - شرّير.

- لا، لا. طيّب. إنّه كلبٌ طيّب.

اقتربت الشقراء من الكلب. وكان الصيّادون حولها متأهّبين لزرع رماحهم في الحيوان. مدّت يدها بلا تردُّد نحو رأس الماريميّ.

أغمضت آنّا عينيها، موقنةً أنّه سيمزّق تلك اليد بعضّةٍ واحدة، إلّا أنّه نظر إليها بحدقتيه الكبيرتين اللامعتين، مدّ عنقه وشمَّها.

تراجعت الطفلة خطوة، حملت أصابعها إلى أنفها ونظرت حولها مسرورةً.

– طيّب. – قالت للآخرين الذين كانوا ينظرون إليها بأنفاسٍ محبوسة.

انفجر جميعهم بضحكةٍ رنّانة. ما عدا الطفل الذي تلقّى العضّة، كان يقهقه على غير اقتناع.

أدركت آنّا أنّ أولئك الأطفال أصغر من أن يتذكّروا أنّ الكلاب، في الماضي، كانت حيواناتٍ أليفة. أو ربّما نسوا.

شعرت أنّها متقدّمة في السنّ.

* * *

نظّم شعب الصيّادين في باتي مأدبة شواء في موقفٍ للسيّارات. كان هناك مَن يجرّ الذبائح إلى الخارج، ومَن يقطّع اللحم، ومَن يغذّي النيران بإحراق ملابس وأثاث ومنصّات خشبيّة.

سحبت الريح الخفيفة إلى تلك الفسحة أكياسًا بلاستيكية وأوراقًا وكرتونًا، بينما كانت الشمس كالبرتقالة البيضويّة تتوارى خلف الهضاب القاحلة.

جذبت أعمدة الدخان أطفالًا آخرين وصلوا إلى المركز التجاريّ فرادى أو جماعة. وإذ خيّم الظلام، تكاثرت في الفسحة

أطيافٌ سوداء يصطفّون بجانب المواقد بانتظار حصولهم على قطعة لحم.

حتّى أستور وآنّا كانا في الطابور. فقد مرّ يومان ولم يأكلا شيئًا، وإنّ لرائحة الشواء نشوة، بل وكوكولوني أيضًا كان يقرقع بأرجله. ربطاه بحبل وأبقياه حبيس القيد. حاول في البداية أن يتخلّص منه، مستندًا إلى رجليه الخلفيّتين يهزّ رأسه، ثمّ اعتاد على ذلك.

بفضل الكلب صار أستور وآنّا محطّ اهتمام الساهرين، فكان الجميع ينظرون إليهما، بحفظ مسافة أمان، ويعلّقون بأصواتٍ ناشزة على ضخامة ذلك الوحش الذي يقعي طيّعًا بجانب صاحبيه. وكان أستور ينظر حوله منتفخ الصدر يتصنّع الشرود. أمّا آنّا فكانت على وشك أن تضحك. هي المرّة الأولى التي تشهد فيها على شقيقها وهو يتباهى بنفسه.

وعندما حان دورهما أخيرًا حصلا على ثلاث قطع كبيرة، محمّصة يسيل منها الدهن، لكنّها لا تزال نيّئة من الداخل.

جلسا على الحافّة الأسمنتيّة يلتهمان طعامهما في صمت.

- هل تعجبك؟ - سألت آنّا أخاها.

تمتم أستور بفمه الممتلئ لحمًا، ولفظ كلمات غير مفهومة رافعًا عينيه إلى السماء.

بحثت الفتاة عن النجمة البحريّة تحت كنزتها. أخرجتها ودوّرتها بين أصابعها. كان بإمكانها الاستغناء عن بييترو خلال مواجهة الأمور السيّئة، تتدبّر نفسها بمفردها، لكنّها حينذاك إذ كانت تعيش لحظات ممتعة ورائقة، تتذوّق شريحة لحم، يصبح

غيابه أشدّ إيلامًا؛ تذكّرت كيف رموا الأخطبوط النافق وارتسمت على وجهها ابتسامة.

نكزها أستور بمرفقه: - أريد المزيد.

- فلنذهب لنرى... - وفي أثناء نهوضها انزرعت أمامها الطفلةُ الشقراء ذات النظارة الخضراء. تحمل في يدها مشعلًا وفي الأخرى فخذًا كبيرًا مشويًا مدّته نحوهما. - شكرًا. - قالت آنّا، لكنّ الطفلة رمته للكلب الذي اقتنصه وهو يطير وثبّته برجليه الأماميّتين وراح ينهشه.

أشارت الهزيلةُ إليه: - طيّب.

- طيّب. - لم تفهم آنّا إن كانت تقصد الكلبَ أم اللحم.

حدّدت الشقراءُ الكلبَ: - لي؟

قطّبت آنّا حاجبيها: - ما هو؟

- لي.

ضربت آنّا على صدرها وزمّت شفتيها: - كلّا، إنّه لي.

نظرت الطفلة إلى كوكولوني:

- كلب طيّب.

- طيّب.

- كلب لي.

- كلّا، إنّه لي. - أشّرت آنّا إلى نفسها.

همس أستور في أذن شقيقته مرتابًا: - هذه تريد كوكولوني.

- ابتسم.

أفرج الطفل عن ابتسامةٍ مفرطة بأسنانه المشوّهة: - كلب لنا.

نزعت الشقراء نظّارتها. كانت لها عينٌ زجاجيّة تنظر إلى اتّجاهٍ آخر.

- كلب لنا؟ - ابتعدت وهي تحكّ رقبتها وتردّد: - كلب لنا؟ كلب لي؟

جرّت آنّا كلبها من قيده: - هيّا فلنتحرّك. - قالت لأستور.

- أين نذهب؟

- بعيدًا، قبل أن تحسم تلك أمرها.

نظر أستور حوله: - وماذا عن اللحمة؟

- دع عنك هذا. فلنهرب. بسرعة. لا، بل ببطء. بهدوء. كما لو أنّ شيئًا لم يكن.

مشى الاثنان بضع خطوات، وحالما تغمّدهما الظلام لاذا بالفرار.

* * *

استغرقا يومين من باتي إلى ميسّينا، سيرًا منذ الفجر وحتّى الغروب. أمضيا الليلة الأولى في بناية بجانب الأوتوستراد. في الطابق الأرضيّ مكتبُ توظيف، لكنّهما وجدا مكعّبات مرقة الدجاج، وقد طاولها العفن، في أدراج مطبخ إحدى شقق الطابق الأوّل، وذوّباها في الماء. انتزعا الستائر عن النوافذ والتحفاها.

هبّت رياحٌ باردة في آخر يومٍ من الرحلة، وكانت السماء زرقاء والأجواء نقيّة بحيث يبدو كلّ شيءٍ أقرب.

وكان الأوتوستراد يمضي فوق جسورٍ تقطع الهضاب المشجرة ويهبط في أنفاقٍ مظلمة.

وحينما اقتربا من تخوم المدينة، وجدا كلّ مسارات الطريق

مكتظّةً بسيولٍ لا تنتهي من سيّاراتٍ لا تزال ممتلئة بالحقائب. عثرا على كنزات ثقيلة ونظيفة وسترات مضادّة للريح في سيّارة رياضيّة.

وأخيرًا، عند ذروة صعدة طويلة، انفتح أمامهما المنظر الذي كانا ينتظرانه منذ أشهر: المضيق.

بدأ الشقيقان يقفزان فرحًا ويدوران حول نفسيهما ممسكًا كلٌّ منهما يدي الآخر: - لقد نجحنا! - تسلّقا على سطح إحدى الشاحنات لرؤيةٍ أفضل.

كانت الجزيرة تنتهي عند خطٍّ من أبنية تشرف على مرفأ كبير وجانب من البحر الأزرق الذي تنهض ما وراءه سلسلةٌ من جبال داكنة اللون. القارّة. كانت الضفّتان متقاربتين بحيث بدا المضيق مجرّد نهر يقسم بينهما.

وكم تخيّلته آنّا شاسعًا، يستحيل عبوره، لكنّها آنذاك وقد رأته فكّرت أنّ باستطاعتها اجتيازه سباحةً.

قطعا بقيّةَ الطريق ركضًا، لا يتوقّفان إلّا لالتقاط الأنفاس. خرجا من تحويلة وتابعا المسير في طرقات الضاحية التي تدرّجت في إبراز ما فيها من مبانٍ ودكاكين ومحطّات وقود وإشاراتٍ مروريّة.

كانت ميسّينا مسدودةً بالسيّارات التي لا توفّر حتّى الأزقّة، ورغم هذا، وكلّما اقتربا من البحر، لم يراودهما ذلك الإحساس بالموت والكآبة الذي طغى عليهما في باليرمو. كانت الطبيعة تستردّ المدينة؛ إذ إنّ الشجيرات تنبت من بين شقوق الأسفلت، في كلّ مكان، ناهيك بآجام توت العليق الشائكة. الطرقات والأرصفة

مفروشةٌ بالتربة والأوراق، والأعشاب والقمح ترسّخ جذورها. وكانت النباتات المتسلّقة اليانعة تصعد واجهات الأبنية. ثمّ إنّ المكان مملوء بالحيوانات. قطعانٌ من الأغنام تجترّ الحشائش بجانب الصروح، ومعزٌ ملتحية تتسلّق حاويات القمامة، وأسرابٌ من الطيور تخرج من النوافذ، وخيولٌ وبغالٌ تعدو بين السيّارات. ما عدا الميناء، المسيّج بلفائف الأسلاك الشائكة، والمطوّق بمعدّات الجيش، يذكّر بالعنف خلال أيّام الحجر الصحّيّ. لكنّ الريح تحمل روائح البحر المالحة، وتتزيّن ذرى الأمواج بالزبد ما وراء أرصفة المرفأ.

كان الوقت متأخّرًا، قرّرا الانتظار إلى اليوم التالي لمواجهة العبور. بحثا عن شيء يؤكل في المحلّات والمتاجر، فلم يجدا. غلبهما التعب فدلفا إلى قصرٍ أرستقراطيّ، مدخله من رخام، له كشك حراسة ومصعد من قفصٍ حديديّ. وجدا بابًا مفتوحًا في الطابق الأخير. منقوشٌ على الجرس النحاسي: «عائلة جنتيلي».

كانت الردهة ملأى باللوحات والأطر والأثاث الخشبيّ الداكن والأرائك المطرّزة برسوم الأزهار. النوافذ تطلّ على الكورنيش البحريّ. وفي غرفة النوم هيكلان عظميّان، وفي الصالة تشكّل الخفافيش عناقيد سوداء وغشائيّة تتدلّى من الستائر والثريا الزجاجيّة. لم يعد يوجد أيُّ شيء في خزن المطبخ، لكنّ الشقيقين وجدا في الخوان قوارير شويبس وفول سودانيّ وفستق وفطيرة يابسة تقاسماها مع الكلب.

تمدّدوا على أرائك الصالة قبالة هيكل تلفاز.

وما لبث أستور أن غطّ نائمًا، فيما كانت آنّا تغفو وتصحو باستمرار، جفلةً من أحلام متشابكة وباهتة ومقلقة. وكانت مستلقية على الوسائد المخمليّة، تتنفّس بفمٍ مفتوح وتصغي إلى صوت الأمواج بارتطامها على الكاسر.

لم تكن تعرف شيئًا عن كالابريا. تساءلت عمّا ستجده هناك. وعن إن كان الكبار قد نجوا حقًا. تصوّرت أنّهم لن يسمحوا لهما بالرسو.

اذهبا بعيدًا! لا نريدكما هنا! أنتما مصابان بالعدوى.

عاودها الحنين إلى ذكريات بيتها، والغابة، وتورّي نورمانّا. فعادت بذهنها إلى تلك الأعوام الأربعة التي عاشتها في عزلة، وأعياد الميلاد المصطنعة، والطرقات التي سارت فيها، والإجهاد من آلاف القرارات التي اتّخذتها بمفردها.

بكلّ الأحوال، كانت الأمور ستتغيّر سواء نحو الأفضل أم نحو الأسوأ، اعتبارًا من اليوم التالي.

الهواء مفقودٌ في الغرفة. فتحت نافذة، وخرجت إلى الشرفة وسمحت للريح أن تلهو بشعرها. انتابتها القشعريرة وهي تطلّ من السياج في ليلة ظلماء لا نجوم فيها. كانت كالابريا مطفأة.

لا تعلّقي آمالًا كثيرة.

ثمّ لمحت في الأفق البعيد ضوءًا أحمر يومض بانتظام. كما لو أنّ أحدهم سمع أفكارها.

إشارة.

ظلّت تحدّق إليها وهي تفرك ذراعيها. مَن يستطيع فعل شيء كهذا؟

الكبار حصرًا.

عادت إلى الداخل وجلست على حافّة الأريكة، بجانب أخيها. كان نائمًا ووجهه مهروسٌ بالمسند، فانطبعت خيوط المخمل على خدّه. نادته بصوت منخفض: - أستور... أستور...

فرك الطفل عينًا: - ماذا؟

رفعت آنّا كتفيها: - أودّك.

تثاءب الصغير ومرّر لسانه على شفتيه.

- هل كنت تحلم؟

- أجل.

- بم؟

فكّر أستور قليلًا ثمّ قال: - بساندويش الهوت دوغ.

سحبت آنّا أنفاسها: - ولكن، هل أنت تودّني؟

أومأ الطفل بنعم وحكّ أنفه.

- أفسِح لي مجالًا إذن.

وما إن اضطجعت بجانب أخيها حتّى تمكّنت من النوم أخيرًا.

.13

كان نهارًا مثاليًا.

الريح همدت، والسماء انجلت، والبحر هدأ، والقارّة هناك.

استكشفا المرفأ لكنّهما لم يعثرا بين الأرصفة على أيّ قارب عبور. وعند منفذ الورشة البحريّة، بقرب كاسر الأمواج، برزت من سطح الماء قطعٌ صدئة لسفنٍ غارقة، ومراوح ومداخن. استوطنتها النوارس وملأتها بالذرق.

سارا على الكورنيش المشطور بمنصّف. في الجهة اليسرى ثمّة صفٌّ لا ينقطع من أبنية عصريّة تطلّ على سيقان النخيل وأعمدة الإنارة، وعلى لسانٍ من الحصى يقرضه البحرُ. لا قوارب هناك أيضًا. ما الذي فعلوه بها؟ هل استخدموها جميعًا للهرب من الجزيرة؟

ولئن بدت القارّة قريبةً في اليوم السابق، فلقد أصبحت حينئذ عصيّة المنال، وغدت تلك المدينة الممتدّة خلف البحر مثل شريطةٍ متلألئة تحت الجبال محض سراب.

جلست آنّا على أحد المقاعد مهمومةً.

عبور المضيق بالسباحة أمرٌ مستحيل. وحتّى لو عثرت على زورق، فكلاهما لا يجيد التجديف. واصلت الجولة مع أستور الذي كان يتحدّث إلى نفسه، وكوكولوني الذي يتبوّل على أعمدة الضوء ليحدّد منطقته.

وصلا إلى صفٌّ من الأبنية المنخفضة، بعد سلسلة من محطّات الوقود. «حانة البخّار». «مطعم زيز البحر». «مقصف شيلّا». وخلف الزجاج الغبش بفعل الملوحة، لمحا طاولات مغبرة، كراسٍ مكوّمة، وأحواض سمك فارغة.

اندسّ أستور في زقاقٍ رمليٍّ ضيّقٍ بين محلّين فلحقت به آنّا. خلف الأكواخ، وعند نتوءٍ جبليٍّ صغير، هناك صالة ملاهٍ يسودها الصدأ، متوارية بين أشجار الكينا. ثمّة حلقةٌ دوّامة بمقاعد معلّقة. سيّارات مصادمة. جناحٌ مملوء بهياكل ألعاب الفيديو.

كانا قد صادفا منتزهاتٍ من هذا النوع في أثناء الرحلة، وكان أستور يركب تلك السيّارات في كلّ مرّة ويعاند لكي يشغّل محرّكها، ثمّ يطلب من آنّا أن تروي له كيف كانت الألعاب بالأضواء الملوّنة والموسيقى والأطفال، إلّا أنّه قطع ذلك المنتزه دون أن يلتفت إلى شيء.

كان الحرش ينتهي عند موقفٍ مهجور ومحدّدٍ بنسقٍ من الحاويات المتفحّمة. تشرف تلك الفسحة الطويلة على شاطئ حصويّ، تسوده القمامة والمجاديف التي ابيضّت بفعل الملح.

- فلنذهب... لا يوجد شيءٌ هنا. - صاحت آنّا.

قفز الصغير خلف السور الذي يسيّج الموقف واختفى عن مرآها.

- أستور، أنا سأغادر... - تأفّفت.

لكنّ أستور صاح: - آنّا! آنّا! تعالي إلى هنا. بسرعة.

* * *

لم يكن قاربًا عاديًا، إنّما قاربٌ بدوّاسات، واسمه تونينو الثاني،

أبيض وأحمر، مزوّدٌ بدفّة ومقاعد بلاستيكيّة، وفي منتصفه مزلجٌ وسلّمٌ صغير يفضي إلى المؤخّرة. وقد عثر عليه أستور تحت خيمة بلاستيكيّة.

كان متكاملًا. لا داعي للتجديف، لأنّه يسير بالدوس، وكانت آنّا تجيد الدوس، وبإمكان شقيقها أن يساعدها أيضًا.

حظٌّ طيّبٌ وأخيرًا.

ينبغي دفعه إلى الماء، وهذا ليس بالأمر العسير، يكفي أن توضع المجاديف تحته لينزلق عليها.

طبعت آنّا قبلةً على جبين أستور فمسحها مشمئزًّا وهو يرنو إلى البحر.

- كم ستستغرق الرحلة؟

- كثيرًا.

* * *

ما الذي كانا في حاجةٍ إليه للعبور؟

منفاخ تعويم لأستور. لا، من الأفضل أن تؤمّن أطواق نجاة، بل سترات نجاة، هذا أفضل بكثير. ماء. طعام. قد يشعران بالبرد. ثيابٌ ثقيلة إذن. ملابس احتياطيّة. والسترات المطريّة الصفراء. أشياء كثيرة في المحصّلة.

كانت مغاليق المحلّات في الكورنيش مخفضةً جميعًا، والمحلّات المخلوعة الأبواب كانت خاوية. وجدا مناشف وأطواق نجاة برتقاليّة في إحدى الكبائن الصيفيّة. وحطّما نافذة مطعم زيز البحر وفتّشا في المخزن فعثرا على ثلاث علب من صلصة الفواكه البحريّة وقنّينتين من نبيذ شاردوني. لم يجدا الأقمشة

المشـمّعة، لكنّهمـا فرّغـا صنـدوق إحـدى السـيّارات ممّـا فيـه مـن كنـزات وبنطلونـات واسـتوليا علـى السـترات المطريّـة البلاسـتيّكية الشـفّافة مـن إحـدى الشـاحنات.

انتهيـا مـن مرحلـة التجهيـز ولمّـا تعتلِ الشـمس السـماء، ورتّبـا الحقائـب فـي مقدّمـة القـارب.

كان دفـع القـارب الـدوّاس إلـى الشـطّ أعقـد مـن المتوقّـع، لأنّـه ثقيـل ولا تصلـح المجاديـف لانزلاقـه علـى الحصـى الثخينـة. ولـم يغمـرا المقدّمـة فـي الميـاه إلّا وأضناهمـا التعـب.

البحـر هـادئٌ نسبيًّا، سوى أنّ الريـح تبصـق فـي وجهيهمـا رشـقاتٍ مـن المـاء البارد.

ارتديـا كنـزات ثقيلـة وبنطلونيـن لـكلٍّ منهمـا، ثـمّ السـترات المطريّـة. كانـا يبـدوان دميتيـن ملفوفتيـن بالسـلوفان.

مستعدّة؟

أجل.

كان أستور جالسًا في مكانه يغمغم مقلّدًا صوت المحرّك.

– ودِّع صقلّية. – قالت له آنّا.

أغلق الطفل يده الصغيرة: – وداعًا.

ليس لديه حنينٌ يعذّبه شوقًا، وهذا أمرٌ جيّد.

وكان الكلـب يقعـي فـي آخـر الشـاطئ ويحـدّق إليهمـا منتصـب الأذن السـليمة.

– تعال يا كوكولوني، هيّا.

لم يتحرّك.

– اجلبه يا أستور.



تأفّف الصغير وركض نحو الكلب: - تعال يا كوكولوني. - تنحّى الكلب جانبًا ما إن اقترب منه. - تعال إلى هنا. - حاول أستور ثانيةً بلا جدوى. - قف! قف! - التفت إلى أخته ويداه على خصره. - لا يريد أن يأتي.

حاولا إمساكه بطرق شتى، لكنّ الكلب ما انفكّ يدور حولهما وذنبه بين ساقيه، متأهّبًا للانقضاض عليهما حالما يدنوان منه.

- ماذا نفعل؟ - سأل أستور لاهث الأنفاس.

رفعت آنّا كتفيها: - لا أدري.

تدبّرت أمر كلّ شيء ما عدا كوكولوني. كانت تظنّ أنّه سيصعد القارب، فهو مثل قطعة أرض صغيرة. - لديّ فكرة. - أخرجت من حقيبتها علبة الصلصة وفتحتها وأرتها للكلب. - ممم... - غطّست إصبعها في الصلصة البرتقاليّة. - هل تريد أن تتذوّقها؟ - اشمأزّت آنّا من مذاقها المقرف حقًّا.

تقدّم الكلب بضع خطوات حذرة نحو الطعام، فحبست آنّا أنفاسها، وتقدّمت خطوة نحوه: - تذوّقه، إنّه لذيذٌ جدًّا. - سكبت الصلصة على حجرة وتنحّت. دنا الماريميُّ متوجّسًا، يتشمَّم الهواء، أخرج لسانه ولعق.

قفز الاثنان عليه، قفزةَ رجلٍ واحد، واحتجزاه وربطت آنّا حبلًا بعنقه: - أمسكتُك.

وشرعا يجرّانه نحو الشطّ، لكنّ الكلب يعاند، وما انفكّ يهز رأسه وينوح، إلى أن تخلّص من القيد وهرب نحو الموقف.

- لن يركب أبدًا. - رمت آنّا الحبل أرضًا ونظرت إلى السماء.
- هذا يكفي. لقد تأخّر الوقت. سنتركه هنا.

جحظت عينا أستور متعجّبًا: - ألن نصحبه معنا؟

- لا.

- لم لا نعطيه المنوّمات؟

- لا يوجد وقت، علينا أن نذهب، وإلّا حلَّ الظلام.

- هل سنتركه هنا؟

- أجل.

سقط الولد على ركبتيه: - كلّا.

اقتربت منه وحنت على رأسه: - اسمعني، لن يصعد هذا القارب أبدًا. وحتّى لو تمكّنا من جرّه، فسوف يلقي بنفسه في الماء ما إن تسنح له الفرصة. وإن رمى نفسه في عرض البحر مات لا محالة. - انتبهت آنّا أنّ الفيوم تبتلع الشمس. - علينا أن نذهب.

غرس أستور أصابعه بين الحصى: - أرجوكِ... لا تتركيه.

قرفصت بجانبه: - لقد رافقنا كوكولوني حتّى هنا. لم يجبره أحد، بل قرّر اللحاق بنا بنفسه. وقرّر الآن ألّا يأتي. فإن أراد البقاء هنا، لن نستطيع فعل شيء حيال ذلك. إنّه حرّ. - ابتسمت. - إنّه كلبٌ صقليٌّ، سيتدبّر أمره.

شهق أستور بأنفه: - هو ليس كلبًا صقليًا. هو كلبنا.

مدّت يدها إليه: - هيّا بنا.

أطرق الطفل رأسه وغمغم: - لن آتي.

- أرجوك...

ضرب الأرض بكفّ يده: - سأبقى مع كوكولوني.

- لا تَفُهْ بالترَّهات. - حاولت أن تمسك يده.

تكثَّفَ أستور: - كلّا.

نظرت إليه بصمت، ثمّ قالت بهدوء: - تعال.

بـرم الصغيـر خصلـة مـن شـعره حـول إصبعـه وشـدَّها: - كلّا. كلّا. وكلّا.

عضّت آنّا شفتيها وشدَّت قبضتيها.

لمـاذا تتّخـذ الأمـور مسـلكًا صعبًـا علـى الـدوام؟ لقـد عثـرا علـى القـارب الـدوّاس، وأطـواق النجـاة، والملابـس، لكـنّ ذلـك الكلـب الأحمـق يخـاف مـن المـاء، وهـا هـو شـقيقها آنـذاك ينضـمّ إلـى قائمـة المصاعـب.

- يجب أن تأتي. - غمغمت بعينين مغمضتين.

طأطأ أستور رأسه: - كلّا. لن آتي. لن آتي. لن آتي.

اعتـرى الغضـبُ الفتـاةَ وشـنَّجَ عضـلاتِ ذراعيهـا عنـد سـماعها «لن آتـي» للمـرّة الثالثـة. أجـرت محاولـة أخيـرة يائسـة لاحتـواء انفعالهـا فهمسـت: - أسـتور، افعـل مـا أقولـه لـك. اذهـب إلـى القـارب. فهـذا أفضـل. - سـمعت رفضًـا جديـدًا. - كفـى! كفـى! - أمسـكته مـن شـعره وجرَّتـه بثقلـه كامـلًا نحـو القـارب وهـو يصيـح ويرفُـس ويتلـوّى ويحـاول التشـبّث بالحصـى. - اركـب هـذا القـارب اللعيـن. - أمسـكت أطـراف بنطلونـه ودفعتـه علـى المقعـد فارتطـم جبينـه بالمقبـض. كان أسـتور يولـول بعينيـن منتفختيـن ومحتقنتيـن باللـون الأحمـر، ووجهـه واجـمٌ والمخـاط يسـيل مـن أنفـه. لـم تكـن آنّـا تصغـي إلـى أنينـه ولـم تشـعر برأفـةٍ أو ندامـة. لـم تكـن لتسـمح لأيّ أحـدٍ أو أيّ شـيءٍ بإيقافهـا، فمـا بالـك بكلـبٍ جبـان.

لم تنظر إلى الخلف. دفعت القاربَ مستندةً بركبتيها إلى الحصى ثمّ قفزت وركبت. امتطت أستور كما لو كان كيسًا وجلست في مكانها وباشرت الدوس.

وضاع نواح كوكولوني في مهبّ الريح.

* * *

آنّا تدوس وأستور يبكي. والقارب يتقدّم ببطء نحو عرض البحر من خلال متاهةٍ من العوّامات.

وبعد محاولات عدّة أدركت أنّها إذا ميّلت الدفّةَ نحو الشّمال، اتّجه القارب نحو اليمين والعكس صحيح.

أخرجت قنّينة النبيذ من حقيبتها، فتحتها واجترعت منها.

كفَّ أستور عن البكاء، لكنّه ما زال يجهش ويشهق بأنفه.

سيتجاوزها.

ما إن يصل إلى القارّة سينسى كوكولوني. كلُّ شيءٍ يُنسى. كلُّ شيءٍ يمرّ. أمّها. أرض التوت. بييترو. والآن ليس هناك إلّاهما.

وإن لم يتجاوزها فمَن يبالي.

كان التيّار يجذب القارب نحو عرض البحر. ولم تتمكّن آنّا من حساب كم من الوقت سيستغرق وصولهما إلى الضفّة الأخرى. ارتشفت مرّة أخرى وركّزت انتباهها على الدوّاسات.

– آنّا! آنّا! – تمسّك أخوها بكتفها بشدّة وأخذ يقفز. – آنّا! انظري!

نهضت الفتاة واستدارت. ثمّة نقطة بيضاء تظهر وتختفي بين الأمواج.

خُيِّلَ لها أنّها ترى عوّامةً في البداية، ثمّ نورسًا يعوم، إلى أن رأت رأس كلبها.

– غيـر معقـول. – همسـت – كيـف اسـتطاع ذلـك؟ لقـد صرنـا بعيديـن جـدًا. – اشـتعلت حنجرتهـا بلفحـة حـرارة. – يـا لـي مـن ظالمـة.

انتزع أستور أمامها وأخذ يدوس: – هيّا، بسرعة.

ميّلـت آنّـا الدفّـة فاتّخـذ القـارب انعطافًـا عريضًـا وخلّـف وراءه شـريطًا أبيـض. كانـا يطحنـان سـاقيهما ويكـزّان أسـنانهما، ويسـتندان إلـى المقبـض، ويحـاولان ألّا يغيـب عـن مرمـى بصرهمـا. فهـو يظهـر هنـاك وبعـد لحظـةٍ واحـدة يختفـي.

– أين هو؟

– لا أدري...

– هـا هـو! هـا هـو! – أشـار أسـتور إلـى رأس الكلـب وهـي تطفـو علـى وجـه المـاء.

استأنفا الدوس بقوّةٍ كبرى على الرغم من تشنُّج ساقيهما.

– اصمـد، اصمـد. أرجـوك يـا كوكولونـي أن تصمـد. – كانـت آنّـا تتوسّـل. لكـنّ القـارب يتقـدّم ببـطء شـديد لأنّـه يجـري عكـس التيّـار. وكان الماريمـيُّ يُغمَـر بالمـاء قبالتهمـا، ويجـدّف بأرجلـه مـا بيـن الـرذاذ.

صارا على مقربة منه. لمحا خطمَه اللاهث وعينيه المصعوقتين برهةً وسـرعان مـا امتصّه البحر.

– لا تتباطـأ. – صاحـت آنّـا علـى أخيهـا. – واصـلِ الـدوس يـا أسـتور. – ثـمّ ألقـت بنفسـها علـى مقدّمـة القـارب ومـدّت جذعهـا وذراعيهـا. رأت كتلـةً بيضـاء تقبـل نحوهـا بسـرعة، وتنزلـق تحـت سـطح المـاء كالشـبح. أطالـت يديهـا وأمسـكت بجلـد الحيـوان، لكـنّ

التيّار دفعه تحت القارب. بحثت آنّا عن شيءٍ توطّد فيه قدميها، فلم تجد شيئًا، فاختلّ توازنها وسقطت في البحر. غاصت تحت الدوّاسات وهي تعبّ من الماء، وارتطمت رقبتها باللوح لكنّها لم تتهاون. أمسكت الكلب بيد، وتمكّنت بالأخرى من التشبّث بالسلّم الصغير. وكادت تختنق وهي مشدودةً كحبل المرساة ما بين القارب والكلب، وظلّت صامدةً حتّى خَفُتَ اندفاعها. انزلق أستور على المزلج المبلّل ليساعدها، وكاد يسقط في البحر هو الآخر. نهض وأمسك معصم أخته.

حاولا إنهاض الكلب إلى مؤخّرة القارب، آنّا تدفعه من تحت، وأستور يجرّه من رجليه. بدا وزنه فولاذيًا.

- أمسكه جيّدًا. - قالت آنّا، وتسلّقت بجانب أخيها مقطوعة الأنفاس. ثبّتا قدميهما على المقبض ونجحا أخيرًا في جرّ الكلب معًا إلى القارب.

كانت آنّا منهكة، ترتجف بردًا، تكاد لا تقوى على التنفّس. تقيّأت ماء البحر والنبيذ. وكان أستور يملأ صدره شهيقًا زفيرًا.

وراحا يهزّان الكلب لإنعاشه، لكنّ رأسه بعينيه الجاحظتين والزجاجيّتين كانت تتخبّط هامدةً على سطح القارب، فيما يتدلّى لسانه القاتم من فمه.

- هل مات؟ - تأتأ أستور.

بدأت آنّا تضربه على صدره وهي تصيح: - لا، لم يمت.

هذا الكلب مثل القطط، لديه سبعة أرواح. فلقد نجا من تعذيب ابن صاحب مقبرة السيّارات، ونجا من النار، ونجا من الصراعات الدمويّة، ونجا من الجوع والعطش، والجروح، والأمراض، وها هو الآن يقاوم مرّةً أخرى.

انطوت آنّا على نفسها وأخفت وجهها بيديها: - الذنب ذنبي. كلّ ذلك بسببي.

بكى أستور بفمه الغاطس في عنق الماريميّ. وكان البحر يلّلهم ويميل بهم ويجرّهم نحو ضفّة كالابريا.

طق. طق. طق.

ضرب ذنب كوكولوني على اللوح.

ما زال عليه أن يعيش حياته السابعة.

* * *

- إنّي لأتزوّج هذا البطل. - ضمّت آنّا إليها كوكولوني وهو يلهث بجوار بحيرةٍ من لعابه. - هل الزواج بكلب ممكنٌ؟!

بسط أستور ذراعيه: - لا أدري.

طبعت الفتاة المرتجفة قبلةً على خطم الماريميّ وهمست في أذنه السليمة: - اعذرني. أنت حبيبي. وأنا كنتُ مجحفةً بحقّك.

- أنا أيضًا أريد الزواج به. - قال الطفل.

- حسنًا. سنتزوّجه معًا.

اصطكّت أسنان آنّا من البرد فنزعت عنها ثيابها المبلّلة، جفّفت جلدها بالمنشفة وارتدت الألبسة الاحتياطيّة.

سكبت في كأس أستور قليلًا من النبيذ، لكنّه لم يعجب كوكولوني. وبعد قليل، وكما لو أنّ شيئًا لم يحدث له، نهض الكلب على أرجله بمفرده، هزّ وبره مرّتين وتموضع على مقدّمة القارب كتمثال الحيزوم.

استأنف الأخوان الدوس بينما تواصل الشمس هبوطها في الغرب. وكان التيّار يدفعهما نحو اليابسة، والأمواج تتحطّم على

مقدّمة القارب فترشقهما بالرذاذ المالح الذي يجفّ على وجهيهما ليستحيل قناعًا. وبين حينٍ وحين يشاهدان سمكةً تقفز من الماء وتنساب فيه بعيدًا.

مرّا بجانب عوّامةٍ صفراء كبيرة مزوّدة بألواح الطاقة الشمسيّة وبرجٍ صغير تعتليه منارةٌ تومض ضوءًا أحمر.

هذا ما رأيته من الشرفة.

وكلّما اقتربا من الساحل اتّضحت لهما رؤية الشطآن المقفرة، وكواسر الأمواج، والبيوت والأبنية البكماء والهامدة.

لم تكن آنّا تتكلّم، يضيق صدرها بثقلٍ هائل. إذ كانت مريضةً بالأمل، خلال الرحلة، يومًا في إثر يوم. حتّى ظنّت أنّ كالابريا مكانٌ مختلف.

* * *

تركا القارب الدوّاس عند شاطئٍ يغصّ بالزوارق المرميّة بعضها فوق بعض، واتّجها نحو المدينة.

قطعا حقل زيتون، محاذيًا بوّابة فيلا فيها مسبحٌ نمت فيه الحشائش. دلفا ما بين صفوف أبنية صغيرة قيد الإنشاء، ما زالت تحيط بها السقّالات الصدئة والعوارض وأحجار القرميد. عبرا مستنقعًا نتنًا وملطّخًا ببقع البنزين الملوّنة.

الأوتوستراد في البعيد، عاليًا، متّكئًا على دعامات ضخمة مغروسة في الجبل. وصلا إلى ساحةٍ فيها مقهى بلا لافتة، ومحلّ هواتف جوّالة منهوب، وكنيسة كبيرة مبنيّة من الأسمنت الرماديّ الذي تذرّت منه الفسيفساء. صعدا إلى طريق عريض، مملوء بالدكاكين والحانات المحترقة. ثمّة شاحنة مقلوبة في منتصفه، ومقدّمتها مسحوقة في حطام سيّارة سمارت.

- أين هم الكبار؟ - تذمَّرَ أستور.

لم تجب آنّا.

تجلّى أمامهم هرٌّ أبيض وأسود من الفراغ وقطع الشارع. فتأهّب كوكولوني.

كان الهرّ يقفز ويتملّص، لكنّ الكلب ظلّ يتعقّبه محاولًا أن يعضّ ذيله. وثب الهرُّ برشاقة، صعد على سقف سيّارة أوبل وطار منها نحو محلّ، ونفذ من تحت المغلاق المرفوع نصف متر. فتبعه الكلب.

- القطط مرّةً أخرى. - تعجّبت آنّا. - ألم يكن هذا الكلب على وشك الموت؟

تناهى نباحه من داخل المحلّ خفيضًا ومكبوتًا.

- كوكولوني! تعال إلى هنا. - ناداه أستور.

- اذهب واجلبه.

جلس الصغير على الرصيف يدلّك عضلات ساقيه: - اذهبي أنتِ!

رفعت آنّا عينيها إلى السماء. أخذت المشعل من الحقيبة، أضاءته ونفذت من تحت المغلاق.

كان المكان قاعة كبيرة ومستطيلة ليس فيها نوافذ. وعلى جدرانه عُلِّقَت ألواح تزلُّج وصور مطربين وكنزات وجزمات وبنطلونات جينز قديمة. وفي إحدى الزوايا ثمّة كابينة هاتف ولعبة فليبر. أمّا الرفوف القائمة على أوتاد خشبيّة، فكانت خاويةً والثيابُ مبعثرة على الأرض. كانت تسمع بحّة كوكولوني لكنّها لا تراه. وصلت إلى المصطبة المزيّنة بأنساقٍ من الأقفال.

الصندوق على الأرض. وخلف المصطبة سلّمٌ ضيّق ووعر يهبط إلى المستودع.

سدّدت آنّا المشعل، نزلت العتبة فدخلت إلى غرفة مكعّبة، ووجدت أطواقًا معلّقة بالسقف تشعّ منها سيول ضوء.

كان الماريميُّ يجأر على الهرّ الذي تحوّل إلى جسرٍ من وبر، ينظر إليه من أعلى متحصّنًا بين أكوام العلب. انقضّ الكلب بغتةً فأوقع العلب. ووثب الهرّ إلى جدار واختفى في السلّم.

وأمام آنّا انفتحت علبة زرقاء على الأرض. وكان فيها حذاء.

أمسكت آنّا فردة. شدّتها بين أصابعها. فوصلت إلى أنفها رائحة عبقة من المطّاط والجلد الجديد. حرّكت لسانها الفاتر في فمها، فأحسّت بمذاقٍ مُرّ. وجّهت المشعل إلى علامة الحذاء.

«أديداس هامبورغ. صُنِع في الصين. 8 ½ أمريكا. 8 بريطانيا. 42 فرنسا».

أربطته سوداء. وجهه من مخملٍ أصفر. وجلدته بنّيّة اللون.

وقعت على مؤخّرتها أرضًا. مدّدت جذعها وأسندت رأسها على القرميد البارد.

حاولت أن تنادي أستور، لكنّها فقدت صوتها. استنشقت الهواء المتبقّي في رئتيها. وأصابتها دوخةٌ فدارت الأشياء حولها: الكلب، آلة تبريد الماء، طفاية الحريق الحمراء، والعلب الزرقاء.

– آنّا. هل أنتِ في الأسفل؟

* * *

فتحا العلب كلّها، وبحثا في كلّ مكان من المستودع والمحلّ. فلم يعثرا على مثله.

كان أستور يقلّب فردةً بين يديه كما لو أنّها سحريّة. ثمّ أعطى أخته إياها: - هيّا، انتعليه.

نظرت إليه آنّا بصمت، عيناها تلمعان، وشفتاها مزمومتان. نزعت حذاءها ببطء، نظّفت قدميها بكنزة، وسّعت الأربطة، ورفعت لسان الحذاء وأنزلت فيه قدمها. ثمّ ربطته بعقدةٍ مزدوجة.

أعطاها أخوها الفردة الأخرى.

أرسلت غرّتها خلف أذنها: - سينتعل كلٌّ منّا فردة.

* * *

خرجا من تحت المغلاق وفي قدم كلٍّ منهما فردة أديداس وفردةٌ قديمة، ومشيا يسحلان. وكان الكلب يهرول بجانبهما.

توارت الشمس خلف الأبنية الرماديّة، لكنّ احمرارها ما زال يصبغ أسفل السماء.

نهضت فراشةٌ من شجرة خرّوب وعامت في الهواء عكسَ اتّجاه الريح. حملتها النسائمُ نحو الشقيقين. لامست شعر آنّا واندفعت نحو أستور الذي مدّ يده فمكثت على كفّ الصغير لحظات واستأنفت طيرانها المتردّد. ثمّ ظهرت فراشةً أخرى، وفراشةً أخرى، وأخرى، وأخرى حتّى امتلأ الطريقُ بمئات الأجنحة كأنّما تتساقط ثلوجٌ صفراء وسوداء.

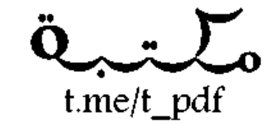
اجتازا البيوت ودخلا إلى منفذ الأوتوستراد المتّكئ على سفح تلّةٍ مدرَّجةٍ بمزارع الكروم.

توقّف أستور أمام الكشك، مدَّ ساقه ونظر إلى الحذاء.

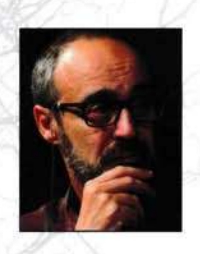
- ماذا لو أنّ مفعوله السحريّ لا يظهر بفردةٍ واحدة؟

شبكت آنّا يدها بيده وقالت:

- لا يهمّ.



NICCOLÒ AMMANITI



صدرت هذه الرواية عام 2015، حيث يتخيّل أمّانيتي الحياة في عام 2020 ما بعد الوباء الذي يضرب الأرض. الحمّى الحمراء -كما يسمّيها- تستهدف البالغين وتستثني الصغار الذين يعيشون طفولةً مهدورة في عالمٍ ديستوبيٍّ يعمّ فيه الخراب وتستفحل المخاطر وينعدم الأمان. غير أنّ الأمل يحتّم على البطلة آنا أن تصون شقيقها وأن تصحبه إلى مكانٍ تتمنّى أنّ الكبار قد نجوا فيه وتمكّنوا من إنتاج اللقاح.

يكثّف أمّانيتي تفاصيل كثيرة تشكّل رؤيته الروائيّة وبراعته السرديّة، فهو الذي درس البيولوجيا، ومنح أدوار البطولة في معظم رواياته لشخصيّة الطفل، يعود إلى قرّائه بهذا العمل الباهر من حيث اشتغاله على ثيمةٍ كابوسيّة ناجمة عن كارثة صحّيّة ينبغي للأطفال أن يجدوا منفذًا منها قبل أن يصلوا سنّ البلوغ ويفتك الفيروس بهم. لا بدّ أن يتسلّحوا بالأمل وحبّ الحياة مهما كانت الظروف، لأنّ عيش الحياة واجبٌ على الكائنات. وهذا ما يمرّره أمّانيتي في ثنايا الرواية بقوله:

«الحياة ليست لنا، الحياة تعبُر من خلالنا».

ISBN 978-9921-730-52-4





